بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مَوسُوعةُ البَراهِينِ والمُعجِزات

دلائلُ نبوّةِ محمّدٍ ﷺ وصِدقِ القُرآنِ الكريم

مُعجِزاتٌ عِلميّة · شواهدُ تاريخيّةٌ وأثَريّة · نُبوءاتٌ تَحقَّقَت

بِشاراتُ التّوراةِ والإنجيل · عالَمُ الجِنِّ والسِّحرِ والغَيب

مَشروحةٌ شَرحاً يَفهَمُه الطِّفل · ١٥١ رَسماً مُلوَّناً

١٥١ بُرهاناً مُرتَّباً بقُوَّتِه

قبل أن تبدأ... اقرأ هذا

هذا الكتابُ ليس كتابَ جِدال. هو كتابُ عَرْض: نضعُ أمامك الدّليلَ، ونشرحُه ببساطةٍ شديدة، ثمّ ندعُ عقلَك يحكم.

كيف تقرأ كلَّ صفحة؟

- **النّصّ في الإطار الذّهبيّ** – آيةٌ من القرآن، أو حديثٌ عن النّبيّ ﷺ، أو نصٌّ من كتابٍ قديم.
- **الرّسم الملوّن** – صورةٌ تشرحُ الفكرةَ بلا كلام.
- **بكلامٍ بسيط** – الفكرةُ كلُّها في سطرين، كما لو كنّا نشرحُ لطفلٍ في العاشرة.
- **ماذا كان النّاسُ يظنّون؟** – حالُ الدّنيا كلِّها يومَ نزلَ النّصّ.
- **ماذا يقول العلمُ اليوم؟** – ما اكتُشِفَ بعدَ ذلك بقرون.
- **لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟** – الخُلاصةُ التي لا مَهربَ منها.

ستجد أنّنا لا نقول «قال المفسّرُ فلان» ثمّ نُطيل. والسّببُ بسيط: المفسّرون الأوائلُ رحمهم الله كانوا يشرحون النّصَّ بأدواتِ زمانهم، ولم تكن عندهم مَراصدُ ولا مَجاهر. فمن الطّبيعيّ جدّاً ألّا يبلغوا المعنى الدّقيقَ الذي لم يُكتَشَف إلّا بعدهم بألفِ سنة. هذا لا يَنقُصُ منهم شيئاً – بل هو **الدّليلُ نفسُه**: لو كان النّصُّ من عندِ بشرٍ لما حَوى معنًى يعجِزُ أذكى أهلِ زمانه عن إدراكه.

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

ما معنى «مُعجِزة»؟

المُعجِزةُ ليست مجرّدَ شيءٍ عجيب. المُعجِزةُ هي أمرٌ يَعجِزُ البشرُ عن الإتيانِ بمثله، يأتي على يدِ نبيٍّ، ليكونَ عَلامةً على أنّ الذي أرسلَه هو خالقُ الكون.

اضرب لها مثالاً للطّفل

تخيّل أنّ طفلاً في الصّفِّ الأوّل كتبَ على السّبّورة معادلةً لا يفهمُها إلّا أساتذةُ الجامعات، ثمّ ظهرَ بعد ألفِ سنةٍ أنّها صحيحةٌ تماماً. لن تقول: «يا له من طفلٍ ذكيّ!» بل ستقول: **«مَن الذي أملى عليه؟»** هذا بالضّبط حالُ القرآن.

ثلاثةُ شروطٍ نلتزمُ بها في كلِّ صفحة

- **النّصُّ ثابتٌ قبل الاكتشاف.** القرآنُ مكتوبٌ ومحفوظٌ ومنقولٌ بالتّواتر منذ أربعةَ عشرَ قرناً، ولدينا مخطوطاتٌ مؤرَّخةٌ بالكربون تُثبتُ ذلك. فلا يمكن لأحدٍ أن يقول: «كُتِبَ بعد الاكتشاف».
- **المعنى واضحٌ في اللّفظ.** لا نَلوي عُنقَ الكلمة؛ نأخذُ معناها العربيَّ المعروفَ في المعاجم.
- **البشرُ وقتَها كانوا يعتقدون العكس.** وهذا أقوى ما في الباب: النّصُّ لم يُوافِق ثقافةَ عصره، بل **خالفَها** ثمّ تبيّنَ أنّه الصّواب.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

فِهرِسُ الكِتاب

١	البَراهينُ الكُبرى	٧٥ موضوعاً	ص ٥
٢	نُبوءاتُ النّبيِّ ﷺ التي تَحَقَّقَت	١٨ موضوعاً	ص ٨١
٣	بشاراتُ التّوراةِ والإنجيل	١٢ موضوعاً	ص ١٠٠
٤	مُعجزاتُ النّبيِّ ﷺ الحِسّيّة	١٦ موضوعاً	ص ١١٣
٥	عالَمُ الجنِّ والسِّحرِ والغَيب	١٨ موضوعاً	ص ١٣٠
٦	الإعجازُ في اللّغةِ والتّحدّي	١٢ موضوعاً	ص ١٤٩

المَجموع: ١٥١ بُرهاناً في ٦ أبواب

الباب الأول

البَراهينُ الكُبرى

خُلاصةُ الكِتاب: آياتُ الكَونِ والأرضِ والإنسانِ وشَواهِدُ التّاريخِ مجموعةً في بابٍ واحد، ومُرتَّبةً **من أقوى بُرهانٍ إلى أضعَفِه**. فالذي تقرَؤُه أوّلاً هو الذي لا مَهربَ منه، وكلَّما مَضَيتَ في الباب خَفَّ ثِقلُ الدَّليلِ قَليلاً.

٧٥ موضوعاً

١ سَبعُ مَراحِلَ... بالتَّرتيبِ الصَّحيح

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا

سورة المُؤمنون – الآية ١٤

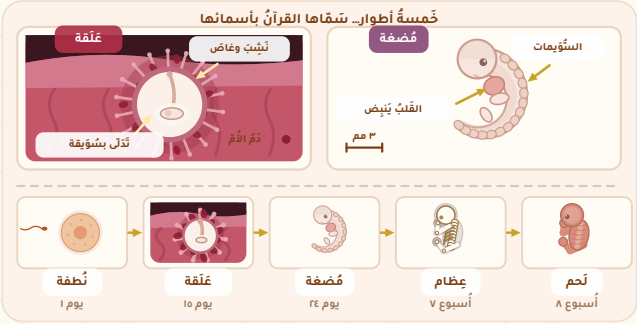

رَسمٌ مَبنيٌّ على أطوارِ كارنيجي وصُوَرِ الأجِنّةِ الحقيقيّة – بالنِّسَبِ والمَقاييسِ نَفسِها. الأسماءُ والتَّرتيبُ كما في كُتُبِ الطِّبِّ اليوم

بكلامٍ بسيط

خَمسُ مَراحِلَ سَمّاها القرآنُ بأسمائها قبلَ أربعةَ عَشَرَ قَرناً: قَطرةُ ماء، ثمّ **عَلَقة** – شيءٌ يَنشَبُ في جِدارِ الرَّحِمِ ثمّ يَتَدَلّى مُعَلَّقاً فيه كالثَّمَرةِ في غُصنِها، ثمّ **مُضغة** – قِطعةٌ صغيرةٌ عليها حُزوزٌ **كأنّ أسناناً مَضَغَتها**، ثمّ عِظامٌ تُرسَم، ثمّ لَحمٌ يَكسو العِظام. والرَّسمُ الذي في الأعلى **مَنقولٌ عن صُوَرِ الأجِنّةِ نَفسِها** – انظُر بعَينِك، ثمّ عُدْ واقرَأِ الآيةَ مَرّةً أُخرى.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

لم يُعرَف شيءٌ عمّا يجري داخلَ الرَّحِم. وكان الرَّأيُ السّائدُ عند أرسطو ومن تَبِعَه أنّ الجَنينَ يتكوّنُ من **دَمِ الحَيضِ المُتَجَمِّد**. ورأيٌ آخَر عند جالينوس أنّ العِظامَ واللَّحمَ يتكوّنانِ **معاً في وقتٍ واحد**.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

العَلَقة – نحوَ الأُسبوعَينِ الأوّلَين: ثَلاثُ حقائقَ مُوَثَّقةٍ تَقَعُ معاً: الكُرَيّةُ الجَنينيّةُ **تَلتَصِقُ بجِدارِ الرَّحِمِ ثمّ تَغوصُ فيه** حتّى تَنغَمِرَ في نَسيجِه؛ ثمّ **تَتَدَلّى داخِلَ كيسِها مُعَلَّقةً بسُوَيقةٍ رابِطة** – وهو ما تَراه في الرَّسمِ أعلاه؛ وتَنفَتِحُ حَولَها **فَجَواتٌ يَملَؤُها دَمُ الأُمّ** فتَغدو مُحاطةً به.

المُضغة – نحوَ الأُسبوعِ الرّابع: تَظهَرُ على ظَهرِ الجَنينِ كُتَلٌ تُسمّى **السُّوَيمات**. تُضافُ واحدةً بعدَ واحدةٍ حتّى تُقارِبَ أربعينَ زَوجاً، بينها أخاديدُ غائرة، فيَبدو سَطحُه مُحَزَّزاً – وطولُه يومَئذٍ ثَلاثةُ مِلّيمتراتٍ لا تُرى بلا تَكبير.

ثمّ العِظامُ فاللَّحم: يُرسَمُ الهَيكَلُ أوّلاً قَوالِبَ غُضروفيّة، ثمّ تَلتَفُّ العَضَلاتُ حَولَها فتَأخُذُ شَكلَها منها – كِساءً على مَكسُوّ، تماماً كما قال.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

قِف عندَ هاتَينِ الكَلِمَتَينِ ولا تَمُرَّ عليهما مَرَّ الكِرام. **كَلِمَتانِ اثنَتان** – «عَلَقة» و«مُضغة» – وَصَفَتا ما لم تَقَع عليه عَينُ إنسانٍ إلّا بعدَ أربعةَ عَشَرَ قَرناً، وبمِجهَرٍ وكاميرا.

الأولى: «عَلَقة». ولا تَأخُذها منّي – خُذها من المَعاجِم. قال الجَوهَريُّ في «الصِّحاح»، وقد ماتَ قبلَ **ألفِ سنة**: «**والعَلَقةُ: دودةٌ في الماءِ تَمَصُّ الدَّم**». ومِثلُه حَرفاً بحَرفٍ في «لِسانِ العَرَب». والجِذرُ نَفسُه يَدورُ على **النُّشوبِ والالتِصاق**، وعلى **التَّدَلّي والتَّعَلُّق**.

والآنَ ارفَع بَصَرَك إلى الرَّسمِ في أعلى الصَّفحة. ماذا تَرى؟ تَرى كائناً **نَشِبَ** في جِدارِ الرَّحِمِ وغاصَ فيه حتّى انغَمَرَ في لَحمِه؛ ثمّ **تَدَلّى** مُعَلَّقاً بسُوَيقةٍ داخِلَ كيسِه كما تَتَدَلّى الثَّمَرةُ من غُصنِها؛ وقد **أحاطَت به دِماءُ أُمِّه** من كلِّ جانِب. اسمٌ واحدٌ أصابَ الثَّلاثةَ جَميعاً. **فمَن أخبَرَه؟**

الثّانية: «مُضغة». وهي من **المَضْغ**. قال خالِدُ بنُ جَنبةَ كما في «لِسانِ العَرَب»: «**المُضغةُ من اللَّحمِ قَدْرُ ما يُلقي الإنسانُ في فيه**» – لُقمةٌ تُمضَغ. ثمّ يَأتي المِجهَرُ بعدَ أربعةَ عَشَرَ قَرناً فيُصَوِّرُ الجَنينَ في أُسبوعِه الرّابع، ويَقولُ كِتابُ «الإنسانُ النّامي» الجامِعيّ إنّ هذه الكُتَلَ **تَبدو من الخارِجِ نُتوءاتٍ كالخَرَز** على ظَهرِه، بينها أخاديدُ غائرة. انظُر إلى الرَّسم: كأنّما ضُغِطَ بين فَكَّين! وتَذَكَّر أنّ طولَه يومَئذٍ **ثَلاثةُ مِلّيمترات** – لا تَراه عَينٌ، ولا يُعرَفُ شَكلُه إلّا بتَكبيرٍ لم يُخلَق يومَئذ.

والثّالثة: العِظامُ ثمّ اللَّحم. أيُّ إنسانٍ يَنظُرُ إلى كُتلةٍ زَخوةٍ فيَقولُ: العَظمُ أوّلاً؟! العَقلُ يَقولُ العَكس. والعِلمُ يَقولُ: بل يُرسَمُ الهَيكَلُ أوّلاً، ثمّ تَلتَفُّ العَضَلاتُ حَولَه فتَأخُذُ شَكلَها منه. وهو عَينُ قَولِه: «**فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً**» – والكِساءُ لا يَكونُ إلّا على مَكسُوٍّ قائمٍ قبلَه!

أربَعُ كَلِماتٍ مُتَعاقِبةٍ في آيةٍ واحدة. **أربَعُ ضَرَباتٍ مُتَتالية.** كلُّ واحدةٍ كانت كافِيةً وَحدَها لتَهدِمَ النَّصَّ لو أخطَأَت – فما أخطَأَت واحدة. رَجُلٌ أُمِّيٌّ في صَحراء، لا يَقرَأُ ولا يَكتُب، يُسَمّي أطواراً لا تُرى بالعَين... فيُصيبُها بأسمائها واحِداً واحِداً. **فمَن عَلَّمَه؟**

٢ ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعض

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ

سورة النّور – الآية ٤٠

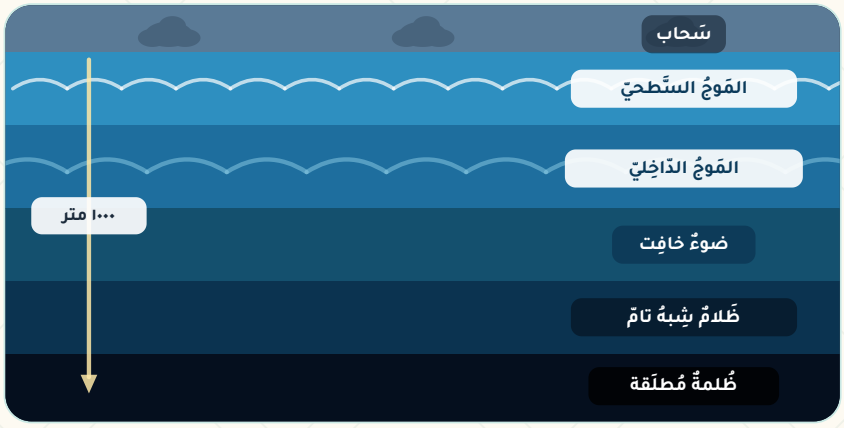

الضّوءُ يُبتَلَعُ طبقةً بعد طبقةٍ حتّى يَغيبَ تماماً تحتَ الألفِ متر

بكلامٍ بسيط

في أعماقِ البحرِ ظَلامٌ فوقَ ظَلام: السَّحابُ يَحجُبُ، ثمّ المَوجُ يَحجُب، ثمّ الماءُ يَبتلِعُ الألوانَ واحداً واحداً، حتّى لا يبقى أيُّ ضوءٍ على الإطلاق.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَنزِل إنسانٌ إلى عُمقٍ يزيدُ على بضعةِ أمتارٍ بحبسِ النَّفَس. وأعماقُ البحرِ كانت مَجهولاً مُطلَقاً. ولم يكن أحدٌ يعلمُ أنّ الظّلامَ هناك **طبقاتٌ متدرِّجة**، ولا أنّ تحتَ المَوجِ المرئيِّ مَوجاً آخَر لا يُرى.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الضّوءُ يُمتَصُّ في الماءِ تدريجيّاً: يختفي الأحمرُ عند ١٥ متراً، ثمّ البُرتقاليُّ فالأصفرُ فالأخضر، ولا يبقى إلّا الأزرقُ الخافِتُ حتّى يزولَ نحوَ ٢٠٠ متر. وبعد ألفِ مترٍ **ظَلامٌ مُطبِقٌ لا فوتون فيه**. كما اكتُشِفت **الأمواجُ الدّاخليّة** التي تتحرّكُ على الحدودِ بين طبقاتِ الماءِ المُختلفةِ الكثافة – أمواجٌ تحتَ الأمواج.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ رتّبت ثلاثةَ حُجُبٍ بالتّرتيبِ الصّحيح من الأعلى إلى الأسفل: سَحابٌ، ثمّ مَوجٌ، ثمّ **مَوجٌ آخَرُ تحتَه**. ووجودُ مَوجٍ ثانٍ تحتَ سطحِ البحرِ حقيقةٌ لم تُعرَف إلّا في القرنِ العشرين. ثمّ ختمت بالوصفِ الجامِع: «ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعض» – أي ظَلامٌ **مُتَراكِبٌ طَبَقيّ**، لا ظلامٌ واحد. وهذا هو الوصفُ الفيزيائيُّ الدّقيقُ لامتصاصِ الضّوءِ في الماء.

٣

ثَلاثُ مَراحِلَ لِصناعةِ المَطَر

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

سورة النّور – الآية ٤٣

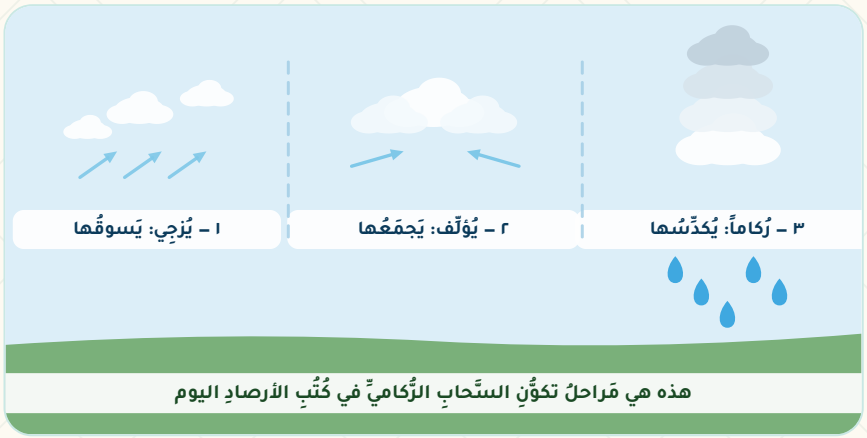

سَوقٌ، ثمّ التِحام، ثمّ تَراكُمٌ رأسيّ... ثمّ يَنزِلُ المَطَر

بكلامٍ بسيط

المَطَرُ لا يَنزِلُ فَجأة. له ثلاثُ خُطواتٍ بالتّرتيب: الرّيحُ **تَسوقُ** قِطَعَ السّحابِ الصّغيرة، ثمّ **تَلصَقُها** ببعضها، ثمّ **تُكوِّمُها** فوق بعضها كالجَبَل – وعندها يُمطِر.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

المَطَرُ كان حَدَثاً واحداً: سَحابٌ ثمّ ماء. لم يكن أحدٌ يَعرِفُ أنّ للسّحابِ **مَراحلَ بناءٍ مُرتَّبة**، ولا أنّ السّحابةَ المُمطِرةَ تختلفُ بِنيَةً عن السّحابةِ غيرِ المُمطِرة.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

هذا هو بالضّبطِ ما يُدرَّسُ في علمِ الأرصاد عن نشأةِ سَحابِ **الرُّكام (Cumulonimbus)**: تَيّاراتٌ هوائيّةٌ تَسوقُ خَلايا سَحابيّةً صغيرة، ثمّ تندمجُ هذه الخلايا، ثمّ تَنمو رأسيّاً في طبقاتٍ مُتراكِمةٍ قد يبلغُ ارتفاعُها ١٥ كيلومتراً. وعند هذه المرحلةِ **فقط** تكبُرُ القَطَراتُ كِفايةً لتَسقُط.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثلاثةُ أفعالٍ مُتَتابِعةٍ بحرفِ «ثُمّ» الدّالّ على التّرتيبِ والتّراخي: «يُزجِي» (يَسوقُ برِفق) ← «يُؤلِّفُ بينه» (يَدمُجُ القِطَع) ← «يجعلُه رُكاماً» (يُكدِّسُه رأسيّاً). هذا ترتيبٌ **لا يمكن عَكسُه ولا اختصارُه**، وهو عينُ التّرتيبِ العلميّ. ثمّ جاءت الدِّقّةُ الأخيرة: «يخرجُ **من خِلالِه**» – أي من فَتَحاتٍ وثَنايا داخلِ الكُتلة، لا من أسفلِها. وهو ما تُظهِرُه صُوَرُ الرّادار.

ثَلاثُمِئةٍ وسِتّونَ مَفصلاً... عَدَّها قبلَ التَّشريح

خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ

رواه مُسلِم – صحيح

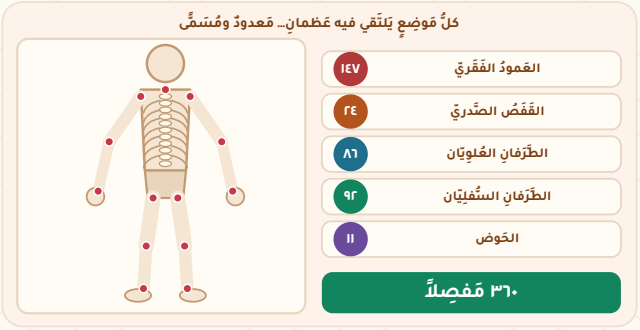

عَدَدٌ صَريحٌ لا يَقبَلُ التَّأويل – قيلَ قبلَ أوّلِ تَشريحٍ مَنهَجيٍّ بِتِسعةِ قُرون

بكلامٍ بسيط

في جَسَدِك **ثَلاثُمِئةٍ وسِتّونَ مَفصِلاً** – لا أكثَرَ ولا أقَلّ. قالها النَّبيُّ ﷺ قبلَ أربعةَ عَشَرَ قَرناً، وقَرَنَ بكلِّ مَفصِلٍ منها **صَدَقةً تُؤَدّيها كلَّ يوم**. والتَّشريحُ الحَديثُ يَعُدُّها فيَجِدُها كما قال.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

لم يَكُن في الجَزيرةِ تَشريحٌ ولا مَدارِسُ طِبٍّ ولا مِبضَعٌ يُفتَحُ به بَدَن. بل كان تَشريحُ الإنسانِ مُحَرَّماً في أكثَرِ الحَضاراتِ القَديمة، حتّى إنّ **جالينوس** – سَيِّدَ الطِّبِّ ألفاً وخَمسَمِئةِ سنة – بَنى تَشريحَه على القِرَدةِ والخَنازير، فوَقَعَ في أخطاءٍ ظَلَّت تُدَرَّسُ قُروناً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عُدَّت مَفاصِلُ الجَسَدِ عَدّاً – كلُّ مَوضِعٍ يَلتَقي فيه عَظمانِ، مُتَحَرِّكاً كان أو ثابِتاً – فكانت: **العَمودُ الفَقَريُّ ١٤٧**، و**القَفَصُ الصَّدريُّ ٢٤**، و**الطَّرَفانِ العُلويّانِ ٨٦**، و**الطَّرَفانِ السُّفليّانِ ٩٢**، و**الحَوضُ ١١**. المَجموع: **ثَلاثُمِئةٍ وسِتّون**.

ولَفظُ الحَديثِ نَفسِه يَحسِمُ أيَّ عَدٍّ يُرادُ، فقد سَمّاها في تَمامِه «**سُلامى**» – وهي في العربيّةِ تَشمَلُ كلَّ مَفصِلٍ في البَدَن، صَغيرَه وكَبيرَه، المُتَحَرِّكَ منه والثّابِت. فليس الرَّقمُ اصطِلاحاً حَديثاً أُسقِطَ على النَّصّ – بل **النَّصُّ هو الذي حَدَّدَ ما يُعَدّ**. وأوّلُ أطلَسٍ تَشريحيٍّ دَقيقٍ في تاريخِ البَشَرِ لم يَظهَر إلّا سنة ١٥٤٣ على يدِ **فيزاليوس**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انتَبِه إلى نَوعِ هذا الخَبَر. ليس وَصفاً يَحتَمِلُ التَّأويل، ولا تَشبيهاً يُقَرِّبُ به مَعنًى – بل **رَقم**. والرَّقمُ إمّا أن يُصيبَ وإمّا أن يَسقُط، ولا ثالِثَ بينهما. ولو أرادَ قائلُه السَّلامةَ لقالَ «مَفاصِلَ كَثيرة» أو «مِئاتِ المَفاصِل»، فلا يُؤخَذُ عليه شَيء. لكنّه قال: **سِتّينَ وثَلاثِمِئة**. رَقمٌ واحدٌ مُحَدَّدٌ مَعدود، في بَدَنٍ لم يُفتَح، في زَمَنٍ لا مِبضَعَ فيه ولا مِجهَر.

والأعجَبُ أنّ الرَّقمَ لم يُذكَر لذاتِه. جاء في سِياقِ عَمَل: على كلِّ مَفصِلٍ منها **صَدَقةٌ في كلِّ يوم** – تَسبيحةٌ، أو إماطةُ أذًى عن طَريق، أو كَلِمةٌ طَيِّبة. فالعَدَدُ **رُكنٌ في الحُكمِ لا زينةٌ في الكَلام**؛ ولو كان خَطأً لسَقَطَ الحُكمُ المَبنيُّ عليه معه. ومَن يَختَلِقُ ديناً لا يُعَلِّقُ عِبادةً يَوميّةً برَقمٍ تَشريحيٍّ يُمكِنُ أن يُكَذَّبَ بعدَه بقُرون.

وقد يُقال: لعلّه بَلَغَه من طِبِّ الصّين، فعِندَهم رَقمٌ قَريب. وهذا أوّلُ ما يَنبَغي أن يُفحَصَ لا أن يُدفَع – وفَحصُه يَزيدُ الحُجّةَ قُوّةً من ثَلاثةِ أوجُه:

الرَّقمُ غَيرُ ثابِت: في «هُوانغدي نَيجينغ» ٣٦٥ لا ٣٦٠، بل تَرِدُ فيه ٣٦٥ و٣٦٠ و٣٥٤ في مَواضِعَ شَتّى. **والمَعدودُ غَيرُ المَعدود:** «الجِيه» الصّينيّةُ مَواضِعُ وَخزٍ على مَساراتِ الطّاقةِ لا مَفاصِلُ بين عَظمَين، والنَّصُّ نَفسُه يَقولُ إنّها قُدِّرَت **على عَدَدِ أيّامِ السَّنة** – مُطابَقةٌ كَونيّةٌ لا إحصاءُ بَدَن، حتّى إنّ باحِثي الطِّبِّ الصّينيِّ أنفُسَهم يَقولون إنّ الرَّقمَ يُرادُ به «التَّمام» لا عَدٌّ حَقيقيّ. **والطَّريقُ مَقطوع:** أقدَمُ نَقلٍ مُوَثَّقٍ للطِّبِّ الصّينيِّ إلى العالَمِ الإسلاميِّ هو «تَنكسوق نامه» لرَشيدِ الدّينِ الهَمَذانيِّ سنةَ ١٣١٣م – **بعدَ الحَديثِ بسَبعةِ قُرون**.

ويَبقى الفاصِل: الحَديثُ سَمّى المَعدودَ **«سُلامى»**، وهي كَلِمةٌ عَرَبيّةٌ تُحَدِّدُ بنَفسِها ما يُعَدّ – ولو كان نَقلاً لَجاءَ المُصطَلَحُ معه. رَجُلٌ أُمّيٌّ لم يَفتَح بَدَناً قَطّ، ولم يَرَ عَظماً مُجَرَّداً إلّا في ذَبيحة، يُعطي أُمَّتَه رَقماً تَشريحيّاً تُبنى عليه عِبادة... ثمّ يَأتي المِبضَعُ بعدَ تِسعةِ قُرونٍ فيَعُدُّ فيَجِدُه كما قال. **فمَن أحصاها له؟**

٥ عَجْبُ الذَّنَب... منه خُلِقَ الإنسان

كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

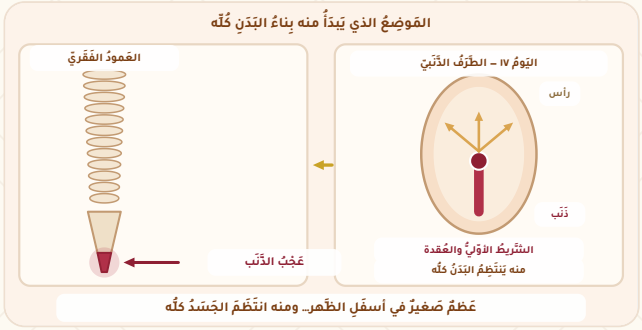

الشَّريطُ الأوّليُّ يَظهَرُ في الطَّرَفِ الذَّنَبيِّ للجَنين، ومنه تُبنى المَحاوِرُ والطَّبَقاتُ كلُّها

بكلامٍ بسيط

عَجْبُ الذَّنَبِ هو **العَظمُ الصَّغيرُ في أسفَلِ العَمودِ الفَقَريّ**. قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الإنسانَ **منه خُلِق**. وعِلمُ الأجِنّةِ اليومَ يَقول: إنّ بِناءَ البَدَنِ كُلِّه يَبدأُ من **شَريطٍ يَظهَرُ في الطَّرَفِ الذَّنَبيِّ للجَنين**، وفي رأسِه عُقدةٌ تُسَمّى «المُنَظِّم» – منها تَنتَظِمُ الطَّبَقاتُ الثَّلاثُ ومَحاوِرُ الجَسَدِ كلُّها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يُعرَف عن الجَنينِ في طَورِه الأوّلِ شَيء؛ فهو أقَلُّ من مِلّيمِتَرَين لا تُدرِكُه عَين. أمّا عَظمُ العُصعُص فكان يُنظَرُ إليه على أنّه **بَقِيّةٌ لا وَظيفةَ لها** – ذَنَبٌ ضامِر؛ حتّى عَدَّه علماءُ القَرنِ التّاسِعَ عشرَ في قائمةِ «الأعضاءِ الأثَريّةِ» التي لا نَفعَ فيها. فأن يُجعَلَ هذا المَوضِعُ بالذّاتِ **أصلَ التَّكوين** قَولٌ يُخالِفُ البَديهةَ نَفسَها: العَقلُ يَبدَأُ بالرَّأسِ أو بالقَلب، لا بأسفَلِ الظَّهر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في **اليَومِ السّابِعَ عشرَ** يَظهَرُ في القُرصِ الجَنينيّ خَطٌّ يُسَمّى **الشَّريطَ الأوّليّ**، ومَوضِعُه **الطَّرَفُ الذَّنَبيُّ** من الجَنين. وفي رأسِه **العُقدةُ البِدائيّة**، وهي التي تُسَمّى في عِلمِ الأجِنّةِ «**المُنَظِّم**»: تُقيمُ التَّناظُرَ بين الجانِبَين، وتُحَدِّدُ مَوضِعَ التَّعَرُّج، وتَبدَأُ منها الطَّبَقاتُ الجَرثوميّةُ الثَّلاث، وتُرسَمُ بها مَحاوِرُ البَدَن: الرَّأسُ من الذَّنَب، واليَمينُ من اليَسار.

وقد أثبَتَ **شبيمان ومانغولد** سنة ١٩٢٤ أنّ نَقلَ هذه العُقدةِ وَحدَها إلى جَنينٍ آخَرَ يُنشِئُ فيه **جَنيناً ثانياً كامِلاً** – ونالَ شبيمان بها نوبل سنة ١٩٣٥.

ثمّ يَنحَسِرُ الشَّريطُ ويَصيرُ باقيه **بُرعُمَ الذَّنَب** في اليَومِ العِشرين. وتَبقى له صِلةٌ سَريريّةٌ مَعروفة: **الوَرَمُ المَسخيُّ العُصعُصيّ** يُنسَبُ إلى بَقايا الشَّريطِ الأوّليّ، ولا يُكتَفى في جِراحَتِه باستِئصالِ الوَرَم – بل **يُستَأصَلُ العُصعُصُ معه**، لأنّ إبقاءَه هو ما يُعيدُ الوَرَم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انظُر إلى حَرفِ الجَرِّ وَحدَه. لم يَقُل «فيه خُلِق» ولا «خُلِقَ قبلَ غَيرِه»، بل **«منه خُلِق»** – فجَعَلَ المَوضِعَ **مَصدَراً** يَخرُجُ منه البِناء. وهذا بالضَّبطِ تَوصيفُ المُنَظِّم: ليس أوّلَ عُضوٍ يَتَكَوَّن، بل المَوضِعُ الذي **تَنتَظِمُ منه** بَقِيّةُ الأعضاء.

ثمّ انظُر إلى المَوضِعِ الذي اختِيرَ: أسفَلُ الظَّهر. لا شَيءَ في مُشاهَدةِ القَرنِ السّابِعِ يَدفَعُ إلى تَسميتِه أصلاً للخَلق، بل كلُّ شَيءٍ يَصرِفُ عنه. وما كان لأحَدٍ أن يَراه: الجَنينُ في اليَومِ السّابِعَ عشرَ أصغَرُ من أن تُدرِكَه العَينُ المُجَرَّدة.

وهنا نَقِفُ عندَ حَدٍّ يَجِبُ أن يُقال. شَطرُ الحَديثِ الثّاني – «**وفيه يُرَكَّب**» – خَبَرٌ عن البَعث، وهو أمرٌ غَيبيٌّ لا تَبلُغُه تَجرِبة، ولا نَبني عليه هنا شَيئاً. وما يُشاعُ من أنّ العِلمَ «أثبَتَ أنّ العُصعُصَ لا يَفنى» فلا نَعلَمُ له بَحثاً مَنشوراً مُحَكَّماً يُسنِدُه – **وتَركُ ما لا دَليلَ عليه أنفَعُ للحُجّةِ من تَكثيرِها به**. فالنَّقلُ كلُّه في الشَّطرِ الأوّل: جُملةٌ قَصيرةٌ عن مَوضِعٍ في البَدَن، قابِلةٌ للفَحص، جاءت قبلَ المِجهَرِ بألفِ سنة... فوافَقَت. **فمَن دَلَّه عليه؟**

١ الحَجرُ الصِّحّيُّ... قبلَ ألفِ سنةٍ من الطِّبّ

إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

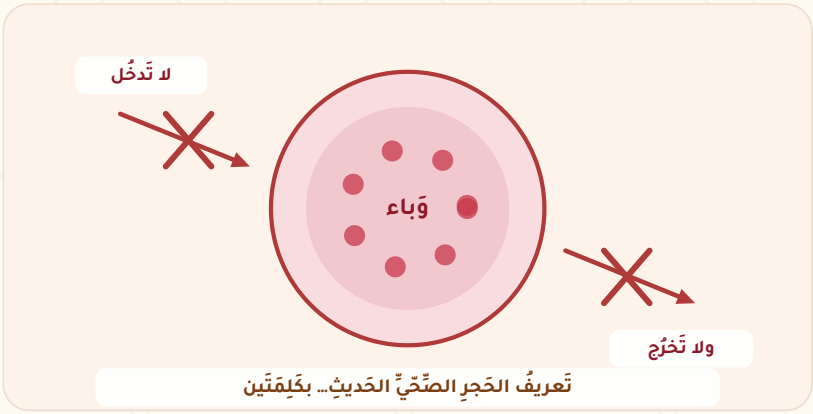

مَبدأٌ صَحِّيٌّ عالَميٌّ صيغَ في القَرنِ السّابِعِ الميلاديّ

بكلامٍ بسيط

إذا ظَهَرَ وَباءٌ في بَلَد: **لا تَدخُلْه** إن كُنتَ خارِجَه، و**لا تَخرُج منه** إن كُنتَ فيه. وهذا هو بالضّبطِ تَعريفُ **الحَجرِ الصِّحّيّ** الذي طَبَّقَه العالَمُ كلُّه في وَباءِ كورونا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الأوبِئةُ تُفهَمُ على أنّها غَضَبٌ أو أرواحٌ شِرّيرةٌ أو هَواءٌ فاسِد. والسُّلوكُ الطَّبيعيُّ عند وُقوعِها هو **الفِرارُ الجَماعيّ** – وهو أسوأُ ما يُمكِنُ فِعلُه، لأنّه يَنقُلُ العَدوى إلى كلِّ مَكان. ولم تَكُن الجَراثيمُ مَعروفةً، ولم يُعرَف أنّ المَرَضَ يَنتَقِلُ بالمُخالَطة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

نَظَريّةُ الجُرثومةِ لم تَستَقِرَّ إلّا في القَرنِ التّاسِعَ عشر على يدِ باستور وكوخ. وأوّلُ حَجرٍ صِحّيٍّ مُنَظَّمٍ في أوروبّا كان في البُندُقيّةِ سنة ١٣٧٧ م – أي بعدَ الحَديثِ بسَبعةِ قُرون. والمَبدأُ المَذكورُ في الحَديثِ هو **حَجرٌ ثُنائيُّ الاتّجاه**: مَنعُ الدُّخولِ ومَنعُ الخُروج – وهو بعَينِه ما نَصَّت عليه اللّوائحُ الصِّحّيّةُ الدَّوليّةُ لمُنَظَّمةِ الصِّحّةِ العالَميّة، وما طُبِّقَ في العالَمِ كلِّه سنة ٢٠٢٠.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النِّصفُ الثّاني من الحَديثِ هو الأصعَبُ والأذكى. فمَنعُ الدُّخولِ إلى أرضِ الوَباءِ أمرٌ قد يَهتَدي إليه العَقلُ بالحَذَر. أمّا **مَنعُ الخُروجِ منها** فيُخالِفُ غَريزةَ البَقاءِ نَفسَها، ولا يَستَقيمُ إلّا إذا عُلِمَ أنّ الخارِجَ قد يَحمِلُ المَرَضَ معه **وهو لا يَشعُر** – أي إدراكُ فِكرةِ «**الحامِلِ الصّامِتِ للعَدوى**». وهذه فِكرةٌ لم تُعرَف إلّا في القَرنِ العشرين.
وقد طَبَّقَها عُمَرُ بنُ الخَطّابِ عَمَليّاً في **طاعونِ عَمَواس** فرَجَعَ بالجَيشِ عن الشّام، فلَمّا عُوتِبَ قال: «نَفِرُّ من قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ الله».

٧ غُلِبَتِ الرُّومُ... وسَيَغلِبُون

الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ

سورة الرّوم – الآيات ١-٤

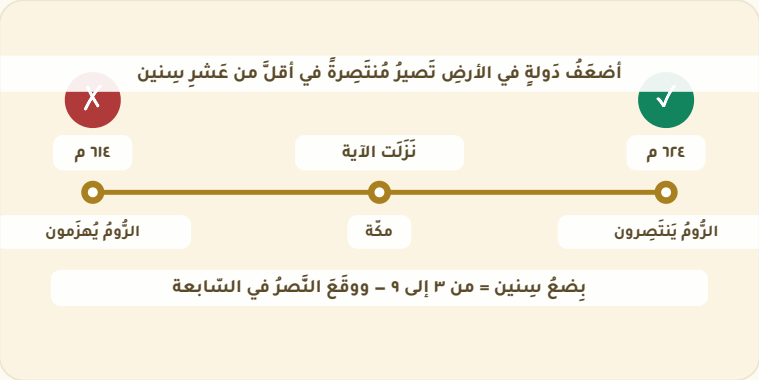

خَبَرٌ نَزَلَ في مكّةَ عن حَربٍ تَجري على بُعدِ آلافِ الأميال

بكلامٍ بسيط

خَسِرَت الرُّومُ حَرباً خَسارةً ساحِقة، حتّى ظَنَّ النّاسُ أنّها انتَهَت. فنَزَلَت آيةٌ تقول: **ستَنتَصِرُ الرّومُ خِلالَ بِضعِ سِنين**. ووَقَعَ ذلك بعدَ سَبعِ سِنين.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

سنة ٦١٤ للميلادِ سَحَقَ الفُرسُ الرُّومَ سَحقاً: أخَذوا الشّامَ ومِصرَ والقُدس، وسَبَوا الصَّليبَ المُقَدَّس. وكانت الدَّولةُ الرُّومِيّةُ على شَفا الانهِيارِ التامّ – خِزانةٌ خاوِيةٌ وجَيشٌ مُحَطَّمٌ وتَمَرُّدٌ داخِليّ. ولم يَكُن أحدٌ في الأرضِ يُراهِنُ على عَودَتِها. وقد راهَنَ مُشرِكو مكّةَ أبا بكرٍ على كَذِبِ الآيةِ – وكان الرِّهانُ جائزاً قبلَ تَحريمِه.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

سنة ٦٢٢ خَرَجَ هِرَقلُ في حَملةٍ مُضادّة، وفي **ديسمبر ٦٢٧** سَحَقَ الجَيشَ الفارِسيَّ في مَعركةِ نِينَوى قُربَ المَوصِل، ثمّ أسقَطَ كِسرى وأعادَ الصَّليب. وهذا مُثبَتٌ في المَصادِرِ البيزنطيّةِ والفارِسيّةِ والسُّريانيّة، مُستَقِلّاً عن المَصادِرِ الإسلاميّة. ووافَقَ ذلك انتِصارَ المُسلِمينَ في بَدر، كما قالت الآيةُ التّالية: «ويومئذٍ يَفرَحُ المُؤمِنون».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذه ليست حِكمةً ولا وَصفاً – هي **نُبوءةٌ مُحَدَّدةُ المَوضوعِ والمُدّة**، وصَدَرَت في أسوإِ لَحَظةٍ مُمكِنةٍ للمُتَنَبَّأ له. و«بِضع» في العربيّةِ مَحصورةٌ بين الثَّلاثِ والتِّسع – فهي مُدّةٌ مُغلَقةٌ قابِلةٌ للتَّكذيب. ولو مَضَت عَشرُ سِنينَ دون نَصرٍ لسَقَطَت الدَّعوةُ كلُّها أمام خُصومِها. وأدَقُّ من ذلك: «في **أدنى الأرض**» – والمَعركةُ وَقَعَت في مِنطَقةِ البَحرِ المَيِّت، وهي **أخفَضُ بُقعةٍ يابِسةٍ على سَطحِ الكوكب** (٤٣٠ متراً تحت سَطحِ البحر) – حقيقةٌ جُغرافيّةٌ لم تُقَس إلّا في القَرنِ التّاسِعَ عشر.

ناصِيَةٌ كاذِبَةٌ خاطِئَة

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ

سورة العَلَق – الآيتان ١٥-١٦

وَظائفُ هذا الفَصّ
- اتّخاذُ القَرار
- الكَذِبُ والصِّدق
- كَبْحُ السُّلوكِ الخاطِئ
- التَّخطيطُ والمُبادَرة

لا تَنشَأُ نِيّةُ الكَذِبِ في أيِّ مَوضِعٍ آخَرَ من الدِّماغ

التَّصويرُ الوَظيفيُّ يُظهِرُ نَشاطَ الفَصِّ الجَبهيِّ لَحظةَ الكَذِب

بكلامٍ بسيط

«النّاصية» هي مُقَدَّمُ الرَّأسِ من الأمام. والقرآنُ وَصَفَها بأنّها «كاذِبةٌ خاطِئة» – أي أنّ **الكَذِبَ والخَطأَ يَصدُرانِ من هذا المَوضِعِ بالذّات**. وهذا ما أثبَتَه علمُ الأعصاب.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الرَّبطُ بين جُزءٍ مُحدَّدٍ من الرَّأسِ ووَظيفةٍ أخلاقيّةٍ كالكَذِبِ لم يَكُن مَوجوداً. بل إنّ الفلاسفةَ اختلفوا أصلاً: أرسطو جَعَلَ مَركزَ التَّفكيرِ في **القَلب** لا في الدِّماغ. وتَحديدُ وَظائفِ مَناطقِ الدِّماغِ لم يَبدأ إلّا في القرنِ التّاسعَ عشر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الفَصُّ الجَبهيُّ الأماميّ (Prefrontal Cortex) – وهو ما يَقَعُ خَلفَ الجَبهةِ مُباشرةً – هو مَركزُ اتِّخاذِ القَرارِ والتَّخطيطِ وكَبحِ السُّلوك. ودِراساتُ التَّصويرِ بالرَّنينِ الوَظيفيِّ تُظهِرُ أنّ **الكَذِبَ المُتَعَمَّدَ يُنشِّطُ هذه المِنطقةَ تحديداً**، لأنّه يَتَطَلَّبُ كَبحَ الحقيقةِ وبِناءَ بَديلٍ عنها. وتَلَفُ هذه المِنطقةِ يُفقِدُ صاحِبَه القُدرةَ على ضَبطِ سُلوكِه – كما في حالةِ فِينياس غيج الشَّهيرة سنة ١٨٤٨.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ دِقّةَ النِّسبة. الآيةُ لم تقُل: «ناصِيةِ كاذِبٍ خاطِئ» – أي صاحِبِها – بل وَصَفَت **النّاصِيةَ نفسَها** بالكَذِبِ والخَطأ، فجَعَلَت الفِعلَ صادِراً من العُضوِ لا من الشَّخص. وهذا تَحديدٌ تَشريحيٌّ لمَوضِعِ الوَظيفة. والأشدُّ لَفتاً: الرَّجُلُ المَقصودُ بالآية كان يُهدَّدُ في أشرفِ ما عنده – فلم يُخَصَّ بالذِّكرِ قَلبُه ولا لِسانُه، بل مُقَدَّمُ رأسِه: مَركزُ القَرارِ والكَذِبِ في الدِّماغ.

٩ النَّحلُ العامِلُ... كلُّه إناث

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ۝ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

سورة النَّحل – الآيتان ٦٨-٦٩

كلُّ نَحلةٍ تَراها تَجمَعُ الرَّحيقَ وتَبني الشَّمعَ هي أُنثى

بكلامٍ بسيط

كلُّ الأوامرِ التي وَجَّهَها اللّهُ للنَّحلِ في هذه الآياتِ جاءت **بصيغةِ المُؤنَّث**: «اتَّخِذي، كُلي، اسلُكي». والعِلمُ يقول: النَّحلُ الذي يَبني ويَجمَعُ ويَصنَعُ العَسَل **إناثٌ كلُّه**، بلا ذَكَرٍ واحد.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان الشّائعُ في العالمِ القديمِ أنّ رأسَ الخَليّةِ **مَلِكٌ ذَكَر** – وقد نَصَّ على ذلك أرسطو وسَمّاه «المَلِك»، وتَبِعَه الأوروبيّون قُروناً حتّى سَمَّوه King Bee. ولم يُثبَت أنّ رأسَ الخَليّةِ أُنثى إلّا سنة ١٦٦٨ على يدِ العالِمِ الهولنديِّ يان سوامردام.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

خَليّةُ النَّحلِ ثَلاثةُ أصناف: **مَلِكةٌ أُنثى** واحدة، وآلافٌ من **الشَّغّالاتِ الإناث** وهُنَّ اللّاتي يَبنينَ الشَّمعَ ويَجمَعنَ الرَّحيقَ ويَصنَعنَ العَسَلَ ويَحرُسنَ ويُنظِّفن، وبِضعُ مئاتٍ من **الذُّكور** لا وَظيفةَ لها سوى تَلقيحِ المَلِكةِ ثمّ تَموتُ أو تُطرَد. فالذَّكَرُ لا يَخرُجُ للرَّعيِ ولا يَبني ولا يَدخُلُ في صِناعةِ العَسَلِ إطلاقاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الالتِزامُ التّامُّ بصيغةِ التَّأنيثِ في ثَلاثةِ أفعالٍ مُتَتالية، في لُغةٍ يُغلَّبُ فيها المُذَكَّرُ عند اجتِماعِ الجِنسَين، ليس مُصادَفةً نَحويّة. بل إنّ التَّخصيصَ يَزدادُ دِقّة: الأفعالُ الثّلاثةُ هي بالضّبطِ وَظائفُ **الشَّغّالةِ الأُنثى** – بِناءُ البُيوت، والرَّعيُ على الثَّمَرات، وسُلوكُ الطُّرُقِ ذَهاباً وإياباً. ولو أُريدَ الجِنسُ كلُّه لجاءَت بصيغةِ الجَمعِ المُذَكَّر، وهذا يُخالِفُ ما كان يَعتَقِدُه أعلَمُ أهلِ الأرضِ آنذاك.

١٠

السَّمعُ قبلَ البَصَر... في كلِّ مَرّة

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

سورة النَّحل – الآية ٧٨

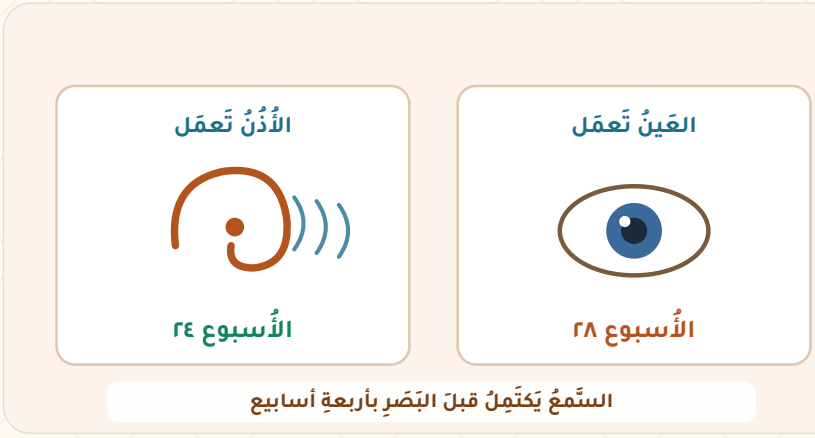

في القرآنِ كلّه لم يَتَقدَّم البَصَرُ على السَّمعِ في سِياقِ خَلقِ الإنسانِ مرّةً واحدة

بكلامٍ بسيط

القرآنُ يَذكُرُ السَّمعَ **دائماً** قبل البَصَر، في كلِّ مَوضِعٍ بلا استثناء. والعِلمُ يقول: أُذُنُ الجَنينِ تَعمَلُ وتَسمَعُ قبلَ أن تَعمَلَ عَيناه بشُهور.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَينُ هي الحاسّةُ التي يُقدِّمُها كلُّ إنسانٍ بالفِطرة: «رأيتُ بعَيني» أقوى من «سَمِعت»، و«شاهَدَ العَيانِ» فوق الخَبَر. والتّرتيبُ الطّبيعيُّ في كلِّ اللُّغاتِ يَبدأُ بالبَصَر. ولم يكن يُعرَفُ أنّ الجَنينَ يَسمَعُ أصلاً.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

قوقَعةُ الأُذُنِ تَكتَمِلُ بُنيَتُها في الأُسبوعِ العِشرين تقريباً، ويَستَجيبُ الجَنينُ للأصواتِ استجابةً مُثبَتةً من **الأُسبوعِ الرّابعِ والعشرين**. أمّا الشَّبَكيّةُ والمَسارُ البَصَريُّ فلا يَكتَمِلانِ وظيفيّاً قبل **الأُسبوعِ الثّامنِ والعشرين**. والمَولودُ يُميِّزُ صوتَ أُمِّه فور وِلادَتِه، بينما لا يرى بوُضوحٍ إلّا بعد شُهور.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الإعجازُ ليس في مَوضِعٍ واحد، بل في **الاطّرادِ التامّ**. لو كان التّرتيبُ اتِّفاقاً لَتَبَدَّلَ ولو مرّةً في ثَلاثةَ عشرَ مَوضِعاً. وهو مُطَّرِدٌ رَغمَ أنّه يُخالِفُ الذَّوقَ اللُّغويَّ العامّ. بل إنّ الدِّقّةَ تَزيد: «السَّمْع» جاءت **مُفرَدةً دائماً** و«الأبصار» **جَمعاً دائماً** – لأنّ السَّمعَ حاسّةٌ واحدةٌ تَستقبِلُ من كلِّ الجِهاتِ نَوعاً واحداً من المُدرَكات، بينما تُنتِجُ العينانِ صُوَراً مُختلِفةً تُدمَجُ في الدِّماغ.

١١ الألَمُ يَسكُنُ في الجِلد

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ

سورة النِّساء – الآية ٥٦

نِهاياتٌ عَصَبيّةٌ حُرّةٌ كَثيفةٌ قُربَ السَّطح

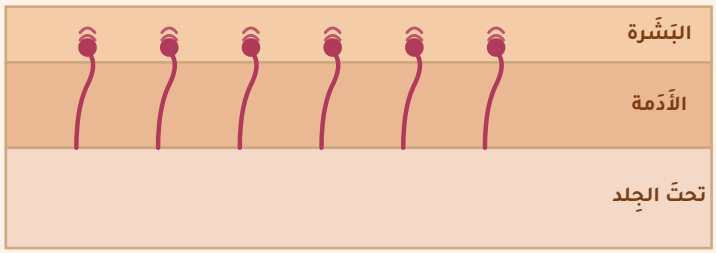

مُستَقبِلاتُ الألَمِ كلُّها في الجِلد – فإذا احتَرَقَ زالَ الإحساس

الحَرقُ العَميقُ من الدَّرجةِ الثّالثةِ لا يُؤلِمُ – لأنّ مُستَقبِلاتِ الألَمِ احتَرَقَت

بكلامٍ بسيط

الإحساسُ بالألَمِ ليس في كلِّ الجَسَد – بل في **الجِلدِ** تحديداً. ولذلك حين يَحتَرِقُ الجِلدُ حَرقاً عَميقاً، يَتَوَقَّفُ الإحساسُ بالألَمِ في ذلك المَوضِع. والآيةُ تُبَدِّلُ الجِلدَ حتّى يَستَمِرَّ الإحساس.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الألَمُ كان يُتَصوَّرُ إحساساً عامّاً في الجَسَدِ كلِّه، أو في القَلبِ أو في الرّوح. ولم يكن يُعرَفُ أنّ له **مُستَقبِلاتٍ عَصَبيّةً مُتَخَصِّصة**، ولا أنّ لها مَوضِعاً بعَينِه. ولم تُوصَف مُستَقبِلاتُ الألَمِ علميّاً إلّا سنة ١٩٠٦ على يدِ شارلز شيرينغتون.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

مُستَقبِلاتُ الألَمِ (Nociceptors) نِهاياتٌ عَصَبيّةٌ حُرّةٌ تَتَرَكَّزُ في **طَبَقاتِ الجِلد**. وفي الحُروقِ من الدَّرجةِ الثّالثة، حيث يَتَلَفُ الجِلدُ بكامِلِ سُمكِه، **يَفقِدُ المُصابُ الإحساسَ بالألَمِ في المَوضِعِ المَحروق** تماماً – وهذه علامةٌ تَشخيصيّةٌ مُعتَمَدةٌ يَستَعمِلُها الأطِبّاءُ للتَّفريقِ بين دَرَجاتِ الحَرق. والعِلاجُ يَقتَضي تَرقيعَ الجِلدِ ليَعودَ الإحساس.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

العِلّةُ مَذكورةٌ في الآيةِ نفسِها: «**لِيَذُوقُوا العَذَاب**». أي أنّ تَبديلَ الجِلدِ ليس زِيادةً في العُقوبة، بل هو **شَرطُ استِمرارِ الإحساسِ بها**. وهذا يَقتَضي معرفةَ أمرَين مَعاً: أنّ الإحساسَ بالألَمِ مَوضِعُه الجِلد، وأنّ الجِلدَ إذا نَضِجَ (احتَرَقَ تماماً) **بَطَلَ الإحساس**. فالآيةُ لم تَصِف الألَمَ فحسب، بل بَنَت عليه حُكماً مَنطِقيّاً لا يَصِحُّ إلّا بهذه الحَقيقةِ الطِّبّيّة.

١٢

لَبَنٌ خالِصٌ من بينِ فَرْثٍ ودَم

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾

سورة النَّحل – الآية ٦٦

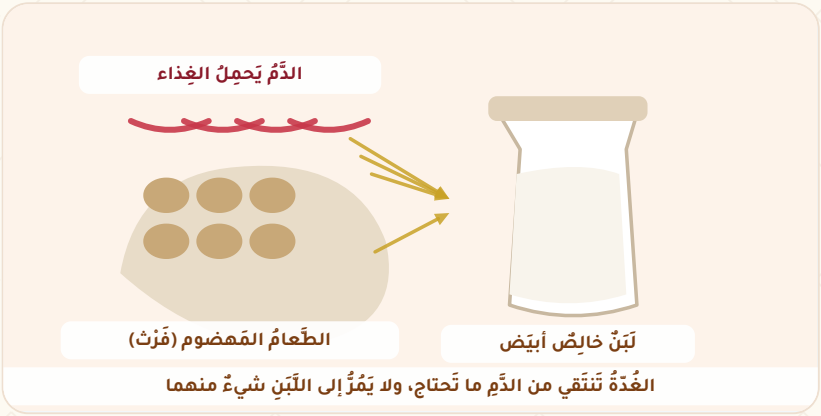

اللَّبَنُ يُصنَعُ في الضَّرعِ من مَوادَّ يَحمِلُها الدَّمُ من الأمعاء

بكلامٍ بسيط

اللَّبَنُ الأبيَضُ النَّقيُّ الذي تَشرَبُه يُصنَعُ في جِسمِ البَقَرةِ في مَوضِعٍ **بين** الطَّعامِ المَهضومِ في الأمعاءِ والدَّمِ الذي يَجري في العُروق. ومع ذلك يَخرُجُ **خالِصاً** لا لَونَ فيه من هذا ولا من ذاك.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تُعرَف آليّةُ تَكوُّنِ اللَّبَنِ إطلاقاً. وكان الظَّنُّ أنّ اللَّبَنَ يَتَجَمَّعُ في الضَّرعِ كما يَتَجَمَّعُ الماءُ في القِربة. أمّا رَبطُه بالطَّعامِ المَهضومِ والدَّمِ معاً، وتَحديدُ مَوضِعِه **بينهما**، فلم يَكُن لأحدٍ به عِلم.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

الغِذاءُ يُهضَمُ في الأمعاءِ ثمّ تُمتَصُّ مُكوِّناتُه إلى الدَّم. والدَّمُ يَحمِلُها إلى الغُدّةِ اللَّبَنيّةِ في الضَّرع، فتَلتَقِطُ الخَلايا الطَّلائيّةُ من الدَّمِ ما تَحتاجُه من سُكَّرٍ وأحماضٍ أمينيّةٍ ودُهونٍ وأملاح، ثمّ **تُرَكِّبُ اللَّبَنَ تَركيباً جَديداً** وتُفرِزُه. فاللَّبَنُ لا هو دَمٌ مُصَفّى ولا هو طَعامٌ مُذاب، بل مادّةٌ مُصَنَّعةٌ مَوضِعُها بين الجِهازِ الهَضميِّ والدَّورةِ الدَّمَويّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

حَرفُ الجَرِّ «**من بَينِ**» هو مَوضِعُ الإعجاز. لم تَقُل الآيةُ «من فَرْثٍ ودَم» – فيكونَ اللَّبَنُ مُستَخرَجاً منهما ومُختَلِطاً بهما؛ ولم تَقُل «بعد فَرْثٍ ودَم». بل قالت «من بَينِهما» – أي أنّ مَوضِعَ الإنتاجِ **واقِعٌ بينهما في السِّلسِلة**: بعدَ الهَضمِ وبعدَ نَقلِ الدَّم، وقبلَ خُروجِ اللَّبَن. ثمّ وَصَفَ النّاتِجَ بأنّه «**خالِصاً**» – أي خالياً تماماً من أثَرِ ما جاء منه. وصفٌ لمَسارٍ فِسيولوجيٍّ لم يُفهَم إلّا بعد اكتِشافِ الدَّورةِ الدَّمَويّةِ سنة ١٦٢٨.

١٣

اغسِل يَدَيكَ قبلَ أن تَعرِفَ لماذا

إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

«فإنّه لا يَدري أينَ باتَت يَدُه» – تَعليلٌ قائمٌ على ما لا يُرى

٤	٣	٢	١
غَسلُ الفَمِ والأنفِ والوَجه	السِّواك عندَ كلِّ صَلاة	غَسلُ اليَدِ عندَ الاستيقاظ	الوُضوءُ خَمساً في اليوم

غَسلُ اليَدَينِ أهَمُّ إجراءٍ وِقائيٍّ مُنفَرِدٍ في الطِّبّ
مُنَظَّمةُ الصِّحّةِ العالَميّة

نِظامُ طَهارةٍ يَوميٍّ مَفروضٌ على كلِّ مُسلِمٍ خَمسَ مَرّات

بكلامٍ بسيط

أمَرَ النَّبيُّ ﷺ بغَسلِ اليَدَينِ عند الاستيقاظِ قبلَ لَمسِ الطَّعام، وعَلَّلَ ذلك بعِلّةٍ عَجيبة: **«لا يَدري أينَ باتَت يَدُه»** – أي أنّ هناك أذًى مُحتَمَلاً **لا يُرى بالعَين**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن الجَراثيمُ مَعروفةً بأيِّ صورة. والنَّظافةُ كانت مَسألةَ **مَظهَرٍ ورائحة**: إن كانت اليَدُ نَظيفةً في العَينِ فهي نَظيفة. ولم يَكُن هناك مَفهومٌ لِتَلَوُّثٍ خَفِيٍّ يَنتَقِلُ باللَّمس. بل ظَلَّ الأطِبّاءُ في أوروبّا حتّى القَرنِ التّاسِعَ عَشَرَ يَنتَقِلونَ من تَشريحِ المَوتى إلى تَوليدِ النِّساءِ بلا غَسلِ أيدٍ.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

غَسلُ اليَدَينِ هو اليومَ **أهَمُّ إجراءٍ وِقائيٍّ مُنفَرِدٍ في الطِّبِّ كلِّه** بإقرارِ مُنَظَّمةِ الصِّحّةِ العالَميّة، ويَمنَعُ وَحدَه مَلايينَ الإصاباتِ سَنَوياً. وقد اكتُشِفَ ذلك سنة ١٨٤٧ على يدِ الطَّبيبِ المَجَرِيِّ **سِمِلفايس** الذي لاحَظَ أنّ غَسلَ أيدي الأطِبّاءِ خَفَضَ وَفَياتِ النُّفَساءِ من ١٨٪ إلى ٢٪ – **فسَخِرَ منه زُمَلاؤه وطُرِدَ من عَمَلِه وماتَ في مَصَحّ**. أمّا المُسلِمُ فيَغسِلُ يَدَيه ووَجهَه وفَمَه وأنفَه وذِراعَيه وقَدَمَيه خَمسَ مَرّاتٍ في اليوم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعُ الدَّلالةِ في **التَّعليل** لا في الأمر. فالأمرُ بالنَّظافةِ قد يُقالُ إنّه ذَوقٌ أو عادة. أمّا قَولُه **«لا يَدري أينَ باتَت يَدُه»** فهو تَعليلٌ بأمرٍ **مَجهولٍ غيرِ مَرئيّ** – أي أنّ الخَطَرَ قائمٌ حتّى لو بَدَت اليَدُ نَظيفة. وهذا هو جَوهَرُ مَفهومِ التَّلَوُّثِ الخَفِيِّ الذي بُنِيَ عليه الطِّبُّ الوِقائيُّ كلُّه. وأضِف إليه بَقيّةَ المَنظومة: السِّواكُ عند كلِّ صَلاة، والاستِنشاقُ والمَضمَضةُ في الوُضوء، والأمرُ بتَغطِيةِ الإناء، والنَّهيُ عن التَّنَفُّسِ في الشَّراب، والنَّهيُ عن البَولِ في الماءِ الرّاكِد، ووُجوبُ الغُسل. نِظامٌ صِحّيٌّ مُتَكامِلٌ صيغَ قبلَ نَظَريّةِ الجُرثومةِ باثنَي عشرَ قَرناً.

١٤

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ... تِسعُ سِنينَ من التَّحَدّي

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ

سورة المَسَد – الآيات ١-٣

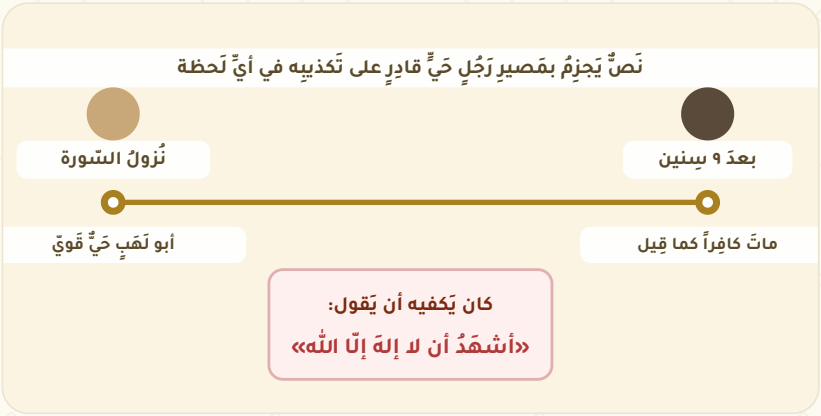

أخطَرُ نَصٍّ يُمكِنُ أن يُكتَب: حُكمٌ نِهائيٌّ على شَخصٍ لم يَمُت بعد

بكلامٍ بسيط

نَزَلَت سورةٌ تقولُ إنّ عَمَّ النَّبيِّ ﷺ – أبا لَهَبٍ – **سيَدخُلُ النّار**. أي أنّه لن يُسلِمَ أبداً. وعاشَ بعدها تِسعَ سِنين، وكان يَكفيه أن يَنطِقَ الشَّهادةَ كَذِباً ليُسقِطَ القرآنَ كلَّه – ولم يَفعَل.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

أبو لَهَبٍ كان من أشَدِّ أعداءِ الدَّعوةِ وأقدَرِهم على إيذائها، وهو عَمُّ النَّبيِّ ﷺ وسَيِّدٌ في قُرَيش. ولم يَكُن أحدٌ يَستَطيعُ أن يَعرِفَ ما سيَصيرُ إليه رَجُلٌ في قابِلِ الأيّام، فكم من عَدُوٍّ شَديدٍ أسلَمَ بعدَ عَداوَةٍ – كعُمَرَ بنِ الخَطّاب وخالِدِ بنِ الوَليدِ وعِكرِمةَ بنِ أبي جَهل.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

ماتَ أبو لَهَبٍ بعدَ غَزوةِ بَدرٍ بأيّام – أي بعدَ نُزولِ السّورةِ بنحوِ تِسعِ سِنين – **على كُفرِه**، بمَرَضٍ نَفَرَ منه أهلُه. وهذا مُتَّفَقٌ عليه في كُتُبِ السِّيرةِ والتّاريخِ كلِّها، ولم يُنازِع فيه أحدٌ حتّى من خُصومِ الإسلام.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذه ليست نُبوءةً عن أمرٍ بَعيدٍ لا يَملِكُ أحدٌ التَّأثيرَ فيه – بل عن **اختِيارِ رَجُلٍ حَيٍّ يَسمَعُها بأُذُنَيه**. وهو أحرَصُ النّاسِ على هَدمِ هذه الدَّعوة. فكان أمامَه تِسعُ سِنينَ ليَقولَ كلمةً واحدةً – ولو كاذِباً مُتَظاهِراً – فيَنهارَ النَّصُّ وتَنتَهيَ الدَّعوةُ في يومِها. **إبقاءُ هذا التَّحَدّي مَفتوحاً تِسعَ سِنينَ ثمّ خُتِمَ كما قِيل، مُخاطَرةٌ لا يُقدِمُ عليها بَشَرٌ.** ويُضافُ إليه أنّ السّورةَ حَكَمَت على امرأتِه كذلك، فماتَت على الكُفرِ أيضاً. احتِمالانِ في اثنَينِ أُصيبا معاً، بعدَ تِسعِ سِنينَ من فُرَصِ التَّكذيب.

١٥

«مَلِك» في زَمَنِ يوسُف... و«فِرعَون» في زَمَنِ موسى

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ

سورة يوسف ٥٤ – وسورة غافر ٢٦

تَبَدُّلُ اللَّقَبِ المَلَكيِّ حَقيقةٌ لم تُعرَف إلّا بعدَ فَكِّ الهيروغليفيّة

بكلامٍ بسيط

القرآنُ يُسَمّي حاكِمَ مِصرَ في زَمَنِ يوسُفَ **«المَلِك»**، ويُسَمّي حاكِمَها في زَمَنِ موسى **«فِرعَون»** – ولا يَخلِطُ بينهما أبداً. وعِلمُ المِصريّاتِ يقولُ إنّ هذا هو الصَّحيحُ تماماً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَكُن في الجَزيرةِ عِلمٌ بألقابِ حُكّامِ مِصرَ ولا بتاريخِ تَبَدُّلِها. والأشهَرُ في المِنطَقةِ كلِّها أن يُسَمّى كلُّ حاكِمٍ مِصريٍّ «فِرعَون» على الإطلاق. بل إنّ **التَّوراةَ نفسَها تُسَمّي حاكِمَ يوسُفَ «فِرعَون»** في سِفرِ التَّكوينِ مِراراً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

كلمةُ «فِرعَون» أصلُها المِصريُّ **«بِر-عا»** (pr-ʿ3) ومَعناها «البَيتُ العَظيم» – أي القَصرُ نفسُه لا شَخصُ الحاكِم. وظَلَّت كذلك طَوالَ الدَّولَتَينِ القَديمةِ والوُسطى. ولم تُستَعمَل لَقَباً **للحاكِمِ نفسِه** إلّا ابتِداءً من الدَّولةِ الحَديثة، في عَهدِ تحتمس الثّالث تقريباً (القرن ١٥ ق.م)، وشاعَت بعدَ ذلك. ويَقَعُ زَمَنُ يوسُفَ قبلَ ذلك، وزَمَنُ موسى بعدَه. وهذا مُقَرَّرٌ في مَراجِعِ المِصريّاتِ الحَديثة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الاطِّرادُ هو الدَّليل. لو كان الأمرُ اتِّفاقاً لَاختَلَطَ اللَّقَبانِ ولو مَرّةً واحدةً في نَحوِ ثَلاثينَ مَوضِعاً. لكنّ القرآنَ يَلتَزِمُ التَّفريقَ التِزاماً تامّاً. والأقوى من ذلك أنّه **يُخالِفُ النَّصَّ التَّوراتيَّ المُتَداوَلَ بين أهلِ الكِتابِ في زَمانِه** – وهو المَصدَرُ الوَحيدُ الذي يُتَّهَمُ بالنَّقلِ عنه. فلو كان النّاقِلُ بَشَراً لَنَقَلَ الخَطأَ معه. والتَّصحيحُ لم يُعرَف صَوابُه إلّا بعدَ فَكِّ الهيروغليفيّةِ بأكثَرَ من ألفِ سنة.

١٦ العَلَقَة: شيءٌ مُعَلَّقٌ يَمتَصُّ الدَّم

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ

سورة العَلَق – الآية ٢

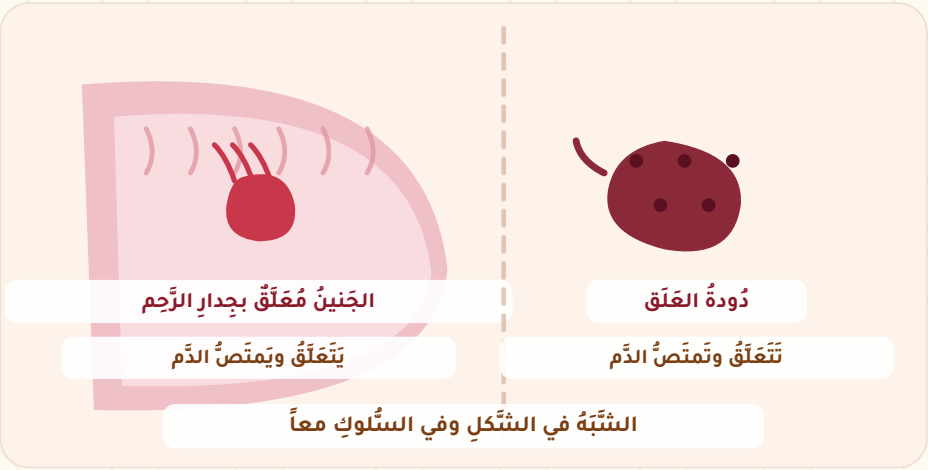

الجَنينُ في أُسبوعِه الثّالث: شكلُه ووظيفتُه شكلُ العَلَقةِ ووظيفتُها

بكلامٍ بسيط

كلمةُ «عَلَق» في العربيّةِ لها ثلاثةُ معانٍ: الشّيءُ **المُعَلَّق**، و**دُودةُ العَلَقِ** التي تَمتَصُّ الدَّم، و**الدَّمُ الجامِد**. والجَنينُ في هذه المرحلةِ يَجمَعُ المَعانيَ الثّلاثةَ معاً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لا أحدَ رأى جَنيناً في أُسبوعِه الثّالث. حَجمُه أقلُّ من مِلّيمترَين، ولا يُرى إلّا بمِجهَر. ولم يكن يُعرَفُ أنّ الجَنينَ **يَلتَصِقُ بجِدارِ الرَّحِمِ ويَتَغَذّى منه**: الظَّنُّ السّائدُ كان أنّه يَسبَحُ في سائلٍ يَتَغَذّى منه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في اليومِ السّادسِ يَنغَرِسُ الكيسُ الأريميُّ في بِطانةِ الرَّحِمِ فيُصبحُ **مُعَلَّقاً بها**. ثمّ تَحفُرُ خَلاياه أوعِيةَ الأُمِّ الدَّمويّةَ فتَغمُرُ الدِّماءُ الفَراغاتِ حولَه – أي أنّه **يَمتَصُّ الدَّمَ حرفيّاً**. وصُوَرُ المِجهَرِ للجَنينِ في الأُسبوعِ الثّالثِ تُظهِرُه بشكلٍ يُطابِقُ دُودةَ العَلَقِ حتّى في التَّقَوُّسِ والتَّقسيمِ الجانِبيّ.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

اجتماعُ المَعاني الثّلاثةِ في لَفظةٍ واحدةٍ هو الإعجاز. فلو أُريدَ التَّعليقُ وحدَه لقيلَ «مُعَلَّقة»، ولو أُريدَ الدَّمُ وحدَه لقيلَ «دَم». لكنّ «عَلَقة» تَصِفُ في آنٍ واحد: **المَوضِعَ** (مُعَلَّقٌ بالجِدار)، و**التَّغذِيَةَ** (يَمتَصُّ الدَّم)، و**الشَّكلَ** (كدُودةِ العَلَق)، و**المادّةَ** (مُحاطٌ بدَمٍ مُتَجَمِّد). أربعُ حقائقَ مِجهَريّةٍ في كلمةٍ نزلت على أُمّيٍّ قبل اختراعِ المِجهَرِ بألفِ عام.

IV

الجِبالُ تَمشي وأنتَ تَحسَبُها ثابِتة

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

سورة النّمل – الآية ٨٨

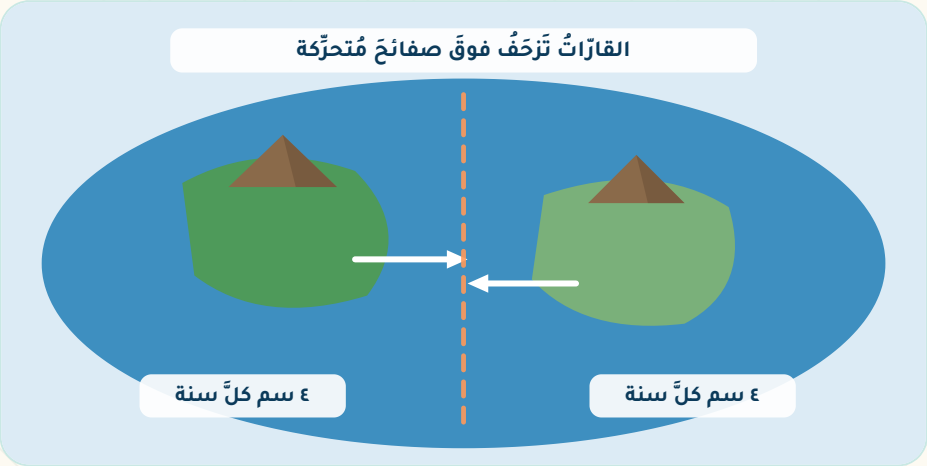

القارّاتُ كلُّها تسيرُ ببُطءٍ شديد، وما فوقها يسيرُ معها

بكلامٍ بسيط

الجبالُ تبدو لك واقفةً لا تتحرّك. لكنّها في الحقيقةِ **تمشي** – ببُطءٍ شديدٍ لا تراه عينُك، تماماً كما لا ترى السّحابةَ تتحرّكُ إن نظرتَ إليها لَحظةً واحدة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجبالُ عند كلِّ البشرِ كانت رمزَ الثّباتِ المُطلَق. «راسِخٌ كالجبل» مَثَلٌ في كلِّ لُغة. ولم يَدَّعِ أحدٌ أنّ الأرضَ نفسَها تنزلقُ من تحتها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

نظريّةُ **الصّفائحِ التّكتونيّة**، المُستقرّةُ منذ ستّينيّاتِ القرنِ العشرين: القِشرةُ الأرضيّةُ مُقسَّمةٌ إلى ألواحٍ عملاقةٍ تطفو وتنزلق، وتحملُ معها القارّاتِ والجِبالَ بسرعةٍ تبلغُ بضعةَ سنتيمتراتٍ في السّنة. وقد صارت هذه الحركةُ تُقاسُ اليومَ بالأقمارِ الصّناعيّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التّشبيهُ نفسُه هو البُرهان: «تَحسَبُها جامِدةً» – أي أنّ سُكونَها **وَهْمٌ بَصَريّ** صريح. ثمّ «تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب» – والسّحابُ يتحرّكُ حركةً **أُفُقيّةً بطيئةً جماعيّة**، لا يَسقُطُ ولا يَقفِز. فوصفت الآيةُ حركةً حقيقيّةً مع تعليلِ سببِ عدمِ رُؤيتها. وأدقُّ من ذلك: الجبالُ لا تمرُّ وحدَها، بل تمرُّ **ومعها كلُّ ما حولَها** – تماماً كالسّحاب.

١٨

الكَونُ يَتَّسِعُ في كلِّ لَحظة

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ

سورة الذّاريات – الآية ٤٧

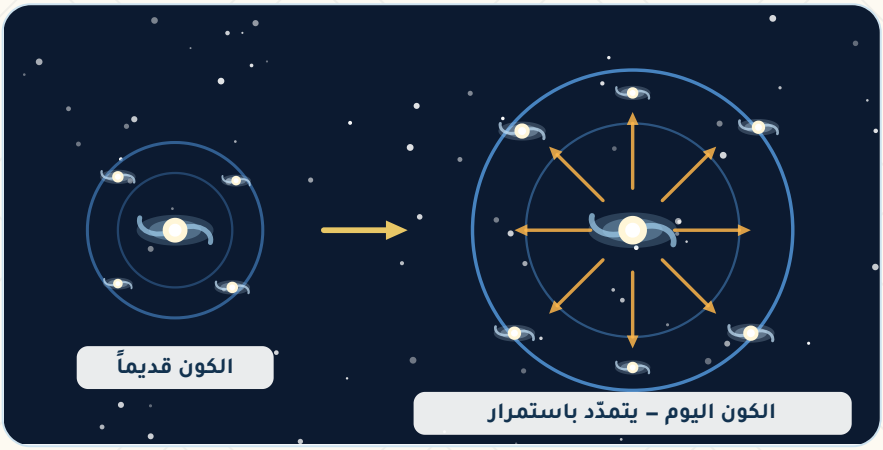

المجرّات تتباعد عن بعضها كنُقَطٍ على بالونٍ يُنفَخ

بكلامٍ بسيط

تخيّل بالوناً رسمتَ عليه نقاطاً صغيرة، ثمّ نفختَه. كلُّ نقطةٍ ابتعدت عن جارتها. الكونُ يفعلُ هذا بالضّبط: السّماءُ تكبُرُ وتتّسعُ في كلّ ثانيةٍ من عمرِها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان النّاسُ – بل وكبارُ الفلاسفةِ والعلماء – يعتقدون أنّ الكونَ **ساكنٌ ثابت**، حجمُه واحدٌ لا يزيدُ ولا ينقص. ظلّ هذا الاعتقادُ سائداً حتّى القرنِ العشرين، حتّى إنّ أينشتاين نفسَه أضاف إلى معادلاتِه ثابتاً مُصطنَعاً ليُجبِرَ الكونَ على الثّبات!

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

سنة ١٩٢٩ رصد إدوين هابل أنّ ضوءَ المجرّاتِ البعيدةِ **يميلُ إلى الأحمر**، ومعنى ذلك أنّها تهربُ منّا. وكلّما بَعُدَت زادت سُرعةُ هُروبها. الكونُ يتوسّع. وفي ١٩٩٨ اكتُشِفَ أنّ التّوسُّعَ **يتسارع**، ونالَ مُكتشِفوه جائزةَ نوبل سنة ٢٠١١.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الكلمةُ المستعملةُ في الآيةِ هي «مُوسِعون» – اسمُ فاعلٍ يدلُّ على فِعلٍ **مستمرٍّ لا ينقطع**، لا «وَسَّعْنا» الماضية. أي أنّ التّوسيعَ جارٍ الآن. رجلٌ أُمّيٌّ في صحراءِ الجزيرة، لا تلسكوبَ عنده ولا مِقياسَ طَيف، يقولُ جملةً تُخالفُ إجماعَ البشريّةِ كلِّها، ثمّ يأتي أكبرُ اكتشافٍ فلكيٍّ في التّاريخِ ليُصدِّقَها حرفاً بحرف. هذا لا يُفسَّرُ بالصُّدفةِ ولا بالذّكاء.

١٩

كانا شيئاً واحِداً... ثُمَّ انفَصَلا

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

سورة الأنبياء – الآية ٣٠

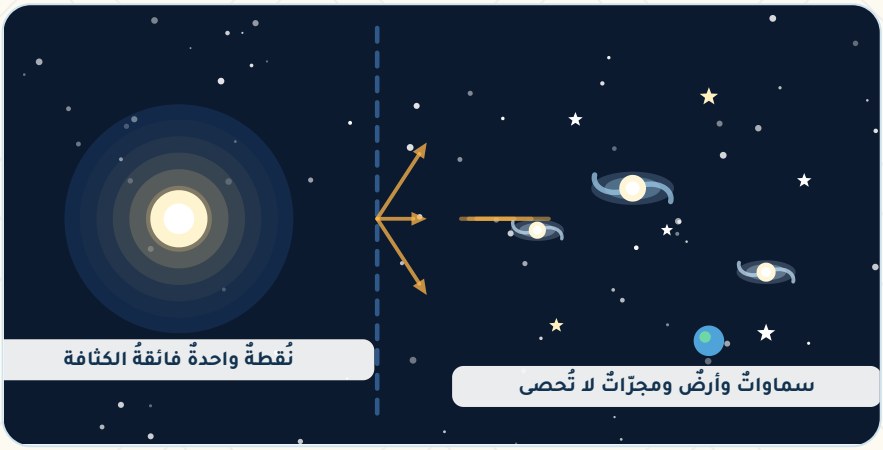

من كُتلةٍ واحدةٍ مُلتَحِمة إلى كونٍ مُتَّسِعٍ مليءٍ بالمجرّات

بكلامٍ بسيط

القرآنُ يقول: السّماءُ والأرضُ كانتا في البدايةِ **ملتصقتَين** شيئاً واحداً، ثمّ شقَّهما اللّهُ وفَرَّقهما. تماماً كبذرةٍ صغيرةٍ واحدةٍ انفتحت فخرجت منها شجرةٌ كاملة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تكن هناك أيُّ فكرةٍ عن «بدايةٍ للكون» أصلاً. كان الاعتقادُ أنّ الكونَ **أزليٌّ بلا بداية**. ومن اعتقدَ بنشأةٍ ما، تخيّلها أساطيرَ عن آلهةٍ تتقاتل، لا انفصالاً ماديّاً لجسمٍ واحد.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

نظريّةُ الانفجارِ العظيم، وهي اليوم النّموذجُ المعتمَدُ عالميّاً: الكونُ كلُّه بدأ **نقطةً واحدةً فائقةَ الكثافةِ والحرارة** ثمّ انفتق وتمدّد. وقد تأكّدت بأدلّةٍ ثلاثة: تباعُدُ المجرّات، و«إشعاعُ الخلفيّةِ الكونيّ» المُكتشَفُ سنة ١٩٦٥ (وهو حرارةُ الانفجارِ الباقية)، ونِسَبُ الهيدروجينِ والهيليوم في الكون.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

كلمةُ «رَتْق» في العربيّةِ تعني الشّيءَ المُلتَحِمَ المسدود، و«فَتْق» تعني شقَّه وفصلَه. هذا وصفٌ دقيقٌ لا يحتملُ التّأويل. والأهمُّ أنّ الآيةَ تُقدِّمُ هذا **كدليلٍ تحدٍّ** للكافرين («أوَلم يَرَ الّذين كفروا»)، أي أنّها تُراهنُ على أنّه سيَظهرُ يوماً – وقد ظَهَر بعد ١٣٠٠ سنة، وأخذَ صاحباه جائزةَ نوبل عليه سنة ١٩٧٨.

٢٠

الجِبالُ أوتادٌ مَغروسةٌ في الأرض

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا

سورة النّبأ – الآيتان ٦-٧

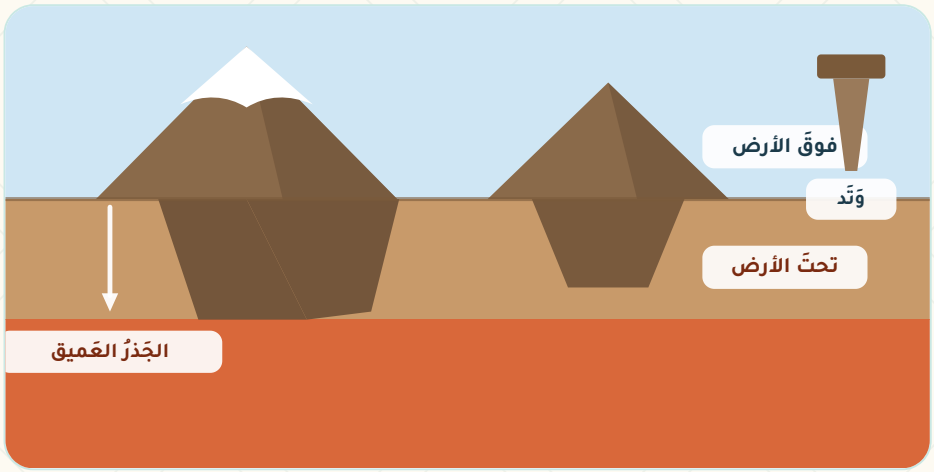

الجبلُ كالوَتَد: الظّاهرُ قليل، والمَغروسُ تحتَ الأرضِ أضعافُه

بكلامٍ بسيط

الوَتَدُ الذي تُثبّتُ به الخَيمةَ ظاهِرُه صغير، ومَغروسُه في الأرضِ كبير. والجبالُ كذلك تماماً: لها **جُذورٌ عميقةٌ تحتَ الأرض** أضعافُ ما تراه فوقها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجبلُ كان في نظرِ النّاسِ كُتلةَ صَخرٍ مَوضوعةً **على** سطحِ الأرض، كحجرٍ على طاولة. لم يكن لأحدٍ سبيلٌ ليعرفَ أنّ تحتَها امتداداً، فالحَفرُ لم يكن يتجاوزُ آباراً ضحلة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

علمُ الجيولوجيا يُسمّي هذا **«جُذورَ الجِبال»**: كلُّ جبلٍ يَغوصُ في القِشرةِ الأرضيّةِ بعُمقٍ يبلغُ عادةً خمسةَ أضعافِ ارتفاعِه الظّاهر. وهذه الجُذورُ هي التي تُثبّتُ القِشرةَ وتَحُدُّ من اهتزازِها – وهو ما يُعرَفُ بمبدأ «التّوازُنِ القِشريّ».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

كلمةُ «وَتَد» ليست تشبيهاً في الحَجمِ ولا في الشّكلِ المُدبَّبِ فقط؛ الوَتَدُ في العربيّةِ شيءٌ مُعرَّفٌ بوظيفته: **جِسمٌ أغلبُه مَدفونٌ ليُثبِّتَ ما فوقه**. فالآيةُ أعطت الجِبالَ خاصّيّتَين لم تكونا معروفتَين: الامتدادَ تحت السّطح، والتّثبيت. ولاحِظ ما قبلَها: «الأرضَ مِهاداً» – أي فِراشاً يُمكِنُ أن يتحرّك، فجاءت الأوتادُ لتُثبِّتَه.

٢١

بَحرانِ يَلتَقِيانِ ولا يَختَلِطان

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ

سورة الرّحمن – الآيتان ١٩-٢٠

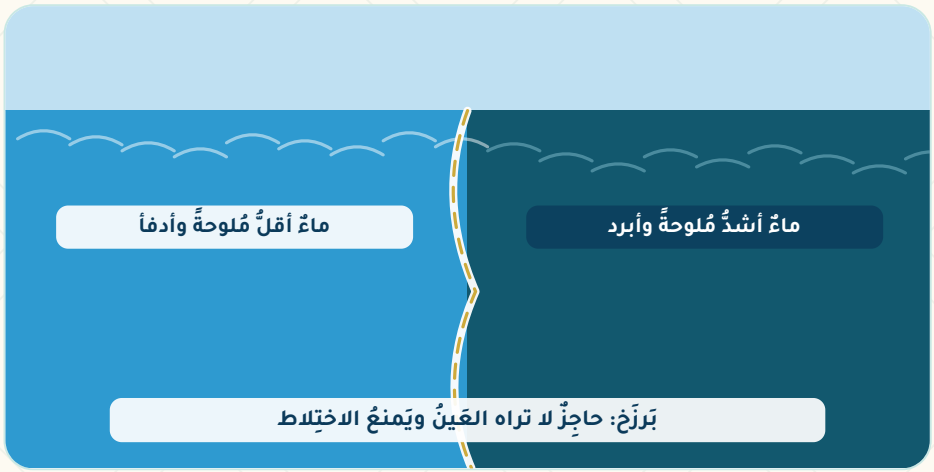

خطُّ الفَصلِ بين بحرَينِ يُرى بالعَينِ المُجرَّدةِ في مَواضِعَ كثيرةٍ من العالم

بكلامٍ بسيط

حين يلتقي بحرانِ مُختلِفان، لا يمتزجانِ فوراً كما تتوقّع. يبقى بينهما **حاجزٌ** يفصلُ ماءَ هذا عن ماءِ ذاك، فيبقى كلُّ بحرٍ مُحتفِظاً بلونِه ومُلوحتِه وحرارتِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان البديهيُّ لدى كلِّ إنسانٍ أنّ الماءَ إذا لاقى الماءَ اختلطَ به فوراً – كما يختلطُ كوبانِ من ماء. ولم يكن يُتصوَّرُ وجودُ «جِدارٍ» بين ماءٍ وماء.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عِلمُ المُحيطاتِ يُثبِتُ وجودَ **حواجزَ مائيّةٍ حقيقيّة** تُسمّى «الجَبَهات» و«الهالوكلاين»: اختلافُ المُلوحةِ والكثافةِ والحرارةِ يخلقُ منطقةَ انتقالٍ ضيّقةً ذاتَ توتُّرٍ سطحيٍّ خاصّ تَمنعُ الامتزاجَ السّريع. وتُرى بالعينِ عند مَضيقِ جبل طارق وعند رأسِ الرّجاءِ الصّالح.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ لم تكتفِ بذِكرِ عدمِ الاختلاط؛ سمَّت السّببَ: «**بَرزَخ**» – والبَرزَخُ في العربيّة هو الحاجِزُ الفاصِلُ بين شَيئَين. ثمّ وصفت أثرَه: «لا يَبغِيان» أي لا يَعتدي أحدُهما على الآخَر. فهذا وصفٌ لظاهرةٍ لم تُكتشَف إلّا بأجهزةِ قياسِ المُلوحةِ والكثافةِ في القرنِ العشرين. وفي آيةٍ أخرى زاد الوصفَ دقّةً: «وجعلَ بينهما بَرزَخاً و**حِجراً مَحجوراً**».

٢٢

عَذبٌ فُراتٌ... ومِلحٌ أُجاج

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

سورة الفُرقان – الآية ٥٣

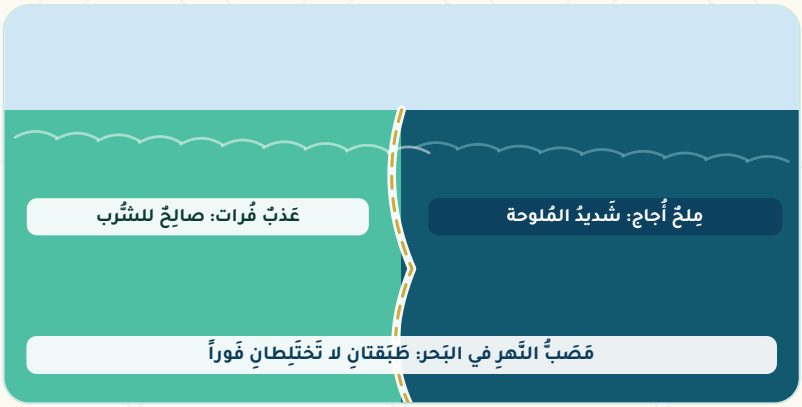

المِياهُ العَذبةُ تَطفو فوقَ المالِحةِ في مَصَبّاتِ الأنهارِ بحاجِزٍ واضِح

بكلامٍ بسيط

حين يَصُبُّ النَّهرُ العَذبُ في البَحرِ المالِح، لا يَختَلِطُ الماءانِ فَوراً. يَبقى بينهما **حاجِزٌ** تَراه الأقمارُ الصِّناعيّةُ بوُضوح، ويَمتَدُّ عَشَراتِ الكيلومترات.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الماءُ ماءٌ عند النّاسِ جَميعاً، يَختَلِطُ بالماءِ بالبَديهة. ولم يَكُن يُعرَفُ أنّ للمِياهِ المُختَلِفةِ **كَثافاتٍ وتَوَتُّراتٍ سَطحيّةً مُختَلِفة** تَجعَلُها تَتَطَبَّقُ ولا تَمتَزِج. وأمّا وَصفُ ما بينهما بأنّه «حاجِزٌ مَمنوع» فتَحديدٌ غَريبٌ لا مُقابِلَ له في المُشاهَدةِ العادِيّة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في مَصَبّاتِ الأنهارِ الكُبرى – كالأمازونِ والمِسيسيبي والنِّيل – يَمتَدُّ الماءُ العَذبُ في البَحرِ عَشَراتِ الكيلومتراتِ **مُحتَفِظاً بلَونِه وكَثافَتِه**، وخَطُّ الفَصلِ مَرئيٌّ من الفَضاء. والسَّبَبُ اختِلافُ الكَثافةِ والمُلوحةِ والحَرارة، فتَنشَأُ مِنطَقةٌ انتِقاليّةٌ ضَيِّقةٌ تُسمّى **«الهالوكلاين»** تُبطِئُ الامتِزاجَ إبطاءً شَديداً. وقد صَوَّرَ رُوّادُ الفَضاءِ هذه الظّاهِرةَ مِراراً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الفَرقُ بين هذه الآيةِ وآيةِ الرَّحمنِ فَرقٌ دَقيقٌ لا يَنتَبِهُ إليه إلّا مَن يَعلَم. ففي سورةِ الرَّحمنِ الكَلامُ عن بَحرَينِ مالِحَينِ مُختَلِفَي الخَواصّ، وجاء الفاصِلُ بينهما لَفظاً واحداً: «بَرزَخ». أمّا هنا – حيثُ اللِّقاءُ بين **عَذبٍ ومالِح** – فزاد وَصفاً ثانياً: «**وحِجراً مَحجوراً**»، أي مَنعاً مُؤَكَّداً مُشَدَّداً. والسَّبَبُ الفيزيائيُّ واضِح: الفَرقُ في الكَثافةِ بين العَذبِ والمالِحِ **أشَدُّ بكَثير** من الفَرقِ بين مالِحَين، فالفَصلُ أوضَحُ وأقوى. فتَشديدُ اللَّفظِ جاء مُوافِقاً لتَشديدِ الظّاهِرةِ بالضّبط.

٢٣

كُلَّما ارتَفَعتَ... ضاقَ صَدرُك

وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ

سورة الأنعام – الآية ١٢٥

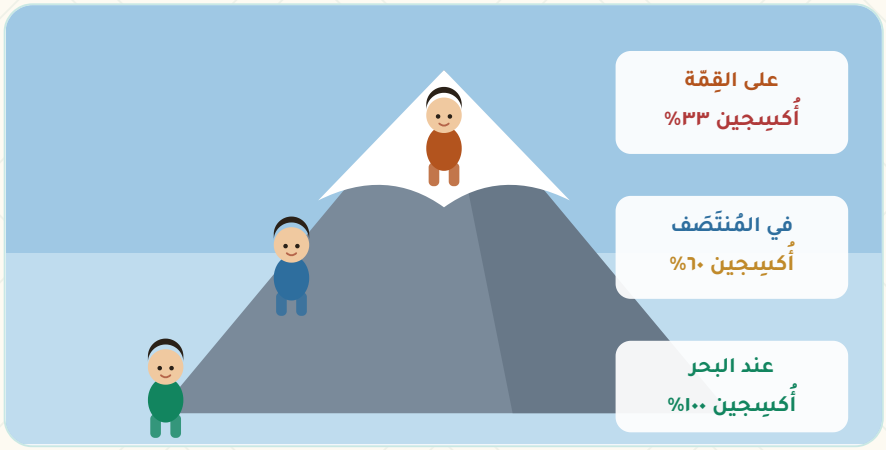

كلّما صَعِدتَ قَلَّ الأُكسِجين، فضاقَ التَّنفُّسُ وزادَ الحَرَج

بكلامٍ بسيط

لو صَعِدتَ جبلاً عالياً جدّاً لَشَعَرتَ أنّ صدرَك يَضيق، وأنّ التّنفُّسَ صار مُتعِباً. كلّما ارتفعتَ أكثر، ضاقَ صدرُك أكثر. والقرآنُ ضربَ هذا **مَثَلاً** لضِيقِ صدرِ المُعرِض.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أعلى ما بلغَه إنسانٌ في تلك البيئةِ قِمّةُ جبلٍ مُتواضِعة، ولم يكن أحدٌ يَربِطُ بين الارتفاعِ وضِيقِ النَّفَس رَبطاً **مُتَدرِّجاً**. بل لم يكن يُعرَفُ أنّ للهواءِ وزناً أو ضَغطاً أصلاً؛ لم يَقِس تُريتشيلّي الضّغطَ الجوّيَّ إلّا سنة ١٦٤٣.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

كلّما ارتفعتَ انخفضَ الضّغطُ الجوّيُّ فقَلَّ الأُكسِجينُ الواصِلُ إلى الدَّم. عند ٣٥٠٠ متر يبلغُ نحوَ ٦٠٪ من قيمتِه عند سطحِ البحر، وعند قِمّةِ إفرست نحو ٣٣٪. والنّتيجةُ ضِيقُ تَنفُّسٍ وانقِباضٌ في الصَّدرِ وصُداع – وهو ما يُسمّى **«داءَ المُرتَفَعات»**. ولهذا تُزوَّدُ الطّائراتُ بأنظمةِ ضَغطٍ صِناعيّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثلاثُ دَقائقَ في عِبارةٍ واحدة. الأولى: الرَّبطُ بين الصُّعودِ وضِيقِ الصَّدرِ أصلاً. الثّانية: كلمةُ «حَرَجاً» تُفيدُ شِدّةَ الضّيقِ بعد الضّيق – أي تَدرُّجاً في الشِّدّة. الثّالثة وهي الأدقّ: صيغةُ «**يَصَّعَّدُ**» – بتضعيفِ الصّادِ والعَين – تُفيدُ في العربيّة تكلُّفَ الصُّعودِ ومُعاناتَه شيئاً فشيئاً، لا مُجرَّدَ الارتفاع. فالصِّيغةُ نفسُها تَحمِلُ التّدرُّجَ الذي يَصِفُه علمُ وظائفِ الأعضاءِ اليوم.

٢٤

الرّياحُ لَواقِحُ... تُزوِّجُ النَّباتَ والسَّحاب

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ

سورة الحِجر – الآية ٢٢

الرّيحُ تُلقّحُ النّباتَ بحبوبِ اللّقاح، وتُلقّحُ السَّحابَ بالشُّحناتِ والغُبار

بكلامٍ بسيط

الرّيحُ لا تُحرِّكُ الأشياءَ فقط – هي **تُزوِّج**. تحملُ حُبوبَ اللَّقاحِ من زهرةٍ إلى زهرةٍ فتُثمِر، وتحملُ الغُبارَ والشُّحناتِ إلى السَّحابِ فيُمطِر.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الرّيحُ كانت قوّةَ دَفعٍ ونَقلٍ فحسب: تُسيِّرُ السُّفُنَ وتُثيرُ الغُبار. وأمّا أنّ لها **دوراً في الإخصاب** فلم يكن معروفاً؛ ولم يُثبَت أنّ للنّباتِ ذُكوراً وإناثاً أصلاً إلّا سنة ١٦٩٤ على يدِ العالِمِ الألمانيِّ كاميراريوس.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

التّلقيحُ بالرّياح (Anemophily) طريقةُ تكاثُرِ آلافِ الأنواعِ النّباتيّة – القمحِ والأرزِ والذُّرةِ والنّخيلِ والصّنوبر. وفي السَّحاب: الرّيحُ تحملُ **نوَياتِ التّكاثُف** من غُبارٍ ومِلحٍ يلتفُّ حولها بُخارُ الماءِ فيتحوّلُ قَطَراً، وتفصلُ الشُّحناتِ الكهربائيّة بين أعلى السّحابةِ وأسفلها فيتكوّنُ البَرقُ ويَنزِلُ المَطَر. بغيرِ هذه النّوَياتِ لا يُمطِرُ السّحابُ أصلاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

«لَواقِح» جمعُ «لاقِح»، والفعلُ «لَقَّحَ» في العربيّةِ مُختَصٌّ بالإخصابِ والتّزويج – ومنه تلقيحُ النّخل، وهو أمرٌ عرفَه العربُ في النَّخلِ خاصّةً بالتّلقيحِ اليَدَويّ. فنِسبةُ هذا الفِعلِ إلى **الرّيح** نفسِها إثباتٌ لدورٍ لم يكن مَعروفاً. والأدقُّ منه: الآيةُ رتَّبت الإلقاحَ ثمّ نُزولَ المَطَرِ مباشرةً («فأنزلنا») – أي أنّ الرّيحَ تُلقِّحُ السَّحابَ أيضاً فيُنتِجَ المَطَر. وهذا هو علمُ الأرصادِ الحديثُ حرفيّاً.

٢٥

جِبالٌ في السَّماءِ فيها بَرَد

وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ

سورة النّور – الآية ٤٣

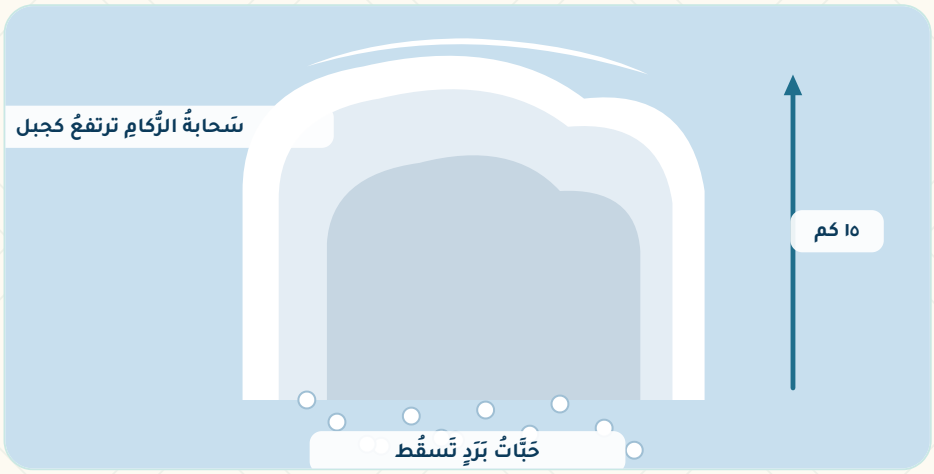

سَحابةُ الرُّكام: كُتلةٌ هائلةٌ تَرتفِعُ رأسيّاً كأنّها جبلٌ في السّماء

بكلامٍ بسيط

البَرَدُ – حبّاتُ الثَّلج – لا ينزِلُ من أيِّ سَحابة. ينزِلُ فقط من سُحُبٍ ضَخمةٍ **ترتفعُ في السّماءِ كالجِبال**، ويبلغُ ارتفاعُها أضعافَ أعلى جبلٍ في الأرض.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

السّحابُ يُرى من الأرضِ سَطحاً مُمتَدّاً أُفُقيّاً، لا جِبالاً. ولم تكن هناك وسيلةٌ لمعرفةِ ارتفاعِ السّحابة، ولا لإدراكِ أنّ للسُّحُبِ أنواعاً مُختلِفةَ الشَّكلِ والارتفاع.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

البَرَدُ يتكوّنُ حَصراً في **سَحابِ الرُّكامِ المُزنِيّ**: كُتلةٌ رأسيّةٌ يبلغُ ارتفاعُها من ٨ إلى ١٥ كيلومتراً – أي أعلى من جبلِ إفرست. التّيّاراتُ الصّاعدةُ داخلَها تَرفَعُ قَطرةَ الماءِ مِراراً إلى الأعلى حيث تتجمّدُ طبقةً فوق طبقة، حتّى يَثقُلَ حجمُها فتَسقُط. ولهذا لو شَطَرتَ حَبّةَ بَرَدٍ لرأيتَ فيها حَلَقاتٍ كحَلَقاتِ جِذعِ الشّجرة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التّعبيرُ «من جِبالٍ فيها من بَرَد» يُعطي ثلاثَ معلوماتٍ في سَبعِ كلمات: أنّ للسّحابِ صورةً **جَبَليّةً رأسيّة**، وأنّ البَرَدَ يوجدُ **داخلَها** لا فوقَها، وأنّه لا يَنزِلُ إلّا **منها هي** دون غيرِها من السُّحُب. وهذه الحَصريّةُ هي أدقُّ ما في الآية، ولا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَعرِفَها وهو يَنظُرُ من الأرض.

٢ نُطفةٌ أمشاج... ماءٌ مَخلوط

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا

سورة الإنسان – الآية ٢

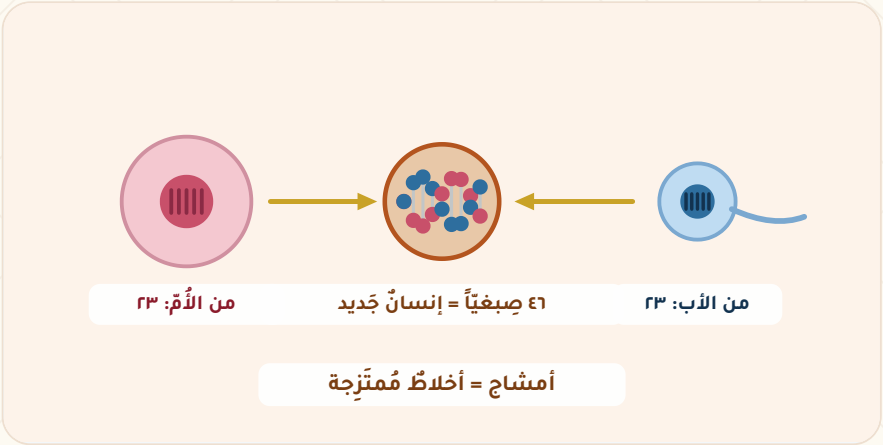

الخَلِيّةُ الأولى ليست شيئاً واحداً، بل امتِزاجُ نِصفَينِ من أبوَين

بكلامٍ بسيط

بدايةُ الإنسانِ ليست ماءً واحداً – بل **خَليطٌ** من مادّتَين: نِصفٌ من الأبِ ونِصفٌ من الأُمّ، يَمتَزِجان فيَصيرانِ شيئاً واحداً جديداً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان الاعتقادُ الشّائعُ أنّ الطِّفلَ يَتَكوّنُ من ماءِ الرَّجُلِ وحدَه، وأنّ الأُمَّ مُجرَّدُ **وِعاءٍ وأرضٍ تُنبِتُ البِذرة**. هذا نصُّ أرسطو صراحةً، وظلَّ سائداً في الطِّبِّ قُروناً. ولم تُكتَشَف بُوَيضةُ المرأةِ إلّا سنة ١٨٢٧ على يدِ كارل فون باير.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الإخصاب: حَيَوانٌ مَنَوِيٌّ يَحمِلُ ٢٣ صِبغيّاً يَندَمِجُ ببُوَيضةٍ تَحمِلُ ٢٣ صِبغيّاً، فتَنتُجُ خَلِيّةٌ واحدةٌ بـ ٤٦ صِبغيّاً هي أصلُ الإنسانِ كلِّه. فالنُّطفةُ الأولى **خَليطٌ حقيقيٌّ** من مُكوِّنَينِ مُتَساوِيَين، وليست مادّةً واحدة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لفظةُ «**أمشاج**» جمعُ «مَشَج»، ومعناها في المعاجم: الأخلاطُ المُمتَزِجةُ حتّى لا يُميَّزُ بعضُها من بعض. وهي صِفةٌ لِمُفرَدٍ («نُطفةٍ» مُفرَدة) – أي أنّ النُّطفةَ الواحدةَ نفسَها أخلاط. وهذا يُصَحِّحُ مَذهَبَ أرسطو الذي حَكَمَ العالَمَ ألفَي سنة. وفي آيةٍ أخرى زِيادةٌ في التّفصيل: «خُلِقَ من ماءٍ دافِق» ثمّ «من نُطفةٍ إذا تُمنى» – والقرآنُ يَنسِبُ اختِلافَ الذُّكورةِ والأُنوثةِ إلى النُّطفةِ لا إلى الرَّحِم.

٢٧

الذَّكَرُ والأُنثى... يُحدِّدُهما الأب

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ

سورة النّجم – الآيتان ٤٥-٤٦

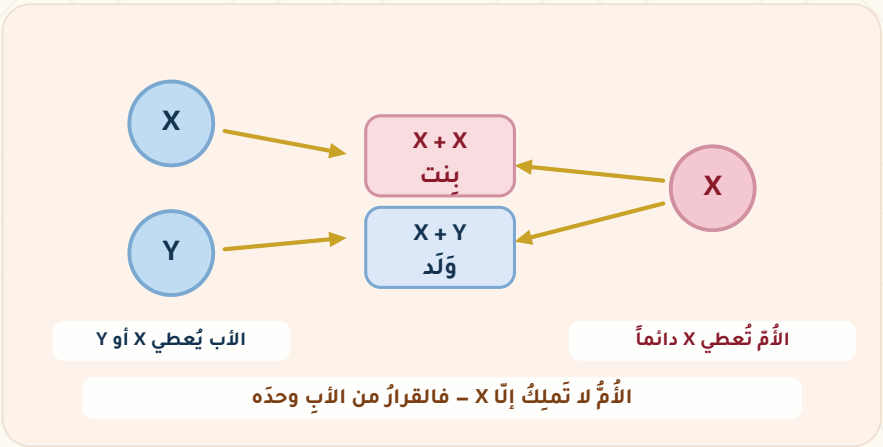

نَوعُ الجَنينِ يَتَحدَّدُ لَحظةَ الإخصابِ بما يَحمِلُه الحَيَوانُ المَنَويّ

بكلامٍ بسيط

هل المَولودُ وَلَدٌ أم بِنت؟ القرارُ ليس من الأُمِّ أبداً – بل من **الأب**. لأنّ الأُمَّ لا تَملِكُ إلّا نوعاً واحداً، بينما يَحمِلُ الأبُ النَّوعَين.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان – ولا يَزالُ في بعضِ المُجتمَعاتِ – يُلامُ النِّساءُ على إنجابِ الإناث، وتُطَلَّقُ المرأةُ لأنّها «لا تُنجِبُ الذُّكور». وقد بَنى أرسطو نَظَريّةً كامِلةً على أنّ حَرارةَ الرَّحِمِ ودَرَجةَ نُضجِ الدَّمِ هي التي تُحدِّدُ الجِنس.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الصِّبغيّانِ الجِنسيّان: المرأةُ XX، والرَّجُلُ XY. فالبُوَيضةُ تَحمِلُ X دائماً بلا استثناء، أمّا الحَيَوانُ المَنَويُّ فقد يَحمِلُ X أو Y. فإن التَقَت بُوَيضةٌ بحَيَوانٍ يَحمِلُ X فالمَولودُ أُنثى، وإن حَمَلَ Y فذَكَر. **فالجِنسُ يُحدَّدُ كُلّيّةً من ناحيةِ الأب.** اكتُشِفَ هذا سنة ١٩٠٥ على يدِ نيتي ستيفنز.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ تَنسِبُ خَلقَ الزَّوجَينِ – الذَّكَرِ والأُنثى – إلى **النُّطفةِ إذا تُمنى**، و«تُمنى» فِعلٌ خاصٌّ بماءِ الرَّجُل. فالمَصدَرُ مُحدَّدٌ لا لَبسَ فيه. ولو كان النَّصُّ بَشَريّاً في بيئةٍ تَلومُ المرأةَ على نَوعِ المَولودِ لَكانَ أَولى به أن يَسكُتَ أو يُوافِقَ العُرف. لكنّه **خالَفَ الثّقافةَ السّائدةَ ونَسَبَ الأمرَ إلى الأبِ صراحةً**، فجاء العلمُ بعد ثلاثةَ عشرَ قرناً يُصَدِّقُه.

٢٨

في ظُلُماتٍ ثَلاث

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ

سورة الزُّمَر – الآية ٦

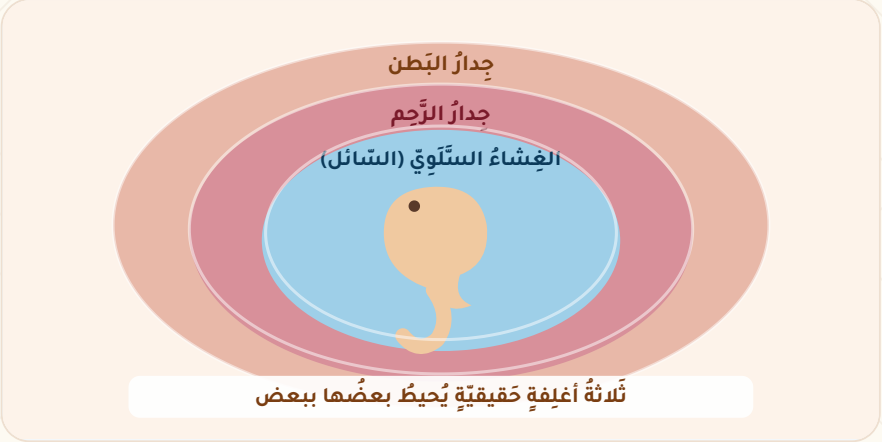

ثَلاثةُ حُجُبٍ مُتَراكِبة: جِدارُ البَطن، ثمّ جِدارُ الرَّحِم، ثمّ الأغشيةُ الجَنينيّة

بكلامٍ بسيط

الجَنينُ لا يَجلِسُ في غُرفةٍ واحدةٍ مُظلِمة – بل في **ثَلاثِ غُرَفٍ**، كلُّ واحدةٍ داخلَ الأخرى: جِدارُ بَطنِ الأُمّ، ثمّ جِدارُ الرَّحِم، ثمّ كيسُ الماءِ الذي يُحيطُ به.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يكن هناك تَشريحٌ للحَوامِل، ولا معرفةٌ بِبِنيَةِ الرَّحِم. والتَّصوُّرُ البَديهيُّ أنّ الجَنينَ في **ظُلمةٍ واحدة**: داخلَ بَطنِ أُمِّه. أمّا تَعدادُ ثَلاثِ ظُلُماتٍ بعَينِها فتَحديدٌ دَقيقٌ يَقتَضي معرفةَ الطَّبَقاتِ واحدةً واحدة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الجَنينُ يُحيطُ به ثَلاثةُ حُجُبٍ مُتَتالِية: **جِدارُ البَطنِ الأماميّ**، ثمّ **جِدارُ الرَّحِم** بعَضَلاتِه الثَّلاث، ثمّ **الأغشيةُ الجَنينيّة** (السَّلى والمَشيماء) وما بينها من سائل. كلُّ واحدٍ منها يَحجُبُ الضَّوءَ بذاته، وهي مُرتَّبةٌ من الخارجِ إلى الدّاخلِ تماماً كما ذُكِرَت.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

العَدَدُ هو مَوضِعُ الحَسم. القرآنُ لم يقُل «في ظُلمة» ولا «في ظُلُمات» مُطلَقةً، بل حَدَّدَ: «**ثَلاث**».
والتَّحديدُ العَدَدِيُّ قابِلٌ للتَّكذيبِ فوراً لو كان خَطأً. وقد جاء مَقروناً بِعِبارةٍ أخرى بالِغةِ الدِّقّة: «خَلْقاً من بَعدِ خَلْق» – أي أطواراً مُتَعاقِبةً يُنشَأُ كلُّ طَورٍ منها بعد الذي قَبلَه. فاجتَمَعَ في آيةٍ واحدةٍ وصفُ **المكانِ بطَبَقاتِه** ووصفُ **الزَّمَنِ بأطوارِه**.

٢٩

المُضغَة: قِطعةٌ عليها أثَرُ الأسنان

ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ

سورة الحجّ – الآية ٥

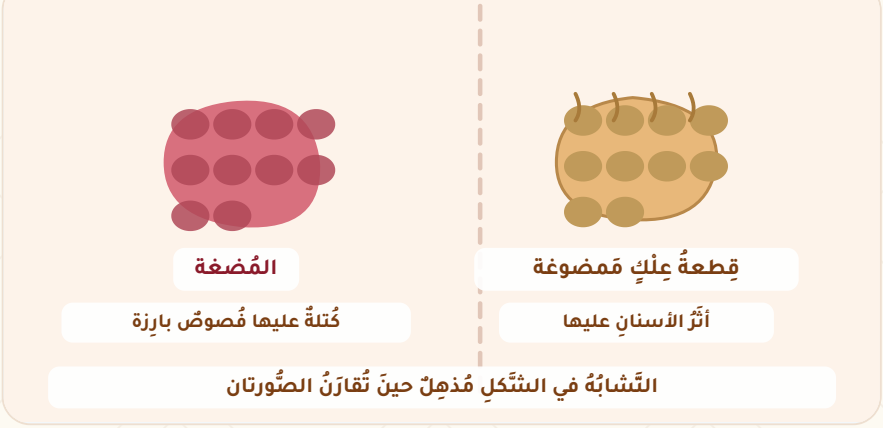

الجَنينُ في الأُسبوعِ الرّابع: سُوَيماتٌ بارِزةٌ كأثَرِ أسنانٍ على لُقمةٍ مَمضوغة

بكلامٍ بسيط

«المُضغة» في العربيّةِ هي **اللُّقمةُ التي مَضَغتَها بأسنانِك**. والجَنينُ في هذه المرحلةِ كُتلةٌ صغيرةٌ عليها نُتوءاتٌ وأخاديدُ تُشبِهُ أثَرَ الأسنانِ على قِطعةِ عِلك.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لا شيءَ يُعرَفُ عن هذه المرحلة. وأيُّ محاولةٍ لتَخيُّلِها كانت ستَصِفُ الجَنينَ إمّا دَماً أو صورةَ إنسانٍ صغير. أمّا وصفُه بأنّه **شيءٌ مَمضوغٌ عليه آثارُ أسنان** فوصفٌ عَجيبٌ لا يَخطُرُ لأحدٍ لم يَرَه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في الأُسبوعِ الرّابعِ تَظهَرُ على ظَهرِ الجَنينِ كُتَلٌ مُتتالِيةٌ تُسمّى **«السُّوَيمات» (Somites)** تَفصِلُ بينها أخاديدُ عَميقة، فيبدو الجَنينُ كقِطعةٍ مَمضوغة. وقد صَوَّرَ عالِمُ الأجِنّةِ كيث مور قِطعةَ عِلكٍ مَمضوغةً بجانبِ جَنينٍ في هذه المرحلةِ فكان التَّشابُهُ لافِتاً. وبعضُ هذه الكُتَلِ يَتمايَزُ إلى أعضاء، وبعضُها يَزول.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

العِبارةُ التّاليةُ هي الأدقّ: «مُخَلَّقةٍ **وغيرِ مُخَلَّقة**» – أي أنّ المُضغةَ الواحدةَ فيها جُزءٌ يَصيرُ خَلْقاً وجُزءٌ لا يَصير. وهذه حقيقةٌ جَنينيّةٌ دَقيقة: بعضُ الخَلايا تتمايَزُ إلى أنسِجةٍ وأعضاء، وبعضُها يَموتُ مَوتاً مُبَرمَجاً لتَنحيتِ ما لا يُحتاجُ إليه (وهو ما يُسمّى اليومَ Apoptosis). فوصفُ الانقسامِ داخل الكُتلةِ الواحدة، في زمنٍ لم يُرَ فيه الجَنينُ أصلاً، لا يُفسَّرُ بالحَدس.

٣٠

كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ... أصلُه الماء

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ

سورة الأنبياء – الآية ٣٠

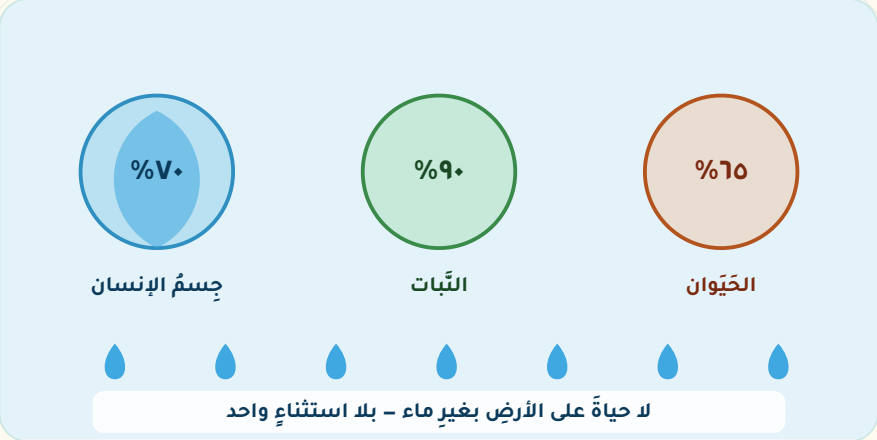

كلُّ كائنٍ حيٍّ عُرِفَ حتّى اليوم يَحتاجُ الماءَ ولا قِيامَ له بدونه

بكلامٍ بسيط

كلُّ شيءٍ حيٍّ – إنسانٌ أو حيوانٌ أو نباتٌ أو حتّى أصغرُ جُرثومة – **أصلُه الماء**، ولا يستطيعُ أن يعيشَ بغيرِه. جِسمُك أنت نحوُ سبعينَ في المئةِ ماء.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

في صحراءَ قاحِلة، حيث الماءُ نادِرٌ وأكثرُ الأرضِ رَملٌ وصَخر، كان أبعدَ ما يَخطُرُ أن يكونَ الماءُ أصلَ **كلِّ** حَيّ. والفلاسفةُ اختلفوا في أصلِ الأشياءِ بين نارٍ وهواءٍ وتُرابٍ وماء، ولم يكن لأحدٍ برهانٌ يَحسِمُ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الخَلِيّةُ الحيّة – وهي وَحدةُ الحياةِ كلِّها – يُشكِّلُ الماءُ نحوَ ٧٠٪ من كُتلتِها، وفيه تجري كلُّ التّفاعلاتِ الحيويّة. ولا يُعرَفُ حتّى اليومِ كائنٌ حيٌّ واحدٌ يَستغني عن الماء. ولذلك فإنّ أوّلَ ما تبحثُ عنه وكالاتُ الفضاءِ حين تُفتِّشُ عن حياةٍ في كوكبٍ آخَر هو **الماء** – شِعارُهم المُعلَن: «اتْبَعِ الماء».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعُ الإعجازِ في لفظةِ «**كُلَّ**». فالآيةُ لم تقُل: الماءُ سَبَبٌ للحياة، ولا: أكثرُ الأحياءِ من ماء – بل جعلت الماءَ أصلاً لِكُلِّ حَيٍّ بلا استثناء. وهذه **قاعدةٌ كُلّيّةٌ قابِلةٌ للتّكذيب**: يكفي أن يُوجَدَ كائنٌ حيٌّ واحدٌ لا يَحتاجُ الماءَ لتَسقُط. وقد فتّشَ العلمُ أربعةَ عشرَ قرناً في كلِّ بيئةٍ على الأرض – في الجَليدِ وفي الحِمَمِ وفي أعماقِ المُحيطاتِ وفي المُفاعِلاتِ النّوويّة – فلم يجد استثناءً واحداً.

٣١

النّارُ مَخزونةٌ في الشَّجَرِ الأخضَر

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ

سورة يس – الآية ٨٠

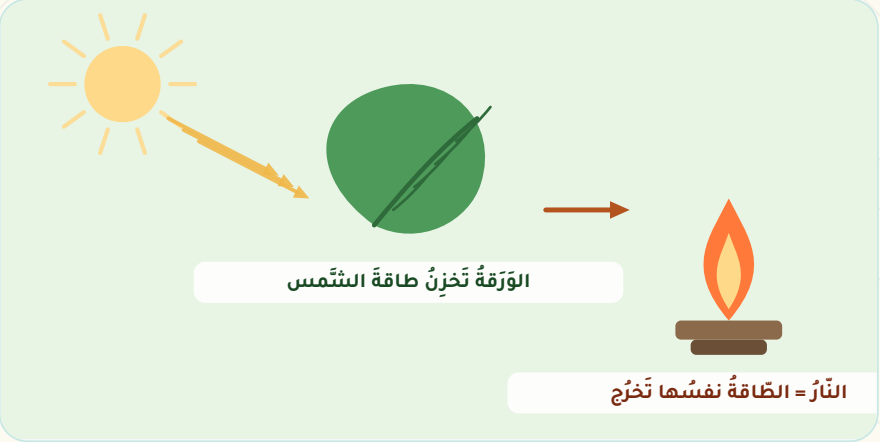

الشّجرةُ تَخزِنُ ضوءَ الشّمسِ داخِلَها، والنّارُ تُطلِقُه ثانيةً

بكلامٍ بسيط

النّارُ التي تَشتعِلُ في الحَطَبِ ليست جديدة – هي **ضوءُ الشّمسِ نفسُه** الذي خَزَنَته الشّجرةُ وهي خَضراءُ حيّة. حين تُشعِلُ الخَشَب، أنت تُطلِقُ شمساً قديمةً مَحبوسة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الأخضرُ الرَّطبُ ضِدُّ النّارِ في كلِّ عقل: الغُصنُ الأخضرُ لا يَشتَعِل، والجافُّ يَشتَعِل. فنِسبةُ النّارِ إلى **«الشَّجَرِ الأخضَر»** بالذّاتِ بدت مُخالِفةً للمُشاهَدةِ اليوميّة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

التّمثيلُ الضّوئيّ: الوَرَقةُ الخَضراءُ تلتقطُ فوتوناتِ الشّمسِ وتُحوِّلُها إلى طاقةٍ كيميائيّةٍ مَخزونةٍ في رَوابِطِ جُزَيئاتِ السُّكَّرِ والسِّليلوز. والاحتِراقُ هو العمليّةُ المَعكوسةُ تماماً: يَكسِرُ تلك الرّوابطَ فيُطلِقُ الطّاقةَ ضَوءاً وحَرارة. كلُّ وَقودٍ نستعمِلُه – الخَشَبُ والفَحمُ والبترولُ والغاز – هو طاقةُ شمسٍ خَزَنَها نباتٌ أخضَر.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

التّخصيصُ هو المُعجِز. لم تقُل الآيةُ «من الشَّجَرِ ناراً»، بل قالت «من الشَّجَرِ **الأخضَرِ**» – وحالُ الخُضرةِ هي بالذّاتِ حالُ التّمثيلِ الضّوئيّ والتّخزين. أي أنّ النّارَ مَنسوبةٌ إلى المرحلةِ التي **تُدَّخَرُ** فيها الطّاقة، لا إلى المرحلةِ التي تُحرَق. والخَشَبُ الجافُّ إنّما يَشتعِلُ بما جَمَعَه وهو أخضَر. هذا رَبطٌ سَبَبيٌّ صحيحٌ تماماً بين حالةٍ ونتيجةٍ لم تُفهَم إلّا بعد اكتشافِ الكلوروفيل سنة ١٨١٧.

٣٢

بَصمةُ الأصابع... هُوِيَّتُك الوَحيدة

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ

سورة القيامة – الآيتان ٣-٤

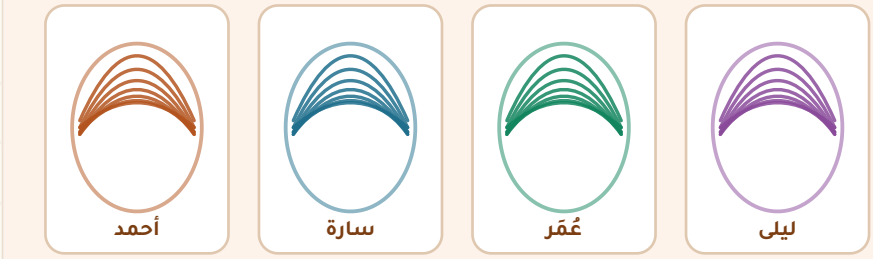

لا تَتَطابَقُ بَصمَتانِ أبداً – ولا حتّى للتَّوأمِ المُتَطابِق

ثَمانيةُ مِلياراتِ إنسان... ثَمانيةُ مِلياراتِ بَصمةٍ مُختلِفة

بكلامٍ بسيط

أطرافُ أصابِعِك عليها خُطوطٌ دَقيقة. هذه الخُطوطُ **لا تَتَكَرَّرُ في إنسانٍ آخَر أبداً** – ولا حتّى في أخيك التَّوأمِ المُتَطابِقِ الذي يُشبِهُك في كلّ شيء.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أطرافُ الأصابعِ جُزءٌ عاديٌّ من الجِلد، لا أحدَ يَنظُرُ إليها ولا يَراها مُميِّزة. ولم يَخطُر لأحدٍ أنّ فيها ما يُفَرِّقُ بين إنسانٍ وإنسان. ولم تُستَعمَل البَصَماتُ للتَّعريفِ رسميّاً إلّا سنة ١٨٩٢ في الأرجنتين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

خُطوطُ البَنانِ تَتَكوّنُ في الأُسبوعِ العاشرِ من الحَمل، وتَتَحدَّدُ بتَفاعُلٍ مُعقَّدٍ بين الجينات وضُغوطِ السّائلِ الأمنيوسيّ داخلَ الرَّحِم، فتَخرُجُ **فَريدةً مُطلَقاً**. وهي ثابتةٌ مَدى الحَياةِ لا تَتَغيَّرُ ولا تُمحى، وتَعودُ كما كانت حتّى لو احتَرَقَ الجِلدُ السَّطحيّ. وعليها تَقومُ أنظمةُ الهُوِيّةِ في العالمِ كلِّه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

السِّياقُ هو المِفتاح. الآيةُ تَتَحدَّثُ عن بَعثِ الأمواتِ وجَمعِ العِظام. وحين يَأتي الرَّدُّ على المُستَبعِدِ لذلك، كان المُنتَظَرُ أن يُقالَ: بلى قادرين على أن نَجمَعَ عِظامَه. لكنّ الجَوابَ جاء بشيءٍ أدَقّ: «بلى قادِرين على أن نُسَوِّيَ **بَنانَه**» – أي إعادةَ تَسويةِ أطرافِ أصابِعِه. فتَخصيصُ **البَنانِ** بالذّاتِ من بين كلِّ أجزاءِ الجَسَد، في مَقامِ إثباتِ القُدرةِ على إعادةِ الشَّيءِ **كما كان بعَينِه**، إشارةٌ إلى أنّها مَوضِعُ التَّفَرُّدِ والهُوِيّة. وهذا ما لم يُعرَف إلّا بعد اثنَي عشرَ قرناً.

٣٣

صافّاتٍ ويَقبِضْن

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ

سورة المُلك – الآية ١٩

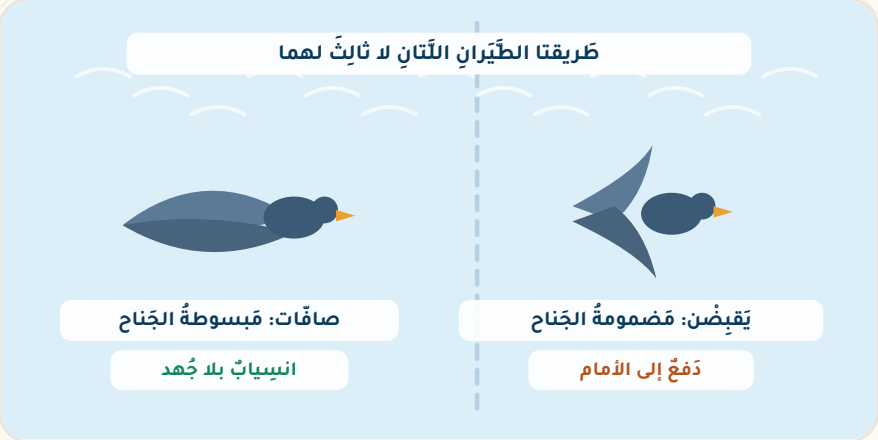

التَّحليقُ بجَناحٍ مَبسوطٍ والخَفقُ بجَناحٍ مَقبوض: كلُّ طَيَرانٍ في الأرضِ أحدُهما

بكلامٍ بسيط

الطَّيرُ يَطيرُ بطَريقتَينِ فقط: إمّا أن **يَبسُطَ جَناحَيه** فيَنسابَ في الهَواءِ بلا حَرَكة، وإمّا أن **يَقبِضَهما** ويَخفِقَ ليَدفَعَ نفسَه. والقرآنُ ذَكَرَ الاثنَتَينِ ولم يَزِد.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الطَّيَرانُ كان مَشهَداً يُرى ولا يُحَلَّل. ولم يكن أحدٌ يُفَرِّقُ بين نَمَطَي الطَّيَرانِ ولا يَعرِفُ أيُّهما يُنتِجُ الرَّفعَ وأيُّهما يُنتِجُ الدَّفع. وظلّ الإنسانُ يُحاولُ الطَّيَرانَ بتَقليدِ خَفقِ الأجنِحةِ ويَفشَلُ قُروناً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عِلمُ الدِّيناميكا الهَوائيّةِ يُقَسِّمُ طَيَرانَ الطُّيورِ إلى نَمَطَينِ لا ثالِثَ لهما: **التَّحليقُ الشِّراعيّ** (Gliding/Soaring) بجَناحٍ مَبسوطٍ ثابتٍ يَستَثمِرُ التَّيّاراتِ الصّاعدة، و**الطَّيَرانُ الخافِق** (Flapping) بقَبضِ الجَناحِ وبَسطِه لتَوليدِ الدَّفع. وعلى المَبدأ الأوّل – الجَناحِ المَبسوطِ الثّابت – بُنِيَت الطّائراتُ كلُّها. ولم يَنجَح الإنسانُ في الطَّيَرانِ إلّا حين تَرَكَ تَقليدَ الخَفقِ وأخَذَ بالبَسط.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الحَصرُ في نَمَطَينِ اثنَينِ هو الدَّقّةُ الأولى. والدَّقّةُ الثّانيةُ في **الصِّيغة**: «صافّاتٍ» جاءت اسمَ فاعِلٍ يَدُلُّ على الثَّباتِ والدَّوام، و«يَقبِضْنَ» جاءت فِعلاً مُضارِعاً يَدُلُّ على التَّجَدُّدِ والتَّقَطُّع. وهذا هو الفَرقُ الفيزيائيُّ بعَينِه: البَسْطُ حالةٌ مُستَمِرّة، والقَبْضُ حَرَكةٌ مُتَكَرِّرة. والدَّقّةُ الثّالثة: تَقديمُ «صافّاتٍ» على «يَقبِضْن» – لأنّ الجَناحَ المَبسوطَ هو الأصلُ الذي يُولِّدُ قوّةَ الرَّفع، والخَفقُ زِيادةٌ عليه.

٣٤

تَقليبُ أهلِ الكَهفِ... ووِقايةُ قُرحِ الفِراش

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ

سورة الكهف – الآية ١٨

بروتوكولُ العِنايةِ بالمَريضِ الرّاقِدِ في كلِّ مُستَشفى اليوم

بكلامٍ بسيط

نامَ أهلُ الكَهفِ مُدّةً طَويلةً جِدّاً، وكان اللهُ **يُقَلِّبُهم يَميناً وشِمالاً**. والطِّبُّ اليومَ يَقولُ: المَريضُ الرّاقِدُ بلا حَرَكةٍ **تَتَقَرَّحُ جِلدُه ويَتَعَفَّنُ لَحمُه** – وعِلاجُه الوَحيدُ هو التَّقليب.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

النَّومُ في نَظَرِ النّاسِ راحةٌ مَحضة، لا ضَرَرَ فيه مَهما طال. ولم يَكُن يُعرَفُ أنّ **ثَباتَ الجِسمِ على وَضعٍ واحد** يُتلِفُ الأنسِجة. فذِكرُ التَّقليبِ في قِصّةِ نَومٍ طَويلٍ بَدا تَفصيلاً لا حاجةَ إليه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

قُرحُ الفِراش (Bedsores / Pressure Ulcers): يَنشَأُ حين يَضغَطُ وَزنُ الجِسمِ على مَوضِعٍ واحدٍ فيَنقَطِعُ عنه الدَّم، فتَموتُ الخَلايا ويَتَقَرَّحُ الجِلدُ ثمّ العَضَلُ ثمّ العَظم. ويَبدأُ التَّلَفُ خِلالَ **ساعَتَينِ فقط** من الثَّباتِ التامّ. وهو من أخطَرِ مُضاعَفاتِ الرُّقادِ الطَّويلِ وقد يَقتُل. والوِقايةُ المُعتَمَدةُ في كلِّ بروتوكولٍ تَمريضيٍّ في العالَم: **تَقليبُ المَريضِ كلَّ ساعَتَينِ يَميناً وشِمالاً**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انتَبِه إلى أنّ الآيةَ لم تَذكُرِ التَّقليبَ عَبَثاً ولا زِينةً في القَصّ. بل جاء في سِياقِ بَيانِ **كيف حُفِظَت أجسادُهم** تلك المُدّةَ الطَّويلة. وهذا يَقتَضي عِلماً بأنّ الجَسَدَ السّاكِنَ يَتلَفُ، وأنّ **التَّقليبَ هو العِلاج**. والدِّقّةُ تَزيدُ في اللَّفظ: «ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمال» – وهذا هو بالضّبطِ الوَضعُ الجانِبيُّ المُوصى به طِبّيّاً (وَضعِيّةُ ٣٠ دَرَجة)، لأنّه يَرفَعُ الضَّغطَ عن العَجُزِ والكَعبَينِ وهي أخطَرُ المَواضِع. ثمّ تَفصيلٌ آخَرُ في الآيةِ نَفسِها: «**وكَلبُهم باسِطٌ ذِراعَيه بالوَصيد**» – وبَسطُ الذِّراعَينِ وَضعُ راحةٍ لا حِراسة، وهو ما يَفعَلُه الكَلبُ حين يَطولُ رُقادُه.

٣٥

الحديدُ... أُنزِلَ ولم يُخلَق هنا

وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

سورة الحديد – الآية ٢٥

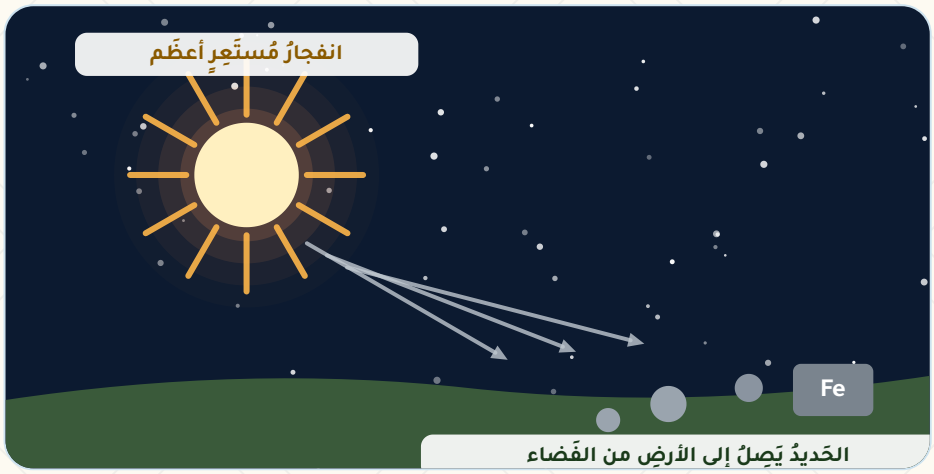

كلُّ ذَرّةِ حديدٍ في الأرضِ – وفي دَمِك – وُلِدَت داخل نَجم

بكلامٍ بسيط

كلُّ الحديدِ الموجودِ في الأرضِ، وحتّى الحديدُ الذي في دَمِك، لم يُصنَع هنا. جاءَ من **انفجارِ نجومٍ عملاقةٍ في الفضاء**، ثمّ سقطَ على الأرض. والقرآنُ لم يقل «خَلَقنا الحديد»، قال: **«أَنزَلْنا»**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

المعادنُ عند النّاسِ تُستخرَجُ من باطنِ الأرض، فهي من الأرضِ ومن جِنسِها. ولم يكن هناك أيُّ تصوُّرٍ لأن يكونَ مَعدِنٌ بعينِه **وافِداً من خارجِ الكوكب**.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الاندماجُ النّوويُّ داخل النّجومِ يُنتِجُ العناصرَ حتّى الحديد – ثمّ يتوقّف، لأنّ تكوينَ الحديدِ **يَستهلِكُ طاقةً ولا يُنتِجُها**. فلا يمكنُ لأيِّ نجمٍ عاديٍّ أن يَصنعَ ما هو أثقلُ منه. وحدَها انفجاراتُ المُستَعِرِ الأعظمِ (Supernova) تَقذِفُ الحديدَ في الفضاء. وكوكبُنا وكلُّ حديدِه تَجمَّعا من هذا الغُبارِ النّجميّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القرآنُ استعملَ فِعلَ «الإنزال» مع الحديدِ بعينِه، في سياقٍ يتحدّثُ عن إرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُب – أي في سياقِ ما يأتي **من فوق**. وهذا هو الواقعُ الفيزيائيُّ حرفيّاً. ويُضافُ إليه أنّ العددَ الذّرّيَّ للحديدِ ٢٦ ورقمَه الكُتليَّ ٥٦، وسورةَ الحديدِ هي السّورةُ رقم ٥٧ في المُصحَف، وترتيبُ الآيةِ ٢٥ في العدِّ المُعتمَد. لكنّ الدّليلَ الأقوى يبقى كلمةً واحدة: «أَنزَلنا».

٣٦

حَولانِ كامِلانِ للرَّضاعة

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ

سورة البقرة – الآية ٢٣٣

مُنظَّمةُ الصِّحّةِ العالَميّة	القُرآن – قبل ١٤٠٠ سنة
٢٤ شَهراً	٢٤ شَهراً
«سَنَتانِ فأكثَر»	«حَولَينِ كامِلَين»
تَوصِيةٌ مُعتَمَدةٌ عالَمِيّاً	لمن أرادَ الإتمام

الرَّقمُ نفسُه… بفارِقِ أربعةَ عشرَ قَرناً

تَوصِيةُ مُنظَّمةِ الصِّحّةِ العالَمِيّةِ تُطابِقُ الآيةَ مُدّةً ومَبدأً

بكلامٍ بسيط

القرآنُ حَدَّدَ مُدّةَ الرَّضاعةِ الكامِلةِ بـ **سَنَتَينِ تامَّتَين**. ومُنظَّمةُ الصِّحّةِ العالَميّةُ اليومَ تُوصي بالمُدّةِ نفسِها بالضّبط.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

مُدّةُ الرَّضاعةِ كانت تَختَلِفُ بين الأُمَمِ اختِلافاً واسِعاً بحسبِ العادةِ والظُّروف، من شُهورٍ قَليلةٍ إلى سَنَواتٍ طَويلة، بلا أساسٍ عِلميّ. ولم تَكُن هناك أيُّ وَسيلةٍ لمعرفةِ المُدّةِ المِثاليّةِ لِنُمُوِّ الطِّفلِ ومَناعَتِه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

تُوصي مُنظَّمةُ الصِّحّةِ العالَميّةِ واليونيسف برَضاعةٍ طَبيعيّةٍ **خالِصةٍ ستّةَ أشهُر**، ثمّ مُواصَلَتِها مع الطَّعامِ التَّكميليِّ **حتّى سَنَتَينِ أو أكثَر**. وثَبَتَ أنّ حَليبَ الأُمِّ يَنقُلُ أجساماً مُضادّةً تَبني مَناعةَ الطِّفل، ويُقَلِّلُ وَفَياتِ الرُّضَّعِ والالتِهاباتِ ومَرَضَ السُّكَّريّ، ويَرتَبِطُ بنُمُوٍّ إدراكيٍّ أفضَل.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الدِّقّةُ ليست في الرَّقمِ وحدَه، بل في **القَيدِ المُرافِقِ له**: «لِمَن أرادَ أن يُتِمَّ الرَّضاعة». فالآيةُ لم تَفرِض السَّنَتَينِ فَرضاً جامِداً، بل جَعَلَتهما **سَقفَ الإتمامِ المُستَحَبّ** – وهو عينُ صِياغةِ التَّوصِيةِ الطِّبّيّةِ الحَديثة («سَنَتانِ أو أكثَر» لا «سَنَتانِ إلزاماً»). ثمّ زادت الآيةُ في المُرونة: أجازت الفِطامَ المُبَكِّرَ بتَراضي الوالِدَينِ وتَشاوُرِهما، وأجازت الاستِرضاعَ من مُرضِعةٍ أُخرى. فهي تُوافِقُ الطِّبَّ في الرَّقمِ وفي رُوحِ التَّوصِيةِ معاً.

٣٧

هُزّي إليكِ بجذعِ النَّخلة

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا

سورة مريم – الآيتان ٢٥-٢٦

التَّمرُ يُوصى به اليومَ للحَوامِلِ في الأسابيعِ الأخيرةِ وبعدَ الوِلادة

بكلامٍ بسيط

امرأةٌ تَلِدُ وَحدَها تحتَ نَخلة، فيُقالُ لها: **كُلي الرُّطَب**. والطِّبُّ اليومَ يَقولُ إنّ التَّمرَ من أفضلِ ما تَأكُلُه المرأةُ عند الوِلادةِ وبعدَها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الرُّطَبُ طَعامٌ مَعروفٌ ومُحَبَّب، لكن لم يَكُن يُعرَفُ له أثَرٌ طِبّيٌّ مُحَدَّدٌ في الوِلادة. والنَّصيحةُ المُعتادةُ للنُّفَساءِ كانت الرّاحةَ والدِّفءَ والحَساء. وأمّا تَخصيصُ تَمرةٍ بعَينِها في هذه اللَّحظةِ بالذّاتِ فتَحديدٌ لافِت.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

دِراساتٌ سَريريّةٌ مَنشورةٌ في مَجَلّاتٍ مُحَكَّمةٍ أثبَتَت أنّ تَناوُلَ التَّمرِ في الأسابيعِ الأخيرةِ من الحَملِ **يُقَصِّرُ مُدّةَ المَخاضِ ويُقَلّلُ الحاجةَ إلى تَحفيزِ الوِلادة**. والتَّمرُ غَنِيٌّ بسُكَّرِ الفركتوز والغلوكوز سَريعِ الامتِصاص – وهو ما تَحتاجُه الوالِدةُ بعد استِنفادِ طاقَتِها – وبالبوتاسيومِ والحَديدِ والمَغنيسيوم، وفيه مُرَكَّباتٌ تَعمَلُ عَمَلَ **الأوكسيتوسين** فتُساعِدُ الرَّحِمَ على الانقِباضِ وتُقَلّلُ النَّزف.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ ثَلاثةَ أشياءَ في الأمر. الأوّل: الثَّمَرةُ المُحَدَّدةُ – التَّمرُ بالذّاتِ دون غيرِه، وهو أنسَبُ غِذاءٍ مُمكِنٍ لهذه الحالة. الثّاني: الحالةُ المُحَدَّدةُ – «**رُطَباً جَنِيّاً**»، أي التَّمرَ الطَّريَّ الطّازَجَ لا الجافّ، وهو أسرَعُ امتِصاصاً وأسهَلُ هَضماً. الثّالثُ وهو الأعجَب: الأمرُ بأن **تَهُزَّ الجِذعَ** – وامرأةٌ في أشَدِّ لَحَظاتِ الضَّعفِ تُؤمَرُ بالحَرَكةِ والجُهد. والطِّبُّ الحَديثُ يُوصي بالحَرَكةِ أثناءَ المَخاضِ لأنّها تُسَرِّعُ الوِلادة. غِذاءٌ وحَرَكةٌ ونَفسِيّةٌ («وقَرّي عَيناً») – بروتوكولٌ كامِل.

٣٨ لِمَ حُرِّمَ الدَّمُ المسفوحُ ولَحمُ الخِنزير؟

قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ

سورة الأنعام – الآية ١٤٥

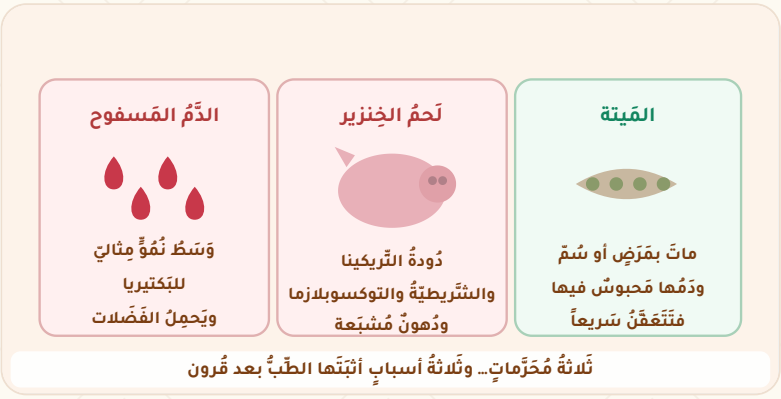

التَّحريمُ سَبَقَ معرفةَ السَّبَبِ بأربعةَ عشرَ قَرناً

بكلامٍ بسيط

القرآنُ حَرَّمَ ثَلاثةَ أطعِمة: الدَّمَ السّائِل، ولَحمَ الخِنزير، والحَيَوانَ الذي ماتَ وَحدَه. والعِلمُ اليومَ يُبيِّنُ أنّ كلَّ واحدٍ منها **ناقِلٌ مَعروفٌ للأمراض**.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

اختِيارُ الأطعِمةِ كان بالعادةِ والذَّوقِ والوَفرة. ولم تَكُن هناك مَعرِفةٌ بالطُّفَيليّاتِ ولا بالبَكتيريا ولا بانتِقالِ الأمراضِ من الحَيَوانِ إلى الإنسان. وكان الخِنزيرُ يُؤكَلُ في مُعظَمِ حَضاراتِ الأرضِ بلا تَحَفُّظ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الدَّمُ أمثَلُ وَسَطٍ لنُمُوِّ البَكتيريا، ويَحمِلُ الفَضَلاتِ الأيضيّةَ والهُرموناتِ والسُّمومَ المُتَّجِهةَ إلى الكُلى. **ولَحمُ الخِنزيرِ** ناقِلٌ رَئيسيٌّ لدُودةِ التِّريكينا التي تَتَحَوصَلُ في العَضَلاتِ وتُقاوِمُ الطَّهيَ الخَفيف، وللدُّودةِ الشَّريطيّةِ الخِنزيريّةِ التي قد تَصِلُ يَرَقاتُها إلى الدِّماغ، وللتوكسوبلازما، إضافةً إلى ارتِفاعِ دُهونِه المُشبَعة. **والمَيتةُ** قد ماتت بمَرَضٍ أو سُمّ، ودَمُها مَحبوسٌ في أنسِجَتِها فتَتَعَفَّنُ بسُرعة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القَيدُ الدَّقيقُ هو «**مَسفوحاً**». فالتَّحريمُ لم يَقَع على كلِّ دَم، بل على الدَّمِ السّائلِ المُراقِ عند الذَّبح. أمّا ما يَبقى مُتَخَلِّلاً في الأنسِجةِ – وهو المِيوغلوبين – فمَعفُوٌّ عنه، ولا سبيلَ لإزالَتِه أصلاً. فالتَّحريمُ **مُنضَبِطٌ بدِقّةٍ عِلميّةٍ لا تُفَرِّطُ ولا تُفرِط**. ومِثلُه الذَّكاةُ: اشتَرَطَت قَطعَ الأوداجِ لإسالةِ الدَّمِ كلِّه – وهو ما تُوصي به مَعاييرُ سَلامةِ اللُّحومِ اليومَ تَقليلاً للحِمْلِ البَكتيريّ. تَشريعٌ كامِلٌ يَتَّسِقُ مع عِلمٍ لم يُولَد بعد.

النَّملُ يتكلَّمُ ويُحذِّرُ

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ

سورة النَّمل – الآية ١٨

نَملةٌ تُنذِرُ مُستَعمَرَتَها فتَنسَحِبُ كلُّها إلى الجُحور

بكلامٍ بسيط

نَملةٌ صغيرةٌ رأت جَيشاً قادِماً، فأنذَرَت بقيّةَ النَّملِ ليَدخُلوا بُيوتَهم. والعِلمُ يقول: النَّملُ فِعلاً **يُرسِلُ إنذاراتٍ** فتَستَجيبُ المُستَعمَرةُ كلُّها فوراً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحَيَوانُ في التَّصوُّرِ القديمِ كائنٌ أعجَمُ لا لُغةَ له ولا تَنظيم. وأن تَصدُرَ من نَملةٍ جُملةٌ فيها **نِداءٌ وأمرٌ وتَحذيرٌ وتَعليلٌ وعُذرٌ للمُعتَدي** («وهم لا يَشعُرون») – بَدا هذا للسّامعِ قِصّةً رَمزيّةً لا خَبَراً واقِعيّاً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

النَّملُ من أرقى الكائناتِ الاجتِماعيّةِ تَنظيماً. ويَتَواصَلُ بثَلاثِ طُرُقٍ مُثبَتة: **الفيروموناتِ** الكيميائيّة – ولكلِّ رِسالةٍ مادّةٌ خاصّة، ومنها فيرومونُ الإنذارِ الذي يَنتَشِرُ فتَستَجيبُ المُستَعمَرةُ في ثَوانٍ؛ و**الطَّرقُ والاهتِزاز**؛ و**الصَّوت** – إذ اكتُشِفَ أنّ للنَّملِ عُضواً يُسمّى (Stridulatory organ) يُصدِرُ أصواتاً مُحدَّدةَ المعنى، سُجِّلَت وحُلِّلَت مُختَبَرِيّاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّفاصيلُ الصَّغيرةُ هي البُرهان. أوّلاً: الفِعلُ «**قالَت**» بصيغةِ المُؤنَّث – والنَّملُ العامِلُ الذي يَخرُجُ ويَحرُسُ ويُنذِرُ **إناثٌ كلُّه**، والذُّكورُ لا وَظيفةَ لها سوى التَّلقيحِ ثمّ تَموت. ثانياً: الأمرُ بالدُّخولِ إلى «**مَساكِنِكم**» – وبُيوتُ النَّملِ مَساكِنُ حقيقيّةٌ مُقَسَّمةٌ إلى غُرَفٍ وأنفاقٍ ومَخازِن. ثالثاً: «لا يَحطِمَنَّكم» – والحَطْمُ هو الكَسْرُ، وجِسمُ النَّملةِ هَيكَلٌ خارِجيٌّ صُلبٌ **يَنكَسِرُ ولا يَنسَحِق**. ثَلاثُ دَقائقَ في آيةٍ واحدة.

٤٠

ثَلاثُمِئةٍ وازدادوا تِسعاً

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا

سورة الكهف – الآية ٢٥

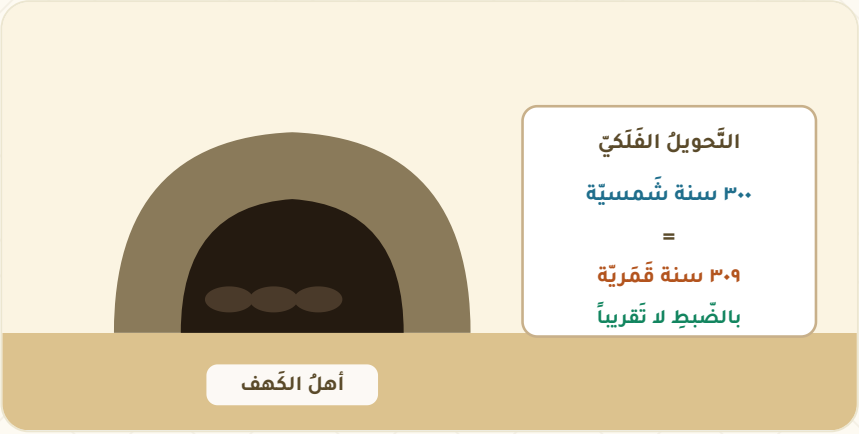

الفَرقُ بين التَّقويمَين هو تِسعُ سِنينَ بالتَّمامِ على ثَلاثةِ قُرون

بكلامٍ بسيط

القرآنُ قال إنّهم لَبِثوا **ثَلاثَمِئةِ سنة**، ثمّ أضافَ: **«وازدادوا تِسعاً»**. والسَّبَبُ بَديع: ثَلاثُمِئةِ سنةٍ شَمسيّةٍ تُساوي تماماً ثَلاثَمِئةٍ وتِسعَ سِنينَ قَمَريّة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان النّاسُ يَستَعمِلونَ تَقويماً واحداً في كلّ بيئة، ولا يُجرونَ تَحويلاً بين تَقويمَين. وإضافةُ «تِسعاً» بعدَ رَقمٍ مُدَوَّرٍ بَدَت زِيادةً غَريبةً لا مَعنى لها، حتّى ظَنَّها بعضُ القُرّاءِ تَرَدُّداً في الرَّقم.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

السَّنةُ الشَّمسيّةُ ٣٦٥٫٢٤٢٢ يوماً، والسَّنةُ القَمَريّةُ ٣٥٤٫٣٦٧ يوماً. فثَلاثُمِئةِ سنةٍ شَمسيّةٍ = ١٠٩٥٧٢٫٦ يوماً. وإذا قُسِمَ هذا على طولِ السَّنةِ القَمَريّةِ نَتَجَ **٣٠٩٫٢** سنةً قَمَريّة. أي أنّ الفَرقَ هو تِسعُ سِنينَ بالضّبط. وأهلُ الكَهفِ كانوا في بيئةٍ رُومِيّةٍ تَستَعمِلُ التَّقويمَ الشَّمسيّ، والقرآنُ يُخاطِبُ قَوماً يَستَعمِلونَ القَمَريّ – فأعطى الرَّقمَ بالتَّقويمَين معاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لو كان الرَّقمُ اعتِباطيّاً لَجاء «ثَلاثَمِئةِ سنة» ووَقَف، أو «ثَلاثَمِئةٍ ونَيِّفاً». لكنّ الزِّيادةَ جاءت **مُحَدَّدةً بتِسعٍ بالضّبط** – وهي بعَينِها ناتِجُ التَّحويلِ الفَلَكيّ. ولاحِظ الصِّياغة: «ثَلاثَ مِئةٍ سِنين **وازدادوا تِسعاً**» – فالفِعلُ «ازدادوا» يُشيرُ إلى أنّ التِّسعَ ليست مُدّةً أُخرى قَضَوها، بل **زِيادةٌ في العَدِّ لا في الزَّمَن** – أي أنّ الزَّمَنَ واحدٌ والعَدَدَ اختَلَفَ باختِلافِ التَّقويم. وهذا هو التَّفسيرُ الوَحيدُ الذي يَستَقيمُ حِسابيّاً ولُغَويّاً معاً.

٤١ ثَمودُ الذين نَحَتوا الجِبالَ بُيوتاً

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝ ... ۝ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ

سورة الشُّعَراء ١٤٩ – وسورة الحِجر ٨٢

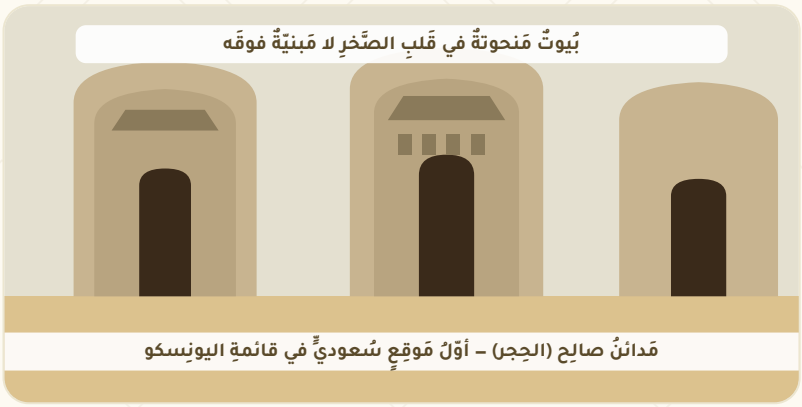

واجِهاتٌ ضَخمةٌ نُحِتَت من أعلى الصَّخرةِ إلى أسفَلِها – لا تَقبَلُ خَطأً واحداً

بكلامٍ بسيط

القرآنُ قال إنّ قَومَ ثَمودَ كانوا **يَنحِتونَ بُيوتَهم داخِلَ الجِبال** – لا يَبنونها بالحِجارة، بل يَحفِرونَ الجَبَلَ نفسَه ويَصنَعونَ منه بَيتاً. وهذه البُيوتُ مَوجودةٌ اليومَ ويَراها الزُّوّار.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

البِناءُ المَعروفُ في الجَزيرةِ طينٌ وحِجارةٌ وسَعَف. وفِكرةُ حَضارةٍ كامِلةٍ تَنحِتُ مَساكِنَها في بُطونِ الجِبالِ كانت غَريبةً على المُخاطَبين. وقد سَمّى القرآنُ قَوماً بأعيانِهم لا ذِكرَ لهم في التَّوراةِ ولا في كُتُبِ اليونان، ونَسَبَ إليهم تِقنيةً بِنائيّةً مُحَدَّدة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

مَدائنُ صالِح (الحِجر) في العُلا شَماليَّ السُّعوديّة: أكثَرُ من ١٣٠ واجِهةً مَنحوتةً في الصَّخرِ الرَّمليّ، بعضُها يَتَجاوَزُ عِشرينَ متراً ارتفاعاً، بأعمِدةٍ وتيجانٍ وشُرُفاتٍ ونُقوشٍ ثَموديّةٍ ونَبَطيّة. وقد أُدرِجَت سنة ٢٠٠٨ كأوّلِ مَوقِعٍ سُعوديٍّ في قائمةِ التُّراثِ العالَميّ لليونِسكو. والمَوقِعُ مَذكورٌ باسمِه في القرآن: «ولقد كَذَّبَ **أصحابُ الحِجرِ** المُرسَلين».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الفِعلُ المُستَعمَلُ هو الفَيصَل: «**يَنحِتون**» لا «يَبنون». والنَّحتُ في العربيّةِ إزالةُ المادّةِ من الكُتلةِ الصَّمّاء، وهو عَكسُ البِناءِ تماماً. ثمّ التَّخصيص: «**من الجِبال**» – أي أنّ الجَبَلَ نفسَه هو مادّةُ البَيت. وهذا وَصفٌ دَقيقٌ لِتِقنيّةٍ لا تُشبِهُ شيئاً ممّا حَولَ المُخاطَبين. وأضافَ وَصفاً نَفسيّاً بالِغَ الدَّلالة: «**آمِنين**» – فهذه البُيوتُ لا تَنهارُ ولا تَحتَرِقُ ولا يَهدِمُها عَدُوّ، فهي الصَّخرُ نفسُه. وبذلك يَشتَدُّ مَعنى الآيةِ: أعظَمُ أمانٍ هَندَسيٍّ لم يُغنِ عنهم شيئاً.

٤٢

أصحابُ الأُخدُود... حَفَروا ناراً للمُؤمِنين

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ

سورة البُروج – الآيات ٤-٧

مَذبَحةٌ تاريخيّةٌ مُوَثّقةٌ في نُقوشٍ يَمَنيّةٍ وفي رَسائلَ سُريانيّةٍ مُعاصِرة

بكلامٍ بسيط

القرآنُ ذَكَرَ قَوماً حَفَروا **حُفرةً طَويلة** وأشعَلوا فيها النّار، ثمّ ألقَوا فيها المُؤمِنينَ وجَلَسوا يَتَفَرَّجون. وهذه واقِعةٌ تاريخيّةٌ حَقيقيّةٌ مُسَجَّلةٌ في نُقوشٍ حَجَريّة.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن هذه الحادِثةُ مَذكورةً في كُتُبِ العَرَبِ بتَفصيلٍ مَوثوق، ولا كان لها سَنَدٌ مَكتوبٌ مُتاحٌ في مكّة. وهي قِصّةٌ عن أُمّةٍ أُخرى وزَمَنٍ سابِقٍ وأرضٍ بَعيدة.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

التّاريخُ يُثبِتُ مَجزَرةَ **نَجران** سنة ٥٢٣ م تقريباً، حين اضطَهَدَ المَلِكُ الحِميَريُّ **ذو نُواس** نَصارى نَجرانَ فأحرَقَ من رَفَضَ الرُّجوعَ عن دِينِه. والحادِثةُ مُوَثَّقةٌ في: **نَقشِ حِصنِ غُراب** ونُقوشِ بئرِ حِمى الحِميَريّة، وفي **رِسالةِ شَمعون الأرشاميِّ السُّريانيّة** المُعاصِرةِ للحَدَث، وفي المَصادِرِ البيزنطيّةِ والحَبَشيّة. وقد اكتُشِفَت في العُلا وبئرِ حِمى نُقوشٌ تَذكُرُ الحَملةَ وأعدادَ القَتلى.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الدِّقّةُ في التَّفاصيلِ الصَّغيرةِ هي التي تَفصِل. «**الأُخدُود**» في العربيّةِ هو الشَّقُّ الطَّويلُ المُستَقيمُ في الأرض – لا الحُفرةُ المُستَديرة. وهذا يُطابِقُ وَصفَ الخَنادِقِ المَحفورة. و«**ذاتِ الوَقود**» تُفيدُ أنّ النّارَ أُمِدَّت بوَقودٍ مُتَجَدِّدٍ لا نارٌ عارِضة. و«**عليها قُعود**» و«**شُهود**»: أي أنّ الجُناةَ جَلَسوا يُشاهِدون – وهي تَفصيلةٌ تُطابِقُ ما وَرَدَ في رِسالةِ شَمعون من أنّ المَلِكَ حَضَرَ التَّنفيذَ بنفسِه. ولاحِظ أنّ القرآنَ لم يُسَمِّ المَلِكَ ولا القَومَ – لأنّ الغَرَضَ العِبرةُ لا السَّرد.

سَبَأٌ وسَيلُ العَرِم

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

سورة سَبَأ – الآية ١٦

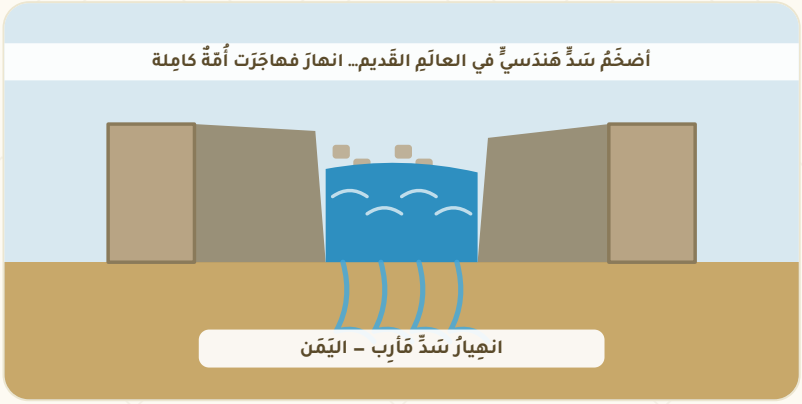

بَقايا السَّدِّ العِملاقِ ما زالت قائمةً في مَأرِبَ إلى اليوم

بكلامٍ بسيط

كانت في اليَمَنِ مَملَكةٌ غَنِيّةٌ اسمُها **سَبَأ**، تَعيشُ على سَدٍّ عَظيمٍ يَسقي جَنّاتِها. فانهارَ السَّدّ، وجَرَفَ السَّيلُ كلَّ شيء، وتَحَوَّلَت الجَنّاتُ إلى شَجَرٍ مُرٍّ لا يُؤكَل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

سَبَأٌ كانت في ذاكِرةِ العَرَبِ اسماً في الشِّعرِ والأمثال – «تَفَرَّقوا أيدي سَبَا». لكن لم تَكُن هناك آثارٌ مَكشوفةٌ ولا نُقوشٌ مَقروءة. وكان المُؤَرِّخونَ الغَربيّونَ يَشُكُّونَ في وُجودِ المَملَكةِ أصلاً ويَعُدُّونها مَزيجاً من الأسطورة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سَدُّ مَأرِب أثَرٌ قائمٌ اليوم: بُنِيَ في القَرنِ الثّامنِ قبل الميلادِ تقريباً، بطولٍ يُقارِبُ ٦٠٠ متر، وكان يَسقي نحوَ عَشَرةِ آلافِ هِكتار. وقد وُثِّقَت انهِياراتُه في **نُقوشٍ سَبَئِيّةٍ مُسنَدِيّة** عُثِرَ عليها في المَوقِع – منها نَقشُ أبرَهَةَ الشَّهيرُ الذي يَصِفُ إصلاحَ السَّدِّ سنة ٥٤٨ م. والانهِيارُ النِّهائيُّ نحوَ سنة ٥٧٠-٥٨٠ م أدّى إلى **هِجرةِ قَبائلَ يَمَنيّةٍ كاملةٍ** إلى الشّمال – وهي هِجرةٌ مَعروفةٌ في أنسابِ العَرَبِ وتاريخِهم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ لم تَكتَفِ بذِكرِ الانهِيار، بل وَصَفَت ما حَلَّ بالأرضِ بعدَه وَصفاً نَباتيّاً دَقيقاً: «جَنَّتَينِ ذَواتَي **أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشَيءٍ من سِدرٍ قَليل**». والخَمطُ الشَّجَرُ المُرُّ الشَّوكيّ، والأَثلُ نوعٌ من الطَّرفاء، والسِّدرُ شَجَرُ النَّبِق – وهذه بالضّبطِ هي **نَباتاتُ البيئةِ الجافّةِ المِلحِيّةِ** التي تَحُلُّ مَحَلَّ الزِّراعةِ حين يَنقَطِعُ الرَّيُّ وتَملَحُ التُّربة. ثمّ قال: «وشَيءٍ من سِدرٍ **قَليل**» – تَقليلٌ في مَوضِعِه، إذ السِّدرُ أنفَعُها وأقَلُّها.

بَدَنُ فِرعَون... مَحفوظٌ لِيَكونَ آيَة

٤٤

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً

سورة يونس – الآية ٩٢

جُثّةٌ عُمرُها أكثَرُ من ثَلاثةِ آلافِ سنة... ما زالت مَوجودة

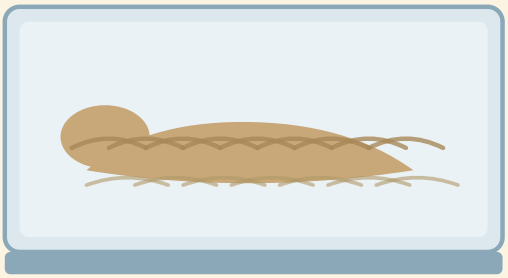

مُتحَفُ القاهرة – قاعةُ المُومياواتِ المَلَكيّة

جَسَدُ فِرعَونَ مَعروضٌ اليومَ خَلفَ زُجاجٍ يَراه النّاسُ بأعيُنِهم

بكلامٍ بسيط

حين غَرِقَ فِرعَونُ في البَحر، قال اللّهُ إنّه سيَحفَظُ **جَسَدَه** ليَراه مَن يَأتي بعدَه ويَعتَبِر. والجَسَدُ مَوجودٌ اليومَ في مُتحَفٍ يَزورُه النّاسُ من كلِّ الدُّنيا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الذي يَغرَقُ في البَحرِ يَذهَبُ جَسَدُه: تَأكُلُه الأسماكُ أو يَتَحَلَّلُ أو يَضيعُ في الرِّمال. وحين نَزَلَت الآيةُ لم يَكُن أحدٌ من العَرَبِ يَعلَمُ شيئاً عن التَّحنيطِ المَلَكيِّ ولا عن مَقابِرِ الفَراعِنة. بل إنّ اللُّغةَ الهيروغليفيّةَ نفسَها كانت مَنسيّةً تماماً، ولم تُفَكَّ رُموزُها إلّا سنة ١٨٢٢.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

اكتُشِفَت خَبيئةُ المُومياواتِ المَلَكيّةِ في الدَّيرِ البَحريِّ سنة ١٨٨١، ثمّ مَقبَرةُ أمنحتب الثّاني سنة ١٨٩٨، فظَهَرَت أجسادُ فَراعِنةِ الدَّولةِ الحَديثة. وجَسَدُ **مِرنِبتاح** – وهو أشهَرُ المُرَشَّحينَ لِفِرعَونِ الخُروج – مَحفوظٌ في مُتحَفِ القاهرة. وقد فُحِصَ بالأشِعّةِ فتَبَيَّنَ ما يَتَّفِقُ مع مَوتٍ عَنيفٍ وإصاباتٍ في الجُمجُمةِ والرَّقَبة، ولاحَظَ الفاحِصونَ تَرَسُّباتٍ مِلحِيّةً على الجِلد.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ لم تَقُل «نُنَجّيكَ» فقط، بل خَصَّت: «**بِبَدَنِك**» – أي بالجَسَدِ وحدَه دون الرُّوح. وهذا تَمييزٌ دَقيقٌ يُفَرِّقُ بين نَجاةِ الشَّخصِ ونَجاةِ جُثَّتِه. ثمّ عَلَّلَت: «**لِتَكونَ لِمَن خَلفَكَ آية**» – أي أنّ بَقاءَ الجَسَدِ نفسَه هو الغَرَض، فهو مُعَدٌّ ليُرى. ونَزَلَ هذا في صَحراءَ لا عِلمَ لأهلِها بمُومياواتٍ ولا مَقابِر، وقبل ألفٍ ومِئَتَي سنةٍ من فَتحِ تلك المَقابِرِ وعَرضِ أصحابِها في صالاتِ الزُّجاج.

مَخطوطاتٌ أثبَتَها الكَربون

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

سورة الحِجر – الآية ٩

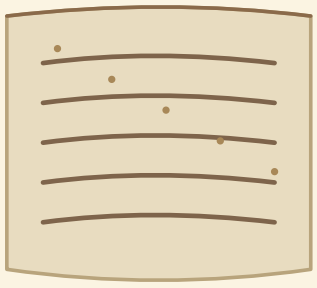

جامِعةُ بِرمِنغهام – بِريطانيا

مَخطوطُ بِرمِنغهام

تَأريخٌ بالكَربون ١٤

٥٦٨ - ٦٤٥ م

باحتِماليّةِ ٩٥%

نَصُّه يُطابِقُ المُصحَفَ اليوم

رِقٌّ من حَياةِ النَّبيِّ ﷺ أو بُعَيدَها، ونَصُّه هو نَصُّ اليوم

بكلامٍ بسيط

القرآنُ تَعَهَّدَ بأن يَبقى مَحفوظاً لا يَتَغَيَّر. واليومَ عِندَنا **مَخطوطاتٌ مُؤَرَّخةٌ بالكَربونِ المُشِعّ** تَرجِعُ إلى زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ تقريباً – ونَصُّها هو نَصُّ المُصحَفِ الذي بين يَدَيك حَرفاً بحَرف.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الكُتُبُ القَديمةُ كلُّها تَتَعَرَّضُ للزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّبديلِ عبر النَّسخِ والتَّرجَمة. وهذا مَصيرٌ طَبيعيٌّ لأيِّ نَصٍّ يُنقَلُ يَدَوِيّاً قُروناً. فدَعوى الحِفظِ التامِّ كانت **دَعوى قابِلةً للتَّكذيبِ بأيِّ مَخطوطٍ مُخالِف**.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

مَخطوطُ بِرمِنغهام: رِقٌّ فُحِصَ بالكَربون ١٤ في جامعةِ أُكسفورد سنة ٢٠١٥، فأُرِّخَ بين **٥٦٨ و٦٤٥ م** باحتِماليّةِ ٩٥٪. ومَخطوطُ صَنعاءَ السُّفليّ، ومَخطوطُ توبِنغن، ومَخطوطُ سَمَرقَند، والمَصاحِفُ الكُبرى في إسطنبولَ والقاهرة. وقد قارَنَ باحِثونَ – مُسلِمونَ وغيرُ مُسلِمين – هذه المَخطوطاتِ بالمُصحَفِ المُتَداوَلِ اليوم، فكانت المُطابَقةُ في النَّصِّ شِبهَ تامّةٍ عَدا اختِلافاتٍ إملائيّةٍ في رَسمِ الحُروفِ لا تُغَيِّرُ لَفظاً ولا مَعنى.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

الحِفظُ لم يَقُم على المَخطوطاتِ وحدَها، بل على **نِظامٍ مُزدَوَجٍ فَريدٍ في تاريخِ البَشَر**: كِتابةٍ مُدَقَّقة، و**حِفظٍ في الصُّدورِ بالتَّواتُر**. وفي كلِّ جِيلٍ يَحفَظُه مِئاتُ الآلافِ من البَشَرِ في بِلادٍ مُتَباعِدةٍ لا تَجمَعُهم سُلطة، فيَستَحيلُ عَمَلِيّاً أن يَتَّفِقوا على تَبديلِ حَرف. والنَّصُّ نَفسُه **أعلَنَ هذا التَّعَهُّدَ في وَقتٍ كان فيه أضعَفَ ما يَكون** – جَماعةٌ مُطارَدةٌ في مكّة. أن يَصمُدَ نَصٌّ أربعةَ عشرَ قَرناً بلا نُسخَتَينِ مُختَلِفَتَين أمرٌ لا نَظيرَ له في أيِّ كِتابٍ آخَرَ على وَجهِ الأرض.

٤٦

لَتَدخُلُنَّ المسجِدَ الحَرامَ آمِنين

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ

سورة الفَتح – الآية ٢٧

وَعْدٌ بدُخولٍ آمِنٍ... صَدَرَ في أشَدِّ لَحَظاتِ المَنع

بكلامٍ بسيط

مُنِعَ المُسلِمونَ من دُخولِ مكّة، ورَجَعوا من الطَّريقِ مَهزومي النُّفوس. فنَزَلَت آيةٌ تَعِدُهم بأنّهم **سيَدخُلونَ البَيتَ آمِنين**. وبعدَ سَنَتَينِ دَخَلوا مكّةَ فاتِحين بلا قِتالٍ ولا خَوف.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

سنة ٦ للهِجرة، عند الحُدَيبِيَة، رُدَّ المُسلِمونَ عن البَيتِ وصالَحوا قُرَيشاً على شُروطٍ رآها كثيرٌ منهم إجحافاً، حتّى قال عُمَرُ: «عَلامَ نُعطي الدَّنِيّةَ في دِيننا؟». وكانت مكّةُ في ذُروةِ قُوَّتِها، والمُسلِمونَ أقَلَّ عَدَداً وعُدّة. ولم يَكُن في الأُفُقِ ما يُشيرُ إلى فَتحٍ قَريب.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ٨ للهِجرة (٦٣٠ م) دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ مكّةَ على رأسِ عَشَرةِ آلاف، **بلا مَعركةٍ تُذكَر**، وأعلَنَ العَفوَ العامّ: «اذهَبوا فأنتم الطُّلَقاء». وطافَ المُسلِمونَ بالبَيتِ آمِنين، وحَلَقوا وقَصَّروا. وهذا من أكثَرِ أحداثِ التّاريخِ الإسلاميِّ تَوثيقاً، وتُجمِعُ عليه المَصادِرُ كلُّها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّفاصيلُ الصَّغيرةُ في الآيةِ هي ما يَرفَعُها من الأملِ إلى النُّبوءة. لم تَقُل: «سَتَفتَحونَ مكّة» فحَسب، بل حَدَّدَت **حالَ الدُّخول**: «**آمِنين**» – لا فاتِحينَ بعدَ حَربٍ ضارِية؛ و«**لا تَخافون**» – تَوكيدٌ للأمنِ التامّ؛ و«**مُحَلِّقينَ رُؤوسَكم ومُقَصِّرين**» – أي أنّهم سيُؤَدُّونَ النُّسُكَ كامِلاً في طُمَأنينة، وهو ما لا يَكونُ إلّا مع سَيطرةٍ تامّةٍ على المدينة. أربعُ تَفاصيلَ في جُملةٍ واحدة، وَقَعَت كلُّها.

٤٧

وادٍ لا زَرعَ فيه... صارَ أكثَرَ بِقاعِ الأرضِ زَحمة

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ

سورة إبراهيم – الآية ٣٧

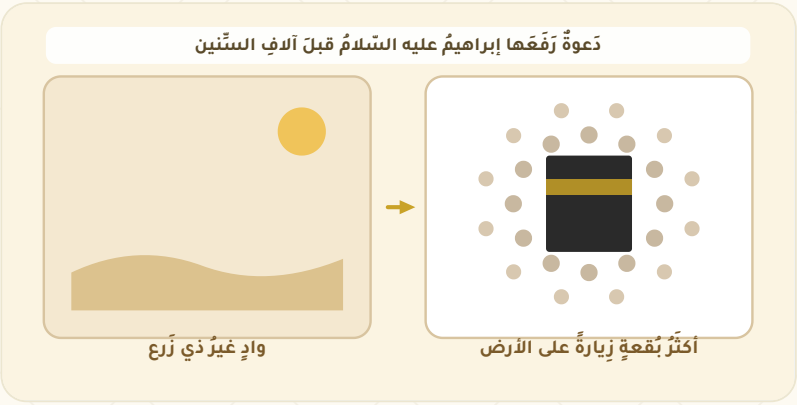

أرضٌ لا تُنبِتُ شيئاً... وتَجِدُ فيها ثِمارَ الدُّنيا كلّها

بكلامٍ بسيط

دَعا إبراهيمُ عليه السّلامُ وهو يَترُكُ زَوجَه وطِفلَه في وادٍ **لا ماءَ فيه ولا زَرع**، أن يَجعَلَ اللّهُ قُلوبَ النّاسِ تَشتاقُ إليهم وأن يَرزُقَهم الثَّمَرات. وهذا الوادي هو اليومَ **أكثَرُ مَكانٍ يَقصِدُه البَشَرُ على وَجهِ الأرض**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان الوادي صَحراءَ جَرداءَ بين جِبالٍ قاحِلة، لا نَهرَ ولا عَينَ ولا طَريقَ تِجارةٍ آنَذاك. ولا شَيءَ فيه يَدعو أحداً إلى قَصدِه. والدُّعاءُ نَفسُه غَريبٌ في صِياغَتِه: لم يَطلُب زَرعاً ولا ماءً للأرض، بل طَلَبَ أمرَين مُنفَصِلَين: **قُلوباً تَهوي**، و**ثَمَراتٍ تُرزَق**.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

مكّةُ اليومَ: يَقصِدُها في مَوسِمِ الحَجِّ وَحدَه أكثَرُ من مِليونَي إنسانٍ في أيّامٍ مَعدودة، ويَعتَمِرُها المَلايينُ على مَدارِ السَّنة. وتُرفَعُ إليها وُجوهُ أكثَرَ من مِليارٍ وثَمانِمِئةِ مِليونِ إنسانٍ **خَمسَ مَرّاتٍ كلَّ يوم**. وأرضُها لم تَتَغَيَّر: ما زالت وادِياً غيرَ ذي زَرع. ومع ذلك تَجِدُ في أسواقِها ثِمارَ الأرضِ كلِّها، تَأتيها من كلِّ قارّةٍ طَوالَ العام. وقد بَقِيَت بِئرُ زَمزَمَ تَتَدَفَّقُ أربعةَ آلافِ سنةٍ في قَلبِ صَحراء.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الإعجازُ في **بِنيةِ الدُّعاءِ نَفسِها**. فالطَّبيعيُّ لمن يَترُكُ أهلَه في صَحراءَ أن يَدعُوَ بأن تُخصِبَ الأرضُ أو يَنزِلَ المَطَر. لكنّه دَعا بأن **تَهوِيَ إليهم أفئدةُ النّاس** – أي أن يَأتيَهم الرِّزقُ بالنّاسِ لا بالأرض. ودَقَّقَ فقال «**أفئدةً من النّاس**» لا «النّاسَ كلَّهم» – فلو دَعا بالكلِّ لَضاقَ المَكانُ عن حَمْلِهم. ثمّ قال «**تَهوي**» لا «تَأتي» – والهُوِيُّ سُقوطٌ بشَوقٍ وانجِذاب، لا مَجيءُ مُكرَه. وهذا وَصفٌ دَقيقٌ لحالِ مَن يَرى الكَعبةَ لأوّلِ مَرّة. دُعاءٌ صيغَ بهذه الدِّقّة، ثمّ تَحَقَّقَ حَرفاً على مَدى أربعةِ آلافِ سنة.

٤٨

سِوارا كِسرى في يَدِ سُراقة

قَالَ لِسُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ: كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟

رواه البَيهقيّ وابنُ عبدِ البَرّ وغيرُهما

رَجُلٌ خَرَجَ لِيَقتُلَه طَمَعاً في مئةِ ناقة... فوَعَدَه بكُنوزِ كِسرى

بكلامٍ بسيط

خَرَجَ سُراقةُ يُطارِدُ النَّبيَّ ﷺ يومَ الهِجرةِ طَمَعاً في الجائزة. فقال له النَّبيُّ ﷺ: **كيف بكَ إذا لَبِستَ سِوارَي مَلِكِ فارِس؟** وبعدَ سِنينَ لَبِسَهما فِعلاً في خِلافةِ عُمَرَ بنِ الخَطّاب.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

اللَّحظةُ التي قيلَ فيها الكَلامُ هي **أحرَجُ لَحظةٍ في السّيرةِ كلِّها**: النَّبيُّ ﷺ هارِبٌ من بَلَدِه، مُطارَدٌ، لا يَملِكُ إلّا راحِلتَه ورَفيقَه، وعلى رأسِه مئةُ ناقةٍ لمن يَأتي به. وفارِسُ يَومَئذٍ إحدى أعظَمِ إمبراطوريَّتَينِ في الأرض، وكِسرى يُمَزِّقُ كِتابَ النَّبيِّ ﷺ ساخِراً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في خِلافةِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ سَقَطَت الدَّولةُ السّاسانيّةُ وفُتِحَ المَدائن، وحُمِلَت كُنوزُ كِسرى إلى المَدينة. فدَعا عُمَرُ سُراقةَ بنَ مالِكٍ وألبَسَه **سِوارَي كِسرى وتاجَه ومِنطَقَتَه**، وقال له: «قُل: الحَمدُ للهِ الذي سَلَبَهما كِسرى بنَ هُرمُزَ وألبَسَهما سُراقةَ بنَ مالِكٍ أعرابيّاً من بَني مُدلِج». والخَبَرُ مَرويٌّ في كُتُبِ الحَديثِ والتّاريخِ من طُرُقٍ مُتَعَدِّدة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النُّبوءةُ هنا تَجمَعُ ثَلاثةَ أشياءَ يَستَحيلُ اجتِماعُها بالحَدس: **شَخصٌ مُعَيَّنٌ بالاسم** (سُراقة)، و**شَيءٌ مُعَيَّنٌ بعَينِه** (سِوارا كِسرى لا أيُّ غَنيمة)، و**حَدَثٌ سِياسيٌّ هائل** (سُقوطُ فارِسَ ووُصولُ كُنوزِها إلى العَرَب). وقِيلَت لرَجُلٍ كان في تلك اللَّحظةِ **عَدُوّاً يُطارِدُه**، لا صاحِباً يُبَشِّرُه. ولو أُريدَ التَّألُّفُ لكانت أدنى الوَعودِ أنفَع. أمّا أن يُوعَدَ عَدُوٌّ مُطارِدٌ بكُنوزِ أعظَمِ إمبراطوريّةٍ في الأرضِ، من رَجُلٍ لا يَملِكُ يومَها إلّا نَفسَه – فهذا كَلامُ واثِقٍ من مَصدَرٍ غيرِ بَشَريّ.

٤٩

يُكَوِّرُ اللَّيلَ على النَّهار

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ

سورة الزُّمَر – الآية ٥

اللّيلُ والنّهارُ يتَعَقّبانِ حول كُرةِ الأرضِ في دورانٍ لا يتوقّف

بكلامٍ بسيط

كلمةُ «يُكَوِّر» تأتي من «الكُرَة» ومن «تكويرِ العِمامة» – أي **لَفُّ شيءٍ على شيءٍ مُستَدير**. فاللّيلُ يَلُفُّ الأرضَ كما تَلُفُّ العِمامةُ الرّأس. ولا يكونُ اللَّفُّ إلّا على جِسمٍ كُرَويّ.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان الشّائعُ عند عامّةِ النّاسِ في كلّ مكانٍ أنّ الأرضَ سَطحٌ مُنبسِط، وأنّ اللّيلَ **يحلُّ محلَّ** النّهارِ ويَزولُ به. حتّى من قال بكُرَويّتِها من فلاسفةِ اليونان، لم يَربِط ذلك بحركةِ لَفٍّ مستمرّةٍ لخطّ اللّيلِ والنّهار.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الأرضُ كُرةٌ (مُفلطَحةٌ قليلاً عند القُطبَين)، والشّمسُ تُضيءُ نِصفَها دائماً. ودورانُ الأرضِ حول نفسِها يجعلُ **خطَّ الفَصلِ بين اللّيلِ والنّهار** يزحفُ على سطحِها بلا توقُّف – أي أنّ اللّيلَ يلتفُّ حول الكرةِ حرفيّاً، ولا يزولُ بل ينتقل. وهو ما تراه بعينِك في أيِّ صورةٍ حيّةٍ للأرضِ من قمرٍ صناعيّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

اختيارُ فعلٍ من مادّةِ «الكُرَة» لوصفِ تَعاقُبِ اللّيلِ والنّهارِ لا يستقيمُ معناه على سطحٍ مُسطَّح. والأدقُّ من ذلك: الآيةُ تجعلُ التّكويرَ **مُتبادَلاً في الاتّجاهَين** «يُكوِّرُ اللّيلَ على النّهارِ ويُكوِّرُ النّهارَ على اللّيل» – وهذا لا يَصِفُه إلّا من يرى دوراناً مُستمرّاً على جِسمٍ كُرَويّ. وفي موضعٍ آخَر: «والأرضَ بعدَ ذلك **دَحاها**» – والدَّحوُ في العربيّة هو البَسطُ مع الاستدارة، ومنه «الأُدحِيَّة» وهي بيضةُ النَّعام.

٥٠

السَّماءُ ذاتُ الرَّجع

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ

سورة الطّارق – الآية ١١

الماءُ يصعدُ بُخاراً ويرجِعُ مَطَراً – دورةٌ مُغلَقةٌ لا يَضيعُ منها شيء

بكلامٍ بسيط

السّماءُ تأخذُ الماءَ من البحرِ بُخاراً، ثمّ **تُرجِعُه** إلينا مَطَراً. كلُّ قطرةٍ تشربُها اليومَ شربَها إنسانٌ قبلك، وسيشربُها إنسانٌ بعدك. الماءُ لا يَنفَد، يَرجِع.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

المَطَرُ كان يُفهَمُ على أنّه ماءٌ **جديدٌ** يُنزِلُه اللهُ من خزائنَ في السّماء، لا ماءٌ عائدٌ من الأرضِ نفسِها. والرّبطُ بين بُخارِ البحرِ وقَطرِ المَطَرِ لم يكن معروفاً؛ لم تُوصَف دورةُ الماءِ وصفاً كامِلاً في أوروبّا إلّا في القرنِ السّابعَ عشر.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

دورةُ الماء: تبخُّرٌ من المُسطّحاتِ المائيّة ← تكاثُفٌ في السَّحاب ← هُطولٌ ← جَريانٌ ← تبخُّر. كمّيّةُ الماءِ على الأرضِ **ثابتةٌ منذ مليارات السّنين**، تدورُ ولا تزيدُ ولا تنقُص. والغِلافُ الجوّيُّ لا يَرُدُّ الماءَ وحدَه، بل يَرُدُّ الحرارةَ وموجاتِ الرّاديو أيضاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لفظةٌ واحدةٌ «الرَّجْع» تَحمِلُ المعنى كلَّه. الرَّجْعُ هو **عَودةُ الشّيءِ إلى مَوضِعِه**، لا مجرّدُ نُزوله. فوصفُ السّماءِ بهذه الصّفةِ يُقرِّرُ أنّ ما ينزلُ منها كان قد صَعِدَ إليها. وهو تلخيصٌ كامِلٌ لدورةِ الماءِ في كلمتَين. ويُؤكِّدُها قولُه في موضعٍ آخَر: «وأنزَلْنا من السّماءِ ماءً **بِقَدَرٍ**» – أي بكَمّيّةٍ مُقدَّرةٍ ثابتةٍ لا تتغيّر.

٥١

ماءٌ بقَدَرٍ... لا يَزيدُ ولا يَنقُص

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ

سورة المُؤمنون – الآية ١٨

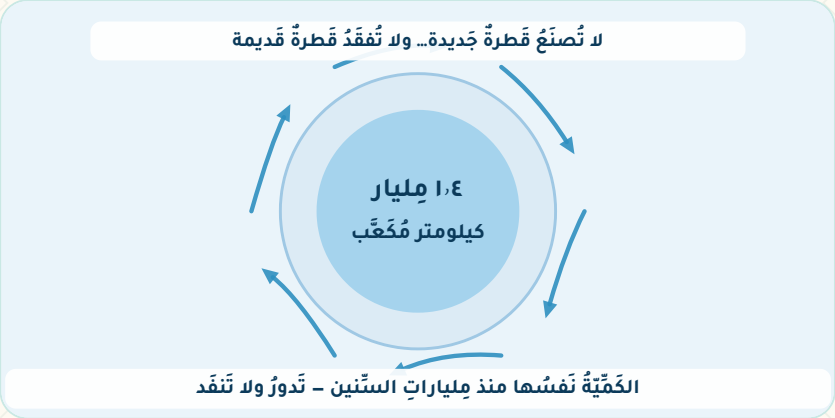

مِيزانٌ مائيٌّ ثابِتٌ على مُستَوى الكَوكَبِ كلّه

بكلامٍ بسيط

كَمِّيَّةُ الماءِ على الأرضِ **ثابِتةٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُص**. الماءُ الذي شَرِبَه الدّيناصورُ هو نَفسُه الذي تَشرَبُه اليوم. وكلمةُ «**بقَدَر**» في الآيةِ تَعني: بمِقدارٍ مَحسوبٍ مَضبوط.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

المَطَرُ كان يُفهَمُ على أنّه ماءٌ جَديدٌ يُنزَلُ من خَزائنَ في السَّماءِ كلَّما احتاجَ النّاس. ولم تَكُن فِكرةُ **كَمِّيّةٍ مُغلَقةٍ ثابِتةٍ تَدورُ** مَوجودةً في أيِّ ثَقافة. والبَديهيُّ أنّ ماءَ البَحرِ يَنقُصُ بالتَّبَخُّرِ وأنّ المَطَرَ إضافةٌ جَديدة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

حَجمُ الماءِ على الأرضِ يُقَدَّرُ بنَحوِ **١٫٤ مِليار كيلومترٍ مُكَعَّب**، وهو ثابِتٌ تَقريباً منذ مِلياراتِ السِّنين. يَتَبَخَّرُ ويَتَكاثَفُ ويَهطِلُ ويَجري ويَعودُ – في دورةٍ مُغلَقةٍ لا تُضيفُ ولا تَحذِف. والغِلافُ الجَوِّيُّ والمَجالُ المِغناطيسيُّ يَمنَعانِ تَسَرُّبَ بُخارِ الماءِ إلى الفَضاء – وهو ما لم يَحدُث في المِرّيخ، فتَبَخَّرَ ماؤه وضاعَ فصارَ صَحراءَ مَيِّتة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القَيدُ «**بقَدَر**» هو مَوضِعُ الإعجاز، ولا مَعنى له إلّا مع ثَباتِ الكَمِّيّة. فلو كان الماءُ يُنشَأُ جَديداً كلَّما نَزَلَ، لَما كان لتَقديرِه مَعنًى. والأدَقُّ منه ما يَليه: «**فأسكَنّاه في الأرض**» – والإسكانُ يُفيدُ الاستِقرارَ والبَقاءَ لا الاستِهلاك؛ فالماءُ مَخزونٌ في الأرضِ لا مُستَهلَكٌ فيها. ثمّ التَّحذيرُ الأخير: «**وإنّا على ذَهابٍ به لَقادِرون**» – أي أنّ هذا المِيزانَ نِعمةٌ يُمكِنُ أن تُرفَع. وهو ما يَراه العُلَماءُ اليومَ حَقيقةً قائمةً في المِرّيخِ الذي فَقَدَ ماءَه كلَّه.

٥٢

والأرضَ بعدَ ذلك دَحاها

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا

سورة النّازعات – الآيتان ٣٠-٣١

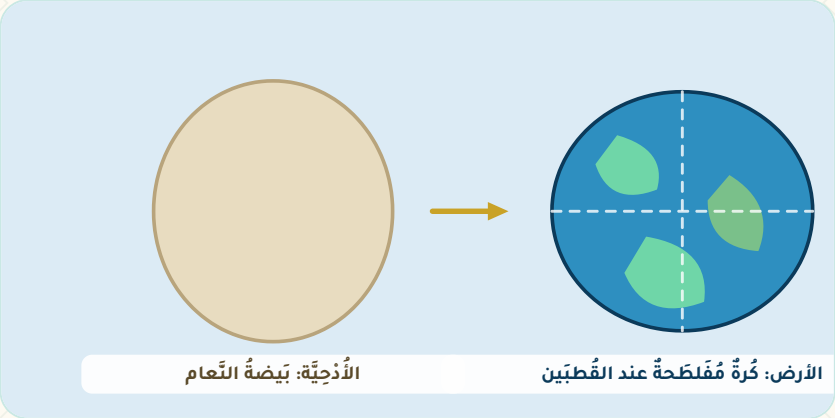

الأرضُ ليست كُرةً تامّة، بل مُفلطَحةٌ قليلاً – كبَيضةِ النَّعام

بكلامٍ بسيط

كلمةُ «دَحا» في العربيّةِ تعني: بَسَطَ الشّيءَ **مع استدارة**. ومنها «الأُدْحِيَّة» – وهي المكانُ الذي تَبيضُ فيه النَّعامة، وبَيضةُ النَّعامِ نفسُها. فالأرضُ مَبسوطةٌ لتَمشيَ عليها، ومُستديرةٌ مُفلطَحةٌ في حقيقتِها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الأرضُ في تصوُّرِ عامّةِ النّاسِ سَطحٌ مُنبَسِطٌ لا غير. ومن قال بكُرَويّتِها من الفلاسفةِ قال بكُرةٍ **تامّةِ الاستدارة**. أمّا الفَلطَحةُ عند القُطبَينِ فلم يَقُل بها أحد.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الأرضُ **كُرَويٌّ مُفلطَح** (Oblate Spheroid): قُطرُها عند خطّ الاستواءِ يزيدُ نحوَ ٤٣ كيلومتراً على قُطرِها بين القُطبَين، بسببِ دورانِها حول نفسِها. وقد أثبتَ نيوتن هذا نظريّاً سنة ١٦٨٧، ثمّ قاسَته البَعثاتُ الفرنسيّةُ ميدانيّاً سنة ١٧٣٦. والشَّكلُ الدّقيقُ المُسمّى «الجيويد» أقربُ ما يكونُ إلى شكلِ البَيضة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

اللُّغةُ هنا تَحسِمُ. «دَحا يَدحُو دَحواً» في المعاجمِ العربيّة: بَسَطَ ووَسَّع، و«الأُدْحِيُّ» و«الأُدْحِيَّة»: مَبيضُ النَّعامةِ وبَيضتُها. فالمادّةُ اللُّغويّةُ نفسُها تَجمعُ بين **البَسْطِ والشَّكلِ البَيضاويّ**. واختيارُ هذا الفِعلِ بالذّاتِ – دون «بَسَطَ» أو «مَدَّ» وكِلاهُما في القرآنِ لمَعانٍ أخرى – يَحمِلُ المعنَيَين معاً في كلمةٍ واحدة. والمِفتاحُ أنّ الآيةَ التّاليةَ فسَّرَت المُرادَ بالبَسط: «أخرجَ منها ماءَها ومَرعاها» – أي التَّهيئةَ للسُّكنى، لا التَّسطيح.

٥٣

في العَسَلِ شِفاءٌ للنّاس

يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ

سورة النَّحل – الآية ٦٩

ما أثبَتَه الطِّبّ

- يَقتُلُ البَكتيريا
- يُعالِجُ الجُروحَ والحُروق
- يُهَدِّئُ السُّعالَ عند الأطفال
- مُضادٌّ للأكسَدةِ والالتِهاب
- يُستَعمَلُ في المُستَشفَياتِ اليوم

عَسَلٌ خام

ضِمادُ العَسَلِ الطِّبِّيُّ مُعتَمَدٌ رَسمِيّاً في أوروبّا وأمريكا

ضِمادَاتُ العَسَلِ الطِّبِّيَّةُ تُباعُ اليومَ في الصَّيدَليّاتِ بتَرخيصٍ رَسميّ

بكلامٍ بسيط

القرآنُ قال قبل ١٤٠٠ سنةٍ إنّ في العَسَلِ **شِفاءً**. واليومَ يُستَعمَلُ العَسَلُ في المُستَشفَياتِ لِعلاجِ الجُروحِ والحُروقِ التي عَجَزَت عنها المُضادّاتُ الحَيَويّة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَسَلُ كان طَعاماً حُلواً وغِذاءً ثَميناً، وكانت تُنسَبُ إليه مَنافِعُ بالتَّجرِبةِ الشَّعبيّة. لكنّ الجَزمَ بأنّ فيه **شِفاءً** على وَجهِ التَّقريرِ الإلهيِّ شيءٌ آخَر – خاصّةً وأنّه يَخرُجُ من بَطنِ حَشَرة، وهو ما قد يُستَبعَدُ منه النَّفعُ عَقلاً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

العَسَلُ مُضادٌّ حَيَويٌّ طَبيعيٌّ بآليّاتٍ ثَلاث: كَثافتُه السُّكَّريّةُ تَسحَبُ الماءَ من البَكتيريا فتَقتُلُها؛ وحُموضتُه تَمنَعُ نُمُوَّها؛ وإنزيمُ الغلوكوز أوكسيديز فيه يُنتِجُ **ماءَ الأُكسِجين** ببُطءٍ مُستَمِرّ. وقد اعتَمَدَت هيئاتٌ دَوائيّةٌ رَسميّةٌ ضِماداتِ عَسَلِ المانوكا لِعلاجِ الجُروحِ المُزمِنة، وأوصَت مُنظَّمةُ الصِّحّةِ العالَميّةُ بالعَسَلِ لتَهدِئةِ السُّعالِ عند الأطفال. وقد وُجِدَ عَسَلٌ في المَقابِرِ الفِرعَونيّةِ صالِحاً للأكلِ بعدَ ثَلاثةِ آلافِ سنة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعانِ من الدِّقّةِ لا يُفَسَّرانِ بالتَّجرِبةِ الشَّعبيّة. الأوّل: «مُختَلِفٌ **ألوانُه**» – وهي حقيقةٌ مَعروفةٌ اليومَ أنّ لونَ العَسَلِ وخَواصَّه الطِّبّيّةَ تَختَلِفُ باختِلافِ المَصدَرِ النَّباتيّ، ولذلك يَتَفاوَتُ أثَرُه العِلاجيّ. الثّاني: «يَخرُجُ من **بُطونِها**» – والعَسَلُ يُصنَعُ فِعلاً في **مَعِدةِ العَسَلِ** وهي كيسٌ داخِليٌّ مُنفَصِلٌ عن مَعِدةِ الهَضم، حيث تُضافُ إليه الإنزيمات، ثمّ يُقذَفُ منها. فالنَّصُّ حَدَّدَ المَصدَرَ التَّشريحيَّ الصَّحيحَ بدَقّة.

٥٤

الشَّمسُ تَجري... وليست ثابتة

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

سورة يس – الآية ٣٨

الشّمسُ تسبحُ حول مركزِ المجرّةِ ساحِبةً معها كلَّ كواكِبِها

بكلامٍ بسيط

الشّمسُ ليست واقفةً في مكانها. هي **تجري** بسرعةٍ هائلة، وتَسحبُ معها الأرضَ وكلَّ الكواكب، في رحلةٍ حول مركزِ مجرّتنا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان النّاسُ يَرَون الشّمسَ تُشرِقُ وتَغرُب، فظنّوا حركتَها مجرّدَ دورانٍ حول الأرض. ثمّ جاء العصرُ الحديثُ فقال: بل الأرضُ هي التي تدور، و**الشّمسُ ثابتةٌ في مركزِ النّظام**. كان هذا هو «العلمَ المستقرَّ» طَوالَ القرنَين السّابعَ عشرَ والثّامنَ عشر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الشّمسُ تتحرّكُ فِعلاً بثلاثِ حركاتٍ مُثبَتة: تدورُ حول نفسِها كلَّ ٢٥ يوماً تقريباً؛ وتجري حول مركزِ مجرّةِ درب التّبّانة بسرعة نحو **٢٢٠ كيلومتراً في الثّانية** مُكمِلةً دورةً كلَّ ٢٢٥ مليون سنة؛ وتنطلقُ كذلك نحو نقطةٍ في السّماءِ تُسمّى «الأَبِكس».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انتبه للمُفارقة: الآيةُ نزلت حين كان النّاسُ يظنّون الشّمسَ تدورُ حولهم، فأثبتت لها جَرْياً. ثمّ جاء عصرٌ نفى عنها كلَّ حركةٍ وقال «هي ثابتة»، فبَدَت الآيةُ وكأنّها تُخالفُ العلم. ثمّ جاء العلمُ الأحدثُ فأثبتَ لها جَرياً حقيقيّاً **أعظمَ ممّا تخيّلَ أحد**. نصٌّ واحدٌ صمدَ أمام تغيُّرَين كامِلَين في العلم – وهذا وحدَه دليل.

سَقفٌ يَحميك وأنت لا تَراه

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ

سورة الأنبياء – الآية ٣٢

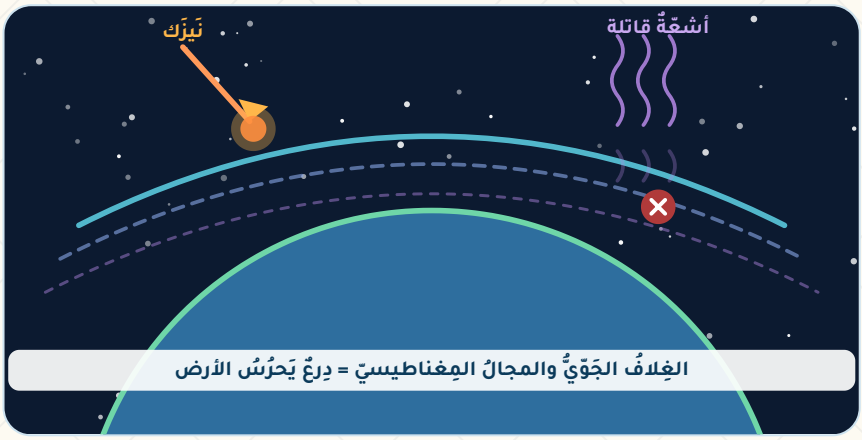

آلافُ النّيازكِ تحترقُ كلَّ يومٍ قبل أن تصلَ إليك، وأنت نائمٌ في بيتِك

بكلامٍ بسيط

فوق رأسِك سَقفٌ لا تراه، لكنّه يَحميك. النّيازكُ التي تنطلقُ نحونا تحترقُ فيه قبل أن تصل، والأشعّةُ القاتلةُ يَحجُبها. **لولاه لماتَ كلُّ حيٍّ على الأرض**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت «السّماء» عند النّاسِ إمّا فراغاً فارغاً، وإمّا قُبّةً صُلبةً مُثبّتةً فيها النّجوم. ولم يَخطُر لأحدٍ قَطُّ أنّ فوقنا طبقةً **غيرَ مرئيّةٍ تؤدّي وظيفةَ حِماية**. الشّهابُ المُحترِقُ كان في نظرهم نجماً يسقط، لا نَيزَكاً يحترقُ في دِرع.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الغِلافُ الجوّيُّ يُحرِقُ يوميّاً ما يُقدَّرُ بمئةِ طنٍّ من المادّةِ الفضائيّةِ قبل وصولِها. وطبقةُ الأوزون تمتصُّ نحو ٩٩٪ من الأشعّةِ فوق البنفسجيّةِ الفتّاكة. والمجالُ المِغناطيسيُّ الأرضيُّ يَصُدُّ **الرّياحَ الشّمسيّة** التي كانت كفيلةً بتجريدِ الأرضِ من هوائِها ومائِها كما حدث للمرّيخ تماماً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الجمعُ بين كلمتَي «سَقْف» و«مَحفوظ» هو المُعجِز. السّقفُ يدلُّ على الغِطاءِ الشّامل، و«محفوظ» صيغةُ اسمِ مفعول تدلُّ على أنّه **مُصانٌ ويَصُونُ من تحتَه**. ثمّ جاءت الجملةُ التّالية: «وهم عن آياتِها مُعرِضون» – أي أنّ في هذا السّقفِ **آياتٍ** سيَغفُلُ عنها النّاس. وهذه إشارةٌ صريحةٌ إلى أنّ فيه من العجائبِ ما لم يُكتشَف بعد. وقد كان: لم يُكتشَف الأوزون إلّا سنة ١٩١٣، والمجالُ المِغناطيسيُّ الواقي إلّا سنة ١٩٥٨.

٥٦ الشُّهُبُ التي تَحرُسُ السَّماء

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ

سورة المُلك – الآية ٥

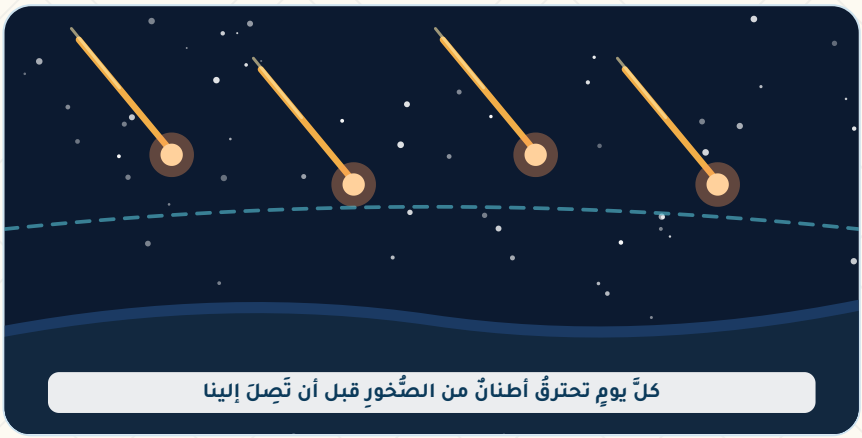

الشُّهُبُ تشتعلُ حين تدخلُ الغلافَ الجوّيَّ بسرعةٍ تفوقُ الرَّصاص

بكلامٍ بسيط

الآيةُ تُعطي للنّجومِ والأجرامِ المُضيئةِ وظيفتَين معاً: **زينةٌ للسّماء**، و**قَذائفُ تُطارِدُ من يُحاولُ التّسلُّلَ إلى الأعلى**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الشُّهُبُ كانت في نظرِ العربِ «نجوماً تسقط»، وفي ثقافاتٍ أخرى علاماتٍ على موتِ مَلِكٍ أو حَدَثٍ عظيم. أمّا أنّها **أجسامٌ صُلبةٌ تحترقُ بالاحتكاك** فلم يكن ذلك معروفاً. بل إنّ العلمَ الرَّسميَّ أنكرَ حتّى القرنِ التّاسعَ عشرَ أن تسقُطَ حجارةٌ من السّماء، وسَخِرَت الأكاديميّةُ الفرنسيّةُ ممّن قال بذلك.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

النّيازكُ أجسامٌ صخريّةٌ ومَعدِنيّةٌ تدخلُ الغلافَ الجوّيَّ بسرعاتٍ تبلغُ عشراتِ الكيلومتراتِ في الثّانية، فيحترقُ أغلبُها تماماً بفعلِ ضغطِ الهواءِ وحرارتِه. وتُقدَّرُ الكُتلةُ الدّاخلةُ يوميّاً بنحوِ **مئةِ طنّ**. وقد ثبتَ علميّاً سقوطُ النّيازكِ بعد حادثةِ «لَيغل» في فرنسا سنة ١٨٠٣.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ فرّقت بين وظيفتَين مختلفتَين لأجرامِ السّماء: الزّينةُ الثّابتة، و**الرَّجْمُ المُتحرِّك**. والرَّجْمُ في العربيّةِ هو الرَّمْيُ بالحِجارةِ تحديداً – لا الرَّميُ بالنّورِ ولا بالنّار. فوصفُ ما ينزلُ من السّماءِ مُحترِقاً بأنّه «رَجْمٌ» أي حَجَرٌ مَقذوف، في زمنٍ كان العلمُ الرّسميُّ فيه – بعد ذلك بقرون – يُنكِرُ وجودَ حجارةٍ في السّماءِ أصلاً، وصفٌ يستحيلُ أن يكونَ صُدفة.

٥٧

سَدُّ ذي القَرنَينِ... حَديدٌ ونُحاسٌ مَصهور

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا

سورة الكهف – الآية ٩٦

صَبُّ النُّحاسِ المَصهورِ على الحَديدِ يَملأُ الفَجَواتِ ويَمنَعُ الصَّدأ

بكلامٍ بسيط

بَنى ذو القَرنَينِ جِداراً بين جَبَلَين: رَصَّ **قِطَعَ الحَديد**، ثمّ أشعَلَ النّارَ حتّى احمَرَّت، ثمّ صَبَّ عليها **النُّحاسَ المَصهور**. وهذه بالضّبطِ طَريقةُ صِناعةِ سَبيكةٍ فائقةِ الصَّلابةِ لا تَصدَأ.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت المَعرِفةُ بالمَعادِنِ بَسيطة: حَديدٌ يُطرَقُ وهو حامٍ، ونُحاسٌ يُصَبُّ في قوالِب. ولم تَكُن فِكرةُ **دَمجِ مَعدِنَينِ في بِنيةٍ واحدة** مَعروفةً كتِقنيّةٍ إنشائيّة، ولا كان يُعرَفُ لماذا يُصَبُّ أحدُهما على الآخَرِ وهو مُحمًى.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

صَبُّ النُّحاسِ المَصهورِ على الحَديدِ المُحمى يُنتِجُ ما يُشبِهُ **اللِّحامَ بالنُّحاس** (Brazing): يَتَخَلَّلُ النُّحاسُ السّائلُ الفَجَواتِ بين القِطَعِ بخاصّيّةِ الشَّعريّة، فيَربِطُها رَبطاً مُحكَماً ويَطرُدُ الهَواء. والنَّتيجةُ كُتلةٌ صَمّاءُ مُتَماسِكةٌ لا فَراغَ فيها. كما أنّ غِلافَ النُّحاسِ **يَعزِلُ الحَديدَ عن الهَواءِ والرُّطوبةِ فيَمنَعُ الصَّدأ** – وهو مَبدأُ الطِّلاءِ المَعدِنيِّ المُستَعمَلِ اليومَ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

تَرتيبُ الخُطُواتِ هو مَوضِعُ الإعجاز، وهو تَرتيبٌ هَندَسيٌّ لا يَصِحُّ غيرُه: ١) **زُبَرُ الحَديد** – والزُّبرةُ هي القِطعةُ الكَبيرة، فالبِنيةُ الحامِلةُ حَديد. ٢) **النَّفخ** – أي الإمدادُ بالهَواءِ لرَفعِ الحَرارة، وهو ما يَفعَلُه الكِيرُ في المَسابِك. ٣) **حتّى إذا جَعَلَه ناراً** – أي بَلَغَ الحَديدُ درجةَ الاحمِرارِ التي يَقبَلُ عندها الالتِحام. ٤) **ثمّ إفراغُ القِطر** – أي النُّحاسِ المَصهورِ فوقَه. لو صُبَّ النُّحاسُ على حَديدٍ بارِدٍ لَما التَحَم. فالنَّصُّ يَصِفُ شَرطَ الحَرارةِ قبلَ الصَّبِّ – وهو جَوهَرُ العَمَليّةِ كلِّها.

٥٨

لا الشَّمسُ تُدرِكُ القَمَر... ولا اصطِدام

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

سورة يس – الآية ٤٠

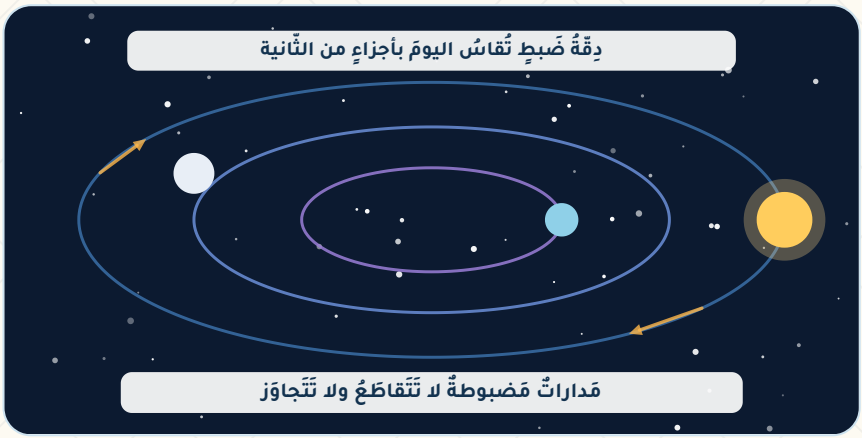

كلُّ جِرمٍ في مَسارِه لا يَتَعَدّاه ولا يُدرِكُ غَيرَه

بكلامٍ بسيط

الأجرامُ السَّماويّةُ تَجري بسُرعاتٍ هائلة، ومع ذلك **لا يُصادِمُ أحَدُها الآخَر**. ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ ولا يَتَأخَّرُ عنه. نِظامٌ لا يَختَلُّ طَرفةَ عَين.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن هناك مَعرِفةٌ بسُرعاتِ الأجرامِ ولا بمَداراتِها ولا بقَوانينِ حَرَكَتِها. وكانت الكُسوفاتُ والخُسوفاتُ تُفَسَّرُ بأنّها غَضَبٌ أو نَذير، لا بأنّها **مَواعيدُ يُمكِنُ حِسابُها قبلَ وُقوعِها بقُرون**.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

مَداراتُ الأجرامِ مَضبوطةٌ بدِقّةٍ تُدهِشُ الفَلَكيّين. فالأرضُ تَقطَعُ مَدارَها حولَ الشَّمسِ بسُرعةِ ٣٠ كم في الثّانية، والقَمَرُ يَدورُ حَولَها، ولا يَقَعُ اصطِدام. ودِقّةُ النِّظامِ بَلَغَت حَدّاً يُمكِنُ معه **حِسابُ مَوعِدِ كُسوفٍ بعدَ ألفِ سنةٍ بدِقّةِ الثّانية**. وعلى هذا الضَّبطِ بُنِيَت المَلاحةُ الفَضائيّةُ كلُّها: مَركَبةٌ تُطلَقُ اليومَ لتَلتَقيَ كَوكَباً بعدَ سَبعِ سِنينَ في نُقطةٍ مَحسوبةٍ سَلَفاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّعبيرُ «**يَنبَغي**» هو مَوضِعُ الدِّقّة. فهو لا يَنفي الوُقوعَ فقط، بل يَنفي **الإمكان** – أي أنّ النِّظامَ نفسَه لا يَسمَحُ بذلك، لا أنّه لم يَحدُث اتِّفاقاً. وهذا هو مَعنى **القانونِ الفيزيائيِّ** بعَينِه. ثمّ لاحِظ التَّفصيل: نَفى أن تُدرِكَ الشَّمسُ القَمَر – وهما في مَدارَينِ مُختَلِفَين؛ ونَفى أن يَسبِقَ اللَّيلُ النَّهار – وهما تابِعانِ لدَورانِ الأرض. ظاهِرَتانِ مُختَلِفَتانِ في السَّبَب، جُمِعَتا تحت قاعِدةٍ واحدة: «**وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحون**» – أي أنّ العِلّةَ في الحالَتَينِ واحدة: انضِباطُ كلِّ جِرمٍ بمَدارِه.

٥٩

ما تَرى في خَلقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُت

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ

سورة المُلك – الآية ٣

قُوّةُ الجاذِبيّة: لو زادَت قَليلاً لانسَحَقَ الكَون

القُوّةُ النَّوَويّة: لو نَقَصَت لَما تَكَوَّنَ عُنصُرٌ واحد

كَثافةُ الكَونِ الأُولى: ضَبطٌ يَفوقُ التَّصَوُّر

ثابِتُ الطّاقةِ المُظلِمة: أدَقُّ رَقمٍ في الفيزياء

«فارجِعِ البَصَرَ هل تَرى من فُطور؟»

ثَوابِتُ الكَونِ مَضبوطةٌ على حَدٍّ لا يَحتَمِلُ أدنى انحِراف

بكلامٍ بسيط

الآيةُ تَتَحَدّاك أن تَنظُرَ في الكَونِ فتَجِدَ فيه **خَلَلاً أو شَقّاً أو نَقصاً**. ثمّ تُكَرِّرُ: انظُر مَرّةً ثانية. والعِلمُ اليومَ يَقولُ إنّ ثَوابِتَ الكَونِ مَضبوطةٌ بدِقّةٍ لا يُصَدِّقُها العَقل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان الكَونُ يُنظَرُ إليه نَظرةً جَماليّةً عامّة. ولم تَكُن هناك فِكرةٌ عن «ثَوابِتَ فيزيائيّة» أصلاً، ولا عن أنّ الكَونَ يَقومُ على أرقامٍ لو تَغَيَّرَ أحَدُها قَليلاً لانهارَ كلُّ شَيء.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الفيزياءُ الحَديثةُ تُسَمّي هذا **«الضَّبطَ الدَّقيق»** (Fine-Tuning). فلو اختَلَفَت قُوّةُ الجاذِبيّةِ بِنسبةٍ ضَئيلةٍ جِدّاً لما تَكَوَّنَت النُّجومُ أو انسَحَقَ الكَونُ فَوراً؛ ولو اختَلَفَت القُوّةُ النَّوَويّةُ الشَّديدةُ بِنسبةٍ صَغيرةٍ لَما وُجِدَ الكَربونُ ولا الأُكسِجين؛ وثابِتُ الطّاقةِ المُظلِمةِ يُوصَفُ بأنّه **أَدَقُّ رَقمٍ في الفيزياءِ كلِّها**. وقد أقَرَّ بهذا كِبارُ الفيزيائيّين – مِثلُ فريد هويل الذي قال إنّ ما رآه يَبدو كأنّ «عَقلاً فائقاً عَبِثَ بالفيزياء».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الأمرُ في الآيةِ ليس تَقريراً فحَسب، بل **دَعوةٌ صَريحةٌ إلى الفَحصِ والتِّكرار**: «فارجِعِ البَصَر» ثمّ «ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَين». أي أنّها تُراهِنُ على أنّ التَّدقيقَ **يَزيدُها تَأكيداً لا يَنقُضُها**. وهذا هو ما وَقَعَ حَرفيّاً: كلَّما ازدادَت أدَواتُ الرَّصدِ دِقّةً، ازدادَ الضَّبطُ ظُهوراً. ولَفظةُ «**فُطور**» تَعني الشُّقوقَ والتَّصَدُّعات، و«**تَفاوُت**» تَعني الاضطِرابَ وعَدَمَ التَّناسُب. فالآيةُ تَنفي عن الكَونِ صِفَتَين: الخَلَلَ في النِّسَبِ والشَّقَّ في البِناء – وهما بالضّبطِ ما يَبحَثُ عنه الفيزيائيُّ حين يَختَبِرُ نَموذَجاً كَونيّاً.

٦٠

قَسَمٌ بمَواقِعِ النُّجوم... لا بالنُّجوم

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

سورة الواقعة – الآيتان ٧٥-٧٦

ضَوءُ النّجمِ يسافرُ سنينَ طويلة، فالذي تراه هو مَوقِعُه القديمُ لا مكانُه الآن

بكلامٍ بسيط

حين تنظرُ إلى نجمٍ في اللّيل، أنت لا ترى النّجم! أنت ترى **ضوءاً خرجَ منه قبل سنين**، وربّما آلافِ السّنين. وقد يكونُ النّجمُ نفسُه انطفأ وانتهى، وأنت ما زلتَ تراه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَخطُر لأحدٍ أنّ للضّوءِ سُرعةً أصلاً. كان الضّوءُ يَظهرُ فَوريّاً بلا زمن. والنّجمُ هو ما تراه، في المكانِ الذي تراه فيه، وانتهى الأمر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سُرعةُ الضّوءِ نحو ٣٠٠ ألفِ كيلومترٍ في الثّانية – سريعةٌ نعم، لكنّها **محدودة**. وأقربُ نجمٍ إلينا بعد الشّمسِ يبعُدُ ٤٫٢ سنةٍ ضوئيّة، وبعضُ ما نراه بالعينِ المجرّدةِ يبعُدُ آلافَ السّنينِ الضّوئيّة. فالسّماءُ التي تراها اللّيلةَ هي **ألبومُ صورٍ قديمة**، كلُّ نجمٍ فيها من زمنٍ مختلف. وقد رُصِدَت بالفعلِ نجومٌ انفجرت منذ قرون وما زال ضوءُها يصلُنا.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القَسَمُ لم يقع بالنّجومِ نفسِها، بل **بمواقِعِها** – وهو تخصيصٌ لا داعيَ له إلّا إن كان بين النّجمِ وموقِعِه فَرقٌ حقيقيّ. ثمّ جاءت الآيةُ التّالية تُصرِّحُ: «وإنّه لَقَسَمٌ **لو تعلمون** عظيم» – أي أنّ عَظَمةَ هذا القَسَمِ مَرهونةٌ بعِلمٍ لم يكن عند السّامعين. نصٌّ يقولُ صراحةً: هنا سِرٌّ ستعرِفونه لاحقاً. وقد عُرِف.

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم

سورة الأنعام – الآية ٣٨

الحَيَواناتُ ليست أفراداً مُتَفَرِّقة، بل مُجتَمَعاتٌ مُنَظَّمة

بكلامٍ بسيط

القرآنُ سَمّى الحَيَواناتِ **«أُمَماً»** – والأُمّةُ جَماعةٌ لها نِظامٌ ولُغةٌ وتَقاليد. وقال إنّها «أمثالُكم». والعِلمُ اليومَ يُثبِتُ أنّ للحَيَواناتِ مُجتَمَعاتٍ بالغةَ التَّنظيم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحَيَوانُ في التَّصوُّرِ القديمِ كائنٌ غَريزيٌّ بَحت، بلا تَنظيمٍ ولا تَواصُلٍ ولا تَعلُّم. والفَجوةُ بينه وبين الإنسانِ مُطلَقة. أمّا وَصفُه بأنّه «أُمّة» – وهي كلمةٌ تُستَعمَلُ للشُّعوبِ ذاتِ الشَّرائعِ والأنظِمة – فكان غَريباً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عِلمُ سُلوكِ الحَيَوانِ أثبَتَ وُجودَ مُجتَمَعاتٍ حَقيقيّة: تَقسيمُ عَمَلٍ صارِمٌ عند النَّملِ والنَّحل، ولُغاتُ تَواصُلٍ مُعَقَّدةٌ عند الحيتانِ والدَّلافين لها **لَهَجاتٌ إقليميّة**، وثَقافاتٌ مَنقولةٌ بالتَّعلُّمِ عند الشِّمبانزي، وتَنظيمُ هِجرةٍ وتَناوُبُ قِيادةٍ عند الطُّيور، وحتّى نُظُمُ «زِراعة» عند نَملِ قاطِعِ الأوراق الذي يُربّي الفُطرَ في مَزارِعَ تحت الأرض.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الإعجازُ في كلمتَين. «**أُمَم**»: وهي في العربيّةِ الجَماعةُ المُنَظَّمةُ ذاتُ الشَّأنِ المُشتَرَك، لا مُجَرَّدُ قَطيع. و«**أمثالُكم**»: أي مِثلُكم في كَونِها مُجتَمَعاتٍ لها نُظُمُها، لا مِثلُكم في العَقلِ والتَّكليف. وقد كان العِلمُ الرَّسميُّ إلى وَقتٍ قَريبٍ يَرفُضُ أن يُنسَبَ للحَيَوانِ ثَقافةٌ أو لُغة، ويَعُدُّ ذلك «أنسَنةً» غيرَ عِلميّة – ثمّ تَراجَعَ عن ذلك أمامَ الأدِلّة. أمّا عِبارةُ «يَطيرُ **بِجَناحَيه**» فتَخصيصٌ لافِت، إذ تَستَثني ما يَطيرُ بغيرِ جَناحَين.

٢٢ أوهَنُ البُيوتِ... وأُنثى العَنكَبوت

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ

سورة العَنكَبوت – الآية ٤١

بَيتُ العَنكَبوت

- أُنثى تَبنيه وَحدَها
- الذَّكَرُ لا يَبني
- تَأكُلُ الذَّكَرَ أحياناً
- تَأكُلُ صِغارَها
- بَيتٌ بلا أمانٍ أصلاً

خَيطُه أقوى من الفُولاذ... وبَيتُه أوهَنُ البُيوت

الوَهْنُ ليس في الخَيط، بل في العَلاقاتِ داخِلَ هذا «البَيت»

بكلامٍ بسيط

بيتُ العَنكَبوتِ تَبنيه **الأُنثى** وَحدَها، ولا نَصيبَ للذَّكَرِ فيه. وهو أوهَنُ بيتٍ ليس لأنّ خَيطَه ضعيف – بل لأنّه **بيتٌ بلا رَحمةٍ ولا أمان**: الأُنثى قد تَأكُلُ زَوجَها وصِغارَها.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

العَنكَبوتُ حَشَرةٌ مَألوفةٌ في كلِّ بيت، وبَيتُها مِثالٌ ظاهِرٌ للضَّعف. لكنّ التَّفريقَ بين الذَّكَرِ والأُنثى في مَن يَبني، وما يَجري داخِلَ الشَّبَكةِ من افتِراس، لم يكن معروفاً – فهذه تَفاصيلُ لا تُرى إلّا بالرَّصدِ العِلميِّ الدَّقيق.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

بُيوتُ العَنكَبوتِ **تَبنيها الإناثُ حَصراً**: ذَكَرُ العَنكَبوتِ لا يَغزِلُ شَبَكةَ صَيدٍ أصلاً في مُعظَمِ الأنواع، وإنّما يَتَجَوَّلُ بَحثاً عن أُنثى. وفي عَشَراتِ الأنواعِ تَقتُلُ الأُنثى الذَّكَرَ بعد التَّزاوُجِ وتَأكُلُه، وفي أنواعٍ أُخرى يَأكُلُ الصِّغارُ أُمَّهم أو تَأكُلُهم. أمّا الخَيطُ نفسُه فهو من أقوى المَوادِّ المَعروفة: أقوى من الفُولاذِ بوَزنِه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لو كان الوَهْنُ في مَتانةِ الخَيطِ لكان النَّصُّ مَنقوضاً بالعِلم، إذ ثَبَتَ أنّ خَيطَ العَنكَبوتِ من أمتَنِ ما في الطَّبيعة. لكنّ الآيةَ تَتَحدَّثُ عن **البَيت** لا عن الخَيط، والبَيتُ في العربيّةِ هو الأهلُ والسَّكَنُ والأمان. والسِّياقُ كلُّه عن **عَلاقةٍ فاسِدةٍ لا تَنفَعُ صاحِبَها**. فالوَصفُ دَقيقٌ اجتِماعيّاً لا مادّيّاً. ويُؤكِّدُه أنّ الفِعلَ جاء مُؤنَّثاً: «**اتَّخَذَت** بَيتاً» – وهي التي تَتَّخِذُه فِعلاً دون الذَّكَر.

٦٣

جَناحٌ فيهِ داءٌ وجَناحٌ فيهِ دَواء

إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالْأُخْرَى شِفَاءً

رواه البُخاريّ – صحيح

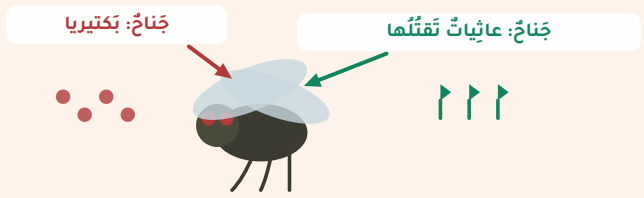

العاثِيات (Bacteriophages): فَيروساتٌ لا تَقتُلُ إلّا البَكتيريا

اكتُشِفَت سنة ١٩١٥ – وتُستَعمَلُ اليومَ عِلاجاً

العاثِياتُ أكثَرُ الكائناتِ عَدَداً على الأرض، ومَهَمَّتُها الوَحيدةُ قَتلُ البَكتيريا

بكلامٍ بسيط

الذُّبابُ يَحمِلُ جَراثيمَ – هذا مَعروف. لكنّ الحَديثَ يقولُ شيئاً آخَر: معه أيضاً **ما يَقتُلُ تِلكَ الجَراثيم**. والعِلمُ اكتَشَفَ فِعلاً كائناتٍ دَقيقةً مَهَمَّتُها الوَحيدةُ افتِراسُ البَكتيريا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن البَكتيريا مَعروفةً أصلاً – لم تُرَ إلّا سنة ١٦٧٦ بِمِجهَرٍ ليفنهوك. فالحَديثُ عن «داء» يَحمِلُه الذُّبابُ سابِقٌ لنَظَريّةِ الجَراثيمِ بألفِ عام. وأمّا وُجودُ **شِفاءٍ** معه فلم يَكُن له أيُّ إطارٍ يُفهَمُ فيه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

العاثِياتُ البَكتيريّة (Bacteriophages): فَيروساتٌ دَقيقةٌ لا تُصيبُ إلّا البَكتيريا فتَقتُلُها، اكتُشِفَها تُورت سنة ١٩١٥ وديريل سنة ١٩١٧. وهي **أكثَرُ الكائناتِ عَدَداً على وَجهِ الأرض**، وتَتَرَكَّزُ حيثُ تَكثُرُ البَكتيريا – أي على الذُّبابِ ومَواطِنِه. وقد وُجِدَت على الذُّبابِ المَنزِليِّ بالفِعل. والعِلاجُ بالعاثِياتِ تَخَصُّصٌ طِبّيٌّ قائمٌ اليوم، يُستَعمَلُ في الحالاتِ التي تَفشَلُ فيها المُضادّاتُ الحَيَويّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الحَديثُ لم يَكتَفِ بذِكرِ الدَّواء، بل أعطى **إجراءً عَمَليّاً**: الغَمسُ الكامِل. وهذا هو مَوضِعُ الدَّلالة – إذ لا مَعنى للغَمسِ إلّا إن كان المُضادُّ يَحتاجُ إلى أن يُطلَقَ في السّائلِ ليَعمَل. ثمّ التَّفريقُ بين **جَناحَين**: أحدُهما يَحمِلُ الضَّررَ والآخَرُ العِلاج. وهو تَقسيمٌ لا يَخطُرُ لمن يَختَرِعُ كَلاماً؛ المُتَوَقَّعُ أن يُقالَ «في الذُّبابِ داءٌ ودَواء». أمّا نِسبةُ كلٍّ منهما إلى جَناحٍ بعَينِه فتَحديدٌ يَقبَلُ الاختِبار – وقد جاء العِلمُ يُصَدِّقُه.

٦٤

الأرضُ ذاتُ الصَّدع

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ

سورة الطّارق – الآيتان ١١-١٢

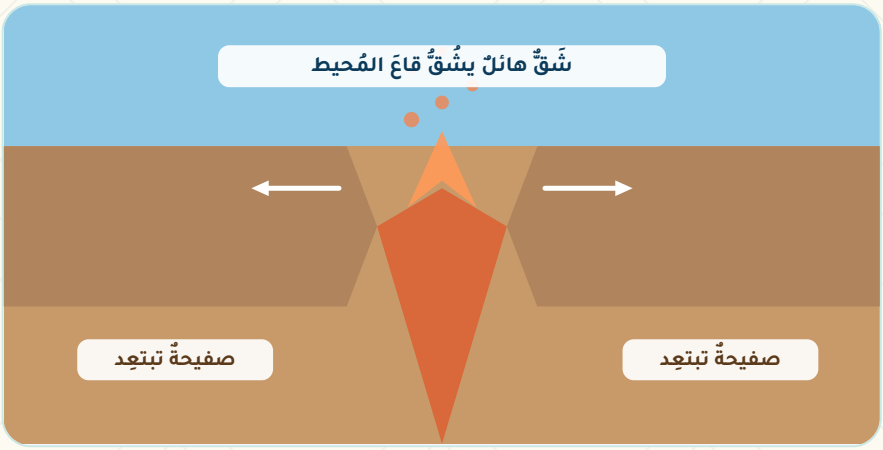

سِلسلةُ شُقوقٍ تلُفُّ الأرضَ كلَّها تحت المُحيطات، طولُها ٦٥ ألفَ كم

بكلامٍ بسيط

الأرضُ ليست كُرةً مُصمَتةً مُتّصِلة. قِشرتُها **مَشقوقة** – فيها شُقوقٌ هائلةٌ تلُفُّ الكوكبَ كلَّه، تخرجُ منها الصُّخورُ المُنصَهِرةُ من الأعماق.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الأرضُ كانت تُتصوَّرُ جِسماً واحداً مُصمَتاً مُتماسِكاً. وأمّا وصفُ الأرضِ كلِّها بأنّها «ذاتُ صَدع» – أي مَشقوقة – فلا معنى له في تجربةِ أحدٍ آنذاك؛ فالشُّقوقُ المرئيّةُ لا تعدو تشقُّقاتِ الأرضِ الجافّةِ أو مَجاري الأودية.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

يُسمَّى هذا **«حِيدُ وَسَطِ المُحيط»** (Mid-Ocean Ridge): سِلسلةُ شُقوقٍ بُركانيّةٍ يبلغُ طولُها نحوَ ٦٥ ألفَ كيلومتر، تلتفُّ حول الكوكبِ كلِّه كخِياطةٍ في كُرةِ تِنس. منها تخرجُ المادّةُ المُنصهِرةُ فتُكوِّنُ قِشرةً جديدة. لم يُكتشَف إلّا في خمسينيّاتِ القرنِ العشرين بأجهزةِ السّونار.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القَسَمُ هنا يَصِفُ الأرضَ بصِفةٍ **كُلّيّةٍ مُلازِمة**: «الأرضِ ذاتِ الصَّدع» – كما يُقالُ «ذاتُ الشَّجر» لما الشّجرُ من طبيعتِها. فهو لا يتحدّثُ عن شَقٍّ عارِض، بل يجعلُ الصَّدعَ صِفةً للكوكبِ نفسِه. وهذه هي الحقيقةُ الجيولوجيّةُ بعينِها: الأرضُ كوكبٌ **مُتصدِّعُ القِشرةِ بطبيعتِه**، وذلك هو أصلُ الزّلازلِ والبراكينِ وحركةِ القارّات.

٦٥ البَحرُ المسجُور... ناراً تحتَ الماء

وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ ... ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ

سورة الطّور – الآيات ١-٦

أكثرُ من ٨٠% من نشاطِ بَراكينِ الأرضِ يقعُ تحتَ سطحِ البِحار

بكلامٍ بسيط

تحت البحرِ نارٌ مُشتعِلة! في قاعِ المُحيطاتِ بَراكينُ وفُوَّهاتٌ تُطلِقُ ماءً حرارتُه أربعُ مئةِ درجة. فالبحرُ **مَسجور** – أي مُوقَدٌ مُشتعِلٌ من أسفلِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الماءُ والنّارُ ضِدّانِ لا يجتمعان – هذه بديهةٌ عند كلِّ إنسان. والبحرُ رمزُ البُرودةِ والإطفاء. فوصفُ البحرِ بأنّه «مَسجور» بدا للسّامعين تعبيراً غامِضاً لا مُقابِلَ له في الواقع.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

تحتَ المُحيطاتِ سِلسلةٌ بُركانيّةٌ هائلة، وأكثرُ من ٨٠٪ من الانبعاثِ البُركانيِّ على الأرض يحدثُ تحتَ الماء. واكتُشِفت سنة ١٩٧٧ **الفُوَّهاتُ الحَرارِيّةُ المائيّة** التي تقذِفُ ماءً تتجاوزُ حرارتُه ٤٠٠ درجة، ولا يَغلي لشِدّةِ الضّغط. وحول هذه النّيرانِ حياةٌ كاملةٌ لا تعتمدُ على ضوءِ الشّمسِ أصلاً.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

«سَجَرَ» في العربيّةِ تعني **أوقَدَ التَّنُّورَ وملأه ناراً** – ومنه «وإذا البِحارُ سُجِّرَت». فالوصفُ صريحٌ في الإيقاد، لا في الامتلاءِ ولا في الجَريان. وقَسَمُ اللهِ بالبحرِ المَسجورِ جاء بين قَسَمٍ بجبلِ الطُّورِ وقَسَمٍ بالبيتِ المَعمور – أي بين أشياءَ حقيقيّةٍ مَوجودة. فهو يُقسِمُ بواقعٍ قائم، كشفَه الإنسانُ بعد ١٣٥٠ سنة.

٢٦

إنّا كفيناك المستهزئين

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

سورة الحِجر – الآيتان ٩٥-٩٦

زُعَماءُ السُّخريّةِ في مكّةَ ماتوا واحِداً بعدَ واحِدٍ في وَقتٍ قَريب

بكلامٍ بسيط

كان في مكّةَ رِجالٌ مَشهورونَ يَتَزَعَّمونَ السُّخريّةَ بالنَّبيِّ ﷺ ويُؤذونَه. فنَزَلَت آيةٌ تقول: **نحن نَكفيكَ إيّاهم**. ولم تَمضِ مُدّةٌ حتّى هَلَكوا كلُّهم، كلٌّ بسَبَبٍ مُختَلِف.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان هؤلاء من ساداتِ قُرَيشٍ وأصحابِ الجاهِ والمال، وفي أوجِ قُوَّتِهم ونُفوذِهم. والنَّبيُّ ﷺ ومَن معه في أضعَفِ حال: مُحاصَرونَ مُضطَهَدون، لا جَيشَ لهم ولا مَنَعة. ولم تَكُن هناك أيُّ وَسيلةٍ بَشَريّةٍ لدَفعِ أذاهم فَضلاً عن إهلاكِهم.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

تَذكُرُ كُتُبُ السِّيرةِ والتّاريخ – وأقدَمُها سيرةُ ابنِ إسحاقَ بروايةِ ابنِ هِشام – أنّ زُعَماءَ الاستِهزاءِ خَمسة، وأنّهم هَلَكوا جَميعاً في مُدّةٍ مُتَقارِبةٍ قبلَ الهِجرةِ أو حَولَها، بأسبابٍ مُتَنَوِّعةٍ لا يَجمَعُها جامِع: مَرَضٌ ووَباءٌ وحادِثةٌ وشَوكةٌ أصابَت وجُرحٌ تَعَفَّن. ولم يَبقَ منهم أحدٌ يُناوِئُ الدَّعوةَ بعدَ ذلك.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النَّصُّ يَتَضَمَّنُ **ضَماناً**، لا مُجَرَّدَ دُعاءٍ ولا رَجاء. والضَّمانُ التِزامٌ يُمكِنُ أن يُخلَفَ فيَنكَشِفَ صاحِبُه أمامَ خُصومِه مُباشَرة. ولو بَقِيَ واحِدٌ منهم يُؤذي ويَسخَرُ سِنينَ لكانت الآيةُ حُجّةً عليهم لا لهم. والأهَمّ: هذا وَعدٌ **مُوَجَّهٌ ضِدَّ أقوى أهلِ البَلَدِ لصالِحِ أضعَفِهم** – وهو نَمَطٌ يَتَكَرَّرُ في القرآنِ كلِّه: «سَيُهزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُر» نَزَلَت في مكّةَ قبلَ بَدرٍ بسِنين، وقالها النَّبيُّ ﷺ يومَ بَدرٍ فوَقَعَت.

٦٧

السّماءُ تُطوَى كما يُطوَى الوَرَق

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ

سورة الأنبياء – الآية ١٠٤

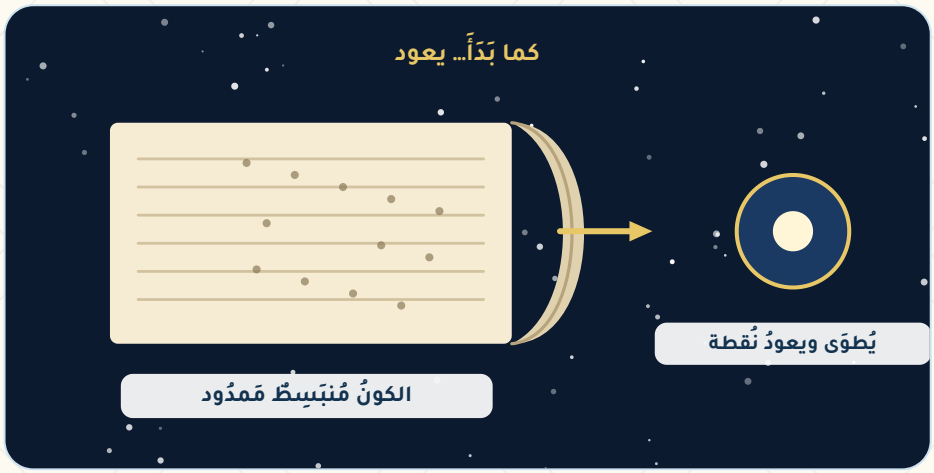

الكونُ انبسطَ من نُقطة... وسيَنطوي عائداً إلى نُقطة

بكلامٍ بسيط

الآيةُ تقول إنّ نهايةَ الكونِ ستكون **طَيّاً** – أي انكِماشاً ولَفّاً، كما تُلَفُّ ورقةٌ. ثمّ تقول جملةً عجيبة: هذه النّهايةُ ستكون **مثلَ البداية** تماماً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يكن في الأُفُقِ سؤالٌ اسمُه «كيف ينتهي الكون؟»، لأنّ الكونَ كان في ظنِّ النّاسِ أزليّاً أبديّاً لا بدايةَ له ولا نهاية. والرّبطُ بين شكلِ النّهايةِ وشكلِ البدايةِ لم يكن له أيُّ إطارٍ يُفهَمُ فيه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

من أشهرِ سيناريوهاتِ نهايةِ الكونِ في الفيزياءِ النّظريّةِ سيناريو **«الانسحاقِ الكبير»** (Big Crunch): تَغلِبُ الجاذبيّةُ على التّمدُّدِ فينكمشُ الكونُ عائداً على نفسِه حتّى يعودَ إلى حالتِه الأولى – نُقطةٍ فائقةِ الكثافة. أي أنّ **النّهايةَ صورةٌ مُعاكِسةٌ للبداية**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الإعجازُ هنا في نِصفِ الآيةِ الثّاني: «كما بَدَأْنا أوّلَ خَلْقٍ نُعيدُه». هذه الجملةُ تُقرِّرُ قاعدةً: **شكلُ النّهايةِ = شكلُ البداية**. وهي بذلك تُخبِرُنا ضِمناً أنّ الكونَ كان في بدايتِه **مَطويّاً** – أي مُنكمِشاً في نقطة – وهو عينُ ما يقولُه نموذجُ الانفجارِ العظيم. آيةٌ واحدةٌ أعطت البدايةَ والنّهايةَ معاً، في زمنٍ لم يكن فيه للكونِ بدايةٌ ولا نهايةٌ في عقلِ أحد.

٦٨

النجمُ الذي يطرُقُ ويثقُب

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ

سورة الطّارق – الآيات ١-٣

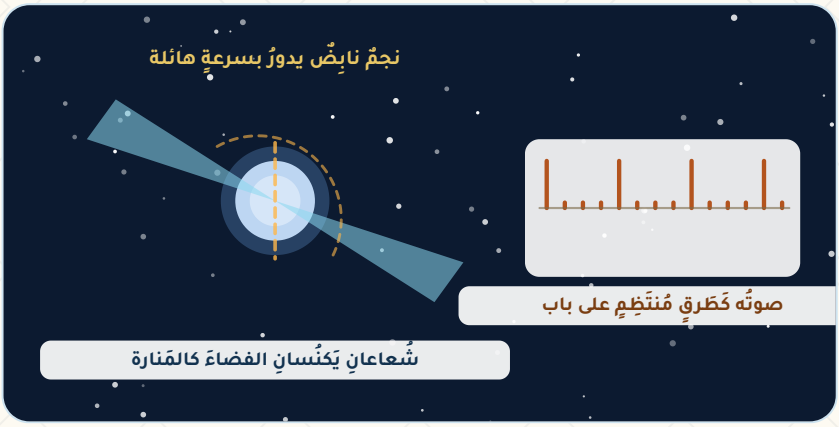

النّجمُ النّابِض: يُرسِلُ نبضاتٍ منتظِمةً كطَرقاتِ مِطرقةٍ لا تُخطئ

بكلامٍ بسيط

بعضُ النّجومِ تُرسِلُ إشاراتٍ **كطَرَقاتٍ منتظِمةٍ على الباب**: طَق... طَق... طَق... بدِقّةٍ أعلى من أدقِّ ساعةٍ صنعَها الإنسان. والقرآنُ سمّاها «الطّارِق» – أي الذي يَطرُق.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

النّجمُ عند النّاسِ نقطةُ ضوءٍ صامتةٍ ساكنة. لا صوتَ لها ولا نَبْض ولا اختراق. وربطُ كلمةِ «الطَّرْق» – وهي الضّربُ المُصوِّتُ المتكرّر – بنجمٍ في السّماء، كان كلاماً لا معنى له عند أيِّ سامعٍ في ذلك الزّمان.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ١٩٦٧ رصدت الفَلكيّةُ جوسلين بِل إشاراتٍ راديويّةً متكرّرةً بانتظامٍ مُذهِلٍ من الفضاء، حتّى ظنّها الفريقُ أوّلَ الأمرِ رسائلَ من كائناتٍ ذكيّةٍ وأطلقوا عليها اسم LGM-1. ثمّ تبيّن أنّها **نجومٌ نيوترونيّةٌ نابِضة** (Pulsars): بقايا نجومٍ انفجرت، تدورُ عشراتِ بل مئاتِ المرّاتِ في الثّانية، وتُطلِقُ شُعاعَين يَمسحانِ الفضاءَ كالمَنارة. وحين حُوِّلت إشاراتُها إلى صوتٍ كانت **طَرْقاً منتظِماً** تماماً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الكلمتان معاً لا تَتْرُكان مَجالاً: «الطّارِق» = المُصدِرُ لصوتِ طَرْقٍ متكرّر، و«الثّاقِب» = النّافِذُ المُخترِق. والنّجمُ النّابِضُ يجمعُ الوصفَين حرفيّاً: إشاراتُه طَرْقٌ منتظِم، وهي تَخترقُ آلافَ السّنينِ الضّوئيّةِ وتَنفُذُ إلينا عبر غُبارِ المجرّة. بل إنّ القَسَمَ نفسَه («والسّماءِ والطّارِق») تَبِعَه سؤالٌ استنكاريّ: «وما أدراكَ ما الطّارق؟» – أي أنّ هذا شيءٌ **لا سبيلَ لك إلى معرفتِه**. وهكذا كان، حتّى ١٩٦٧.

٦٩ السّماءُ ذاتُ الحُبُك

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ

سورة الذّاريات – الآية ٧

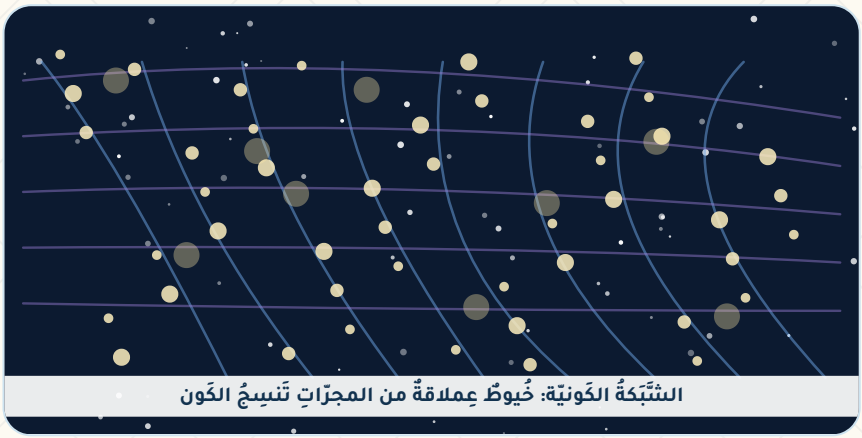

الشَّبَكةُ الكَونيّة: خُيوطٌ عِملاقةٌ من المجرّاتِ تَنسِجُ الكَون

خريطةُ الكونِ الكبرى: ليست مجرّاتٍ مُبعثَرة، بل نَسيجٌ مَحبوكٌ من خُيوطٍ وعُقَد

بكلامٍ بسيط

لو نظرتَ إلى الكونِ كلِّه من بعيدٍ جدّاً، لن ترى نجوماً مُبَعثَرة. سترى شيئاً يُشبِهُ **نسيجَ قُماشٍ أو شَبَكةَ صَيد**: خيوطٌ طويلةٌ من المجرّات، وبينها فراغاتٌ ضخمةٌ سوداء. وكلمةُ «الحُبُك» في العربيّة تعني: **النَّسْجَ المُحكَمَ ذا الطُّرُق**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

السّماءُ عند النّاسِ قُبّةٌ مُلساءُ رُصِّعَت بنُقطِ نور، بلا بِنيةٍ ولا شكلٍ ولا تَرتيب. فكرةُ أن يكونَ للكونِ «شَكلٌ كُلّيٌّ» أصلاً لم تكن مطروحة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في العقودِ الأخيرةِ أنجزت المَراصدُ خرائطَ ثُلاثيّةَ الأبعادِ لملايينِ المجرّات (مشروعُ SDSS ومَسحُ 2dF)، فظهرت النّتيجةُ المُدهِشة: المجرّاتُ ليست موزّعةً عشوائيّاً، بل مُرتَّبةٌ في **«الشَّبَكةِ الكونيّة» (Cosmic Web)** – خيوطٌ وجُدُرٌ عملاقةٌ من المجرّات تُحيطُ بفراغاتٍ هائلةٍ خاوية. والصُّورةُ النّاتجةُ تُشبِهُ نسيجاً مَحبوكاً إلى حدِّ الذُّهول.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

«الحُبُك» جمعُ «حِبَاك»، ومعناها في المعاجمِ العربيّة: الطّرائقُ المُتداخِلةُ في الشّيءِ المَنسوجِ نَسجاً مُحكَماً، كأثَرِ تَموُّجِ الماءِ أو تَجعُّدِ الرَّمل. وهذا هو بالضّبطِ المُصطلَحُ العلميُّ المُستَخدَمُ اليومَ: «Filaments» أي **الخُيوط**. اتّفاقُ اللّفظِ العربيِّ مع المُصطلَحِ العلميِّ الحديثِ في معنًى واحدٍ نادرٍ كهذا، بعد أربعةَ عشرَ قرناً، ليس ممّا يقعُ اتّفاقاً.

٧٠ الخُنَّسُ الجَوارِ الكُنَّس

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ

سورة التّكوير – الآيتان ١٥-١٦

الثّقبُ الأسود يَبتلِعُ الغازَ والنّجومَ من حَولِه كمِكنَسةٍ كَونيّة

بكلامٍ بسيط

هناك أجرامٌ في الفضاءِ ثلاثُ صفاتٍ فيها: **تَختَفي** فلا تُرى، و**تَجري** بسرعةٍ هائلة، و**تَكنُسُ** ما حولَها فتبتلِعُه. هذه الصّفاتُ الثّلاثُ هي بالضّبطِ ما يُقسِمُ اللّهُ به هنا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يكن في الدُّنيا كلِّها تصوُّرٌ لجِرمٍ سماويٍّ **غيرِ مرئيّ**. فالجِرمُ إمّا أن يُرى فيكون، وإمّا ألّا يُرى فلا يكون. أمّا أن يُوجَدَ شيءٌ ضخمٌ جدّاً في السّماءِ لا تراه عينٌ أبداً، ويَبتلِعُ ما حولَه – فهذا لم يَتخيّله أحد.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الثّقوبُ السّوداء: أجرامٌ كثافتُها هائلةٌ إلى حدٍّ لا يُفلِتُ منها حتّى الضّوء، فهي **خَفِيّةٌ تماماً** بطبيعتِها. وهي تَدورُ وتَجري في مجرّاتِها، وتَجذِبُ الغازَ والغُبارَ والنّجومَ فتَبتلِعُها. وقد صُوِّرَ أوّلُ ثُقبٍ أسودَ مباشرةً سنة ٢٠١٩ (في مجرّة M87)، ونالَ العملُ على إثباتِها جائزةَ نوبل سنة ٢٠٢٠.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الألفاظُ الثّلاثةُ دقيقةٌ إلى حدٍّ مُذهِل: «الخُنَّس» من خَنَسَ أي **اختفى وانقبض**؛ «الجَوارِ» أي **الجارية المُتحرِّكة**؛ «الكُنَّس» من كَنَسَ أي **جَمَعَ ما حولَه وابتلَعَه** (ومنه المِكنَسة، ومنه الكِناسُ وهو الجُحرُ الذي يَختفي فيه الظّبي). ثلاثُ صفاتٍ في آيتَين، تنطبقُ كلُّها على شيءٍ واحدٍ لم يُعرَف إلّا في القرنِ العشرين. ولاحِظ أنّ القَسَمَ في القرآنِ لا يكونُ إلّا بعظيم.

VI

الأرضُ تُخرِجُ أثقالَها

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

سورة الزّلزلة – الآيتان ١-٢

الزّلازلُ وحركةُ الصّفائحِ هي التي رَفَعَت المَعادِنَ والنِّفطَ إلى مُتَناوَلِنا

بكلامٍ بسيط

كلُّ الذّهبِ والمَعادنِ والنِّفطِ الذي نَستخرِجُه اليومَ كان مَدفوناً في أعماقِ الأرض. والذي رَفَعَه إلى قُربِ السَّطحِ هو **الزَّلازِلُ وحركةُ الأرضِ** عبر ملايينِ السّنين.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الزّلزالُ كان كارِثةً مَحضة: هَدمٌ وخَسفٌ وموت. ولم يَربِطه أحدٌ بفائدةٍ ولا بإخراجِ خَير. وكلمةُ «أثقالِها» بمعنى كُنوزِ باطِنِها لم يكن لها مَدلولٌ واضحٌ عند السّامِعين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

أغلبُ المَناجِمِ الاقتصاديّةِ في العالمِ تقعُ عند **حُدودِ الصَّفائحِ التّكتونيّة** ومَناطِقِ النّشاطِ الزِّلزاليِّ والبُركانيّ. فحَرَكةُ الصّفائحِ هي التي تَدفعُ الصُّخورَ الغَنيّةَ بالمَعادِنِ من الأعماقِ إلى القِشرة، والسَّوائلَ الحارّةَ هي التي تُركِّزُ الذّهبَ والنُّحاسَ في عُروق. ولولا هذا النّشاطُ لبَقِيَت كنوزُ الأرضِ كلُّها بعيدةً عن مُتَناوَلِنا إلى الأبد.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ تَربِطُ بين حَدَثَينِ لا يَربِطُ بينهما العقلُ العاديّ: الزَّلزَلةُ ← إخراجُ الأثقال. وهذا هو عينُ ما يُقرِّرُه علمُ التَّعدين. وكلمةُ «أثقال» دقيقةٌ بشكلٍ لافِت: فالمَعادِنُ النّفيسةُ – الذَّهَبُ والبلاتينُ واليورانيوم – هي **أثقلُ العناصرِ كَثافةً**، وهي بطبيعتِها تَغوصُ نحوَ مركزِ الأرض، فلا تَصعَدُ إلّا بقوّةٍ تَدفَعُها. فسُمِّيَت باسمِ صِفَتِها الفيزيائيّةِ الفاصِلة.

بَعوضةً فما فَوقَها

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا

سورة البقرة – الآية ٢٦

«فما فَوقَها» = فما هو أصغَرُ منها

البَعوضةُ عِملاقٌ إذا قِيسَت بالبَكتيريا والفَيروسات

بكلامٍ بسيط

القرآنُ ضَرَبَ المَثَلَ بأصغَرِ شيءٍ يَراه النّاس – البَعوضة – ثمّ قال: **«فما فَوقَها»**. وفي العربيّةِ «فَوق» تأتي بمعنى **الزِّيادةِ في الصِّغَرِ** أيضاً، أي: وما هو أصغَرُ منها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

البَعوضةُ كانت حَدَّ الصِّغَرِ المُمكِن: أصغَرُ كائنٍ يُمكِنُ للعَينِ أن تَراه وتُمَيِّزَ أعضاءَه. ولم يَكُن يُتَصَوَّرُ وُجودُ حَياةٍ أصغَرَ من ذلك، لأنّ ما لا يُرى لا يُعلَمُ وُجودُه. وظلّ الأمرُ كذلك حتّى اختِراعِ المِجهَر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

البَعوضةُ كائنٌ ضَخمٌ نِسبيّاً: طولُها نحوُ ٦ مِلّيمتر. وفي جِسمِها وحدَه تَعيشُ **مَلايينُ البَكتيريا**، وعليها فَيروساتٌ أصغَرُ من البَكتيريا بمِئاتِ المَرّات. وقد تَبَيَّنَ أنّ لبَعوضةٍ واحدةٍ تَركيباً بالِغَ التَّعقيد: عَينٌ مُرَكَّبةٌ من مِئاتِ العَدَسات، وخُرطومٌ فيه سِتّةُ أدَواتٍ مُنفَصِلة للثَّقبِ والشَّفطِ وحَقنِ مادّةٍ مانِعةٍ للتَّجَلُّط، وأجنِحةٌ تَخفِقُ ٦٠٠ مَرّةٍ في الثّانية.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

السِّياقُ هو الفَيصَل. الآيةُ في مَقامِ بَيانِ أنّ اللّهَ لا يَستَحيي من ضَربِ المَثَلِ **بالصَّغير**، رَدّاً على من استَهزَأَ بذِكرِ الذُّبابِ والعَنكَبوت. فالمَعنى المُتَّسِقُ مع السِّياقِ هو: ولا بما هو **أمعَنُ في الصِّغَرِ** منها. وهذا الاستِعمالُ عَرَبيٌّ صَحيح، كما يُقالُ «هذا فَوقَه في الجَهل». فالنَّصُّ يُثبِتُ ضِمناً وُجودَ مَخلوقاتٍ أصغَرَ من أصغَرِ ما تَراه العَين، في زمنٍ كانت البَعوضةُ فيه حَدَّ المَعرِفةِ البَشَريّةِ بالصِّغَر.

٧٣

قَومُ لُوطٍ... جُعِلَ عالِيها سافِلَها

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ

سورة هود – الآية ٨٢

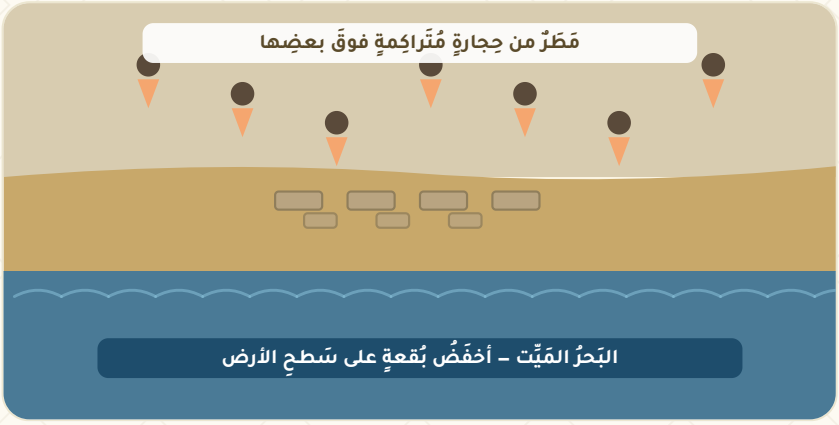

مِنطَقةٌ انخَسَفَت وانقَلَبَت، وغَمَرَها ماءٌ شَديدُ المُلوحة

بكلامٍ بسيط

الآيةُ تقولُ إنّ مَدينةَ قَومِ لُوطٍ **انقَلَبَت رأساً على عَقِب**، ثمّ نَزَلَت عليها حِجارةٌ مُتَراصَّةٌ فوقَ بعضِها. والجُيولوجيا تُفَسِّرُ كيف يَحدُثُ هذا في تلك المِنطَقةِ بالذّات.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الخَسفُ والانقِلابُ كانا يُفهَمانِ عِقاباً غَيبيّاً مَحضاً بلا آليّةٍ طَبيعيّة. ولم يَكُن يُعرَفُ أنّ تلك المِنطَقةَ تَقَعُ على صَدعٍ أرضيٍّ ضَخم، ولا أنّ باطِنَها يَحوي غازاتٍ وقاراً وكِبريتاً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

مِنطَقةُ البَحرِ المَيِّتِ تَقَعُ على **صَدعِ البَحرِ المَيِّتِ التَّحَوُّليّ** – أحدِ أنشَطِ الصُّدوعِ الزِّلزاليّةِ في العالَم – وهي أخفَضُ بُقعةٍ يابسةٍ على الكوكب. والمِنطَقةُ غَنِيّةٌ بالقارِ الطَّبيعيِّ والكِبريتِ والغازاتِ القابِلةِ للاشتِعال. وقد رَجَّحَ باحِثونَ أنّ زِلزالاً عَنيفاً أدّى إلى **تَسَيُّلِ التُّربةِ وانخِسافِها** وانقِلابِ طَبَقاتِها، مع قَذفِ مَوادَّ مُشتَعِلةٍ سَقَطَت على المِنطَقة. وفي مَوقِعِ تَلِّ الحَمّام بالأُردُنّ اكتُشِفَت طَبَقةُ دَمارٍ مُفاجِئٍ تَحوي زُجاجاً صُهِرَ بحَرارةٍ هائلة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثَلاثةُ ألفاظٍ تَحمِلُ الوَصفَ كلَّه. «**جَعَلنا عالِيَها سافِلَها**»: انقِلابٌ رأسيٌّ كامِل للطَّبَقات، لا مُجَرَّدُ هَدمٍ – وهذا هو التَّوصيفُ الجُيولوجيُّ للانخِسافِ والانقِلاب. و«**سِجّيل**»: لفظةٌ تَجمَعُ الحَجَرَ والطِّينَ المُتَصَلِّب. و«**مَنضود**»: أي مَرصوصٌ بعضُه فوقَ بعضٍ في طَبَقات – وهذا وَصفٌ دَقيقٌ للصَّخرِ الرُّسوبيِّ المُتَطَبِّقِ في تلك المِنطَقة. فالنَّصُّ يَصِفُ آليّةً طَبيعيّةً مُتَّسِقةً، لا صورةً خَياليّةً عامّة.

إرَمُ ذاتِ العِماد... المَدينةُ المَدفونة

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ

سورة الفجر – الآيات ٦-٨

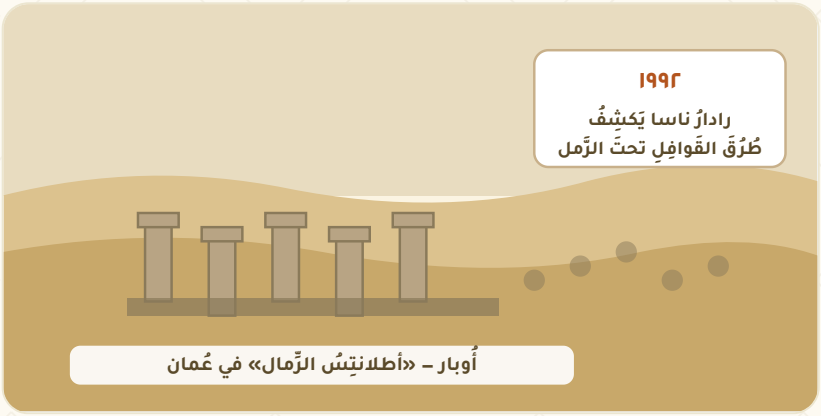

أعمِدةٌ وحُصونٌ خَرَجَت من تحتِ الكُثبانِ بعد آلافِ السِّنين

بكلامٍ بسيط

ذَكَرَ القرآنُ مَدينةً عَظيمةً ذاتَ **أعمِدةٍ** لم يُبنَ مِثلُها، وقال إنّها هَلَكَت. وظَلَّ النّاسُ يَعُدُّونها أُسطورة... حتّى كَشَفَ رادارُ الأقمارِ الصِّناعيّةِ آثارَها تحتَ الرِّمال.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَكُن في الرُّبعِ الخالي إلّا رَملٌ لا نِهايةَ له. وكان المُؤَرِّخونَ الغَربيّونَ يَعُدُّون «عاداً» و«إرَم» من أساطيرِ العَرَب، إذ لا أثَرَ لها ولا ذِكرَ في مَصادِرَ أُخرى. والصَّحراءُ لا تَحفَظُ سِرّاً يُرى من سَطحِها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ١٩٩٢ استَعمَلَ فَريقٌ بِقيادةِ نيكولاس كلاب صُوَرَ رادارِ مَكّوكِ الفَضاءِ التّابِعِ لناسا، فظَهَرَت تحتَ الرِّمالِ **طُرُقُ قَوافِلَ قَديمةٌ تَلتَقي عند نُقطةٍ واحدة** في **الشِّصر** بمُحافَظةِ ظَفار في عُمان. وبالحَفرِ ظَهَرَ حِصنٌ ثَمانيُّ الأضلاعِ له **أبراجٌ عالِيةٌ** وآثارُ مَدينةٍ انهارَت في حُفرةٍ جِيريّةٍ تحتَها. وأعلَنَت الصُّحُفُ العالَميّةُ الخَبَرَ باسمِ «أُوبار: أطلانتِسُ الرِّمال».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الوَصفُ القُرآنيُّ خَصَّ المَدينةَ بصِفةٍ مُعَيَّنة: «**ذاتِ العِماد**» – أي الأعمِدةِ أو الأبراجِ العالِية. وهذه ليست صِفةً عامّةً لأيِّ مَدينة؛ فمُدُنُ الجَزيرةِ كانت بُيوتَ طينٍ وخِيام. ثمّ زادَ: «**لم يُخلَق مِثلُها في البِلاد**» – أي تَفَرُّدُها المِعماريّ. وقد ظَهَرَت الأبراجُ فِعلاً. والأهَمُّ أنّ القرآنَ تَحَدَّثَ عنها بوَصفِها **تاريخاً واقِعاً** لا أُسطورةً، في وَقتٍ لم يَكُن لأحدٍ عليها دَليل، وظَلَّ ذلك مَأخَذاً عليه ١٤ قَرناً حتّى جاء الرّادار.

٧٥

هامان... اسمٌ خَرَجَ من الحَجَر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ

سورة غافر – الآية ٣٦

الاسمُ مَكتوبٌ بالهيروغليفيّةِ التي لم تُقرَأ إلّا سنة ١٨٢٢

«هامان – رئيسُ عُمّالِ مَحاجِرِ الحَجَر»

نَقشٌ مِصريٌّ قَديم – مُتحَفُ هوف بفيينّا

خَرطوشٌ هيروغليفيٌّ يَحمِلُ اسمَ «هامان» ووَظيفتَه في البِناء

بكلامٍ بسيط

القرآنُ ذَكَرَ رَجُلاً اسمُه **هامان** يَعمَلُ مع فِرعَونَ في **البِناء**. وبعدَ أكثَرَ من ألفِ سنةٍ قَرَأَ العُلَماءُ الهيروغليفيّةَ فوَجَدوا هذا الاسمَ فِعلاً – ووَظيفتُه: المَسؤولُ عن عُمّالِ الحَجَر.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

اللُّغةُ الهيروغليفيّةُ ماتَت تماماً نحوَ القَرنِ الرّابعِ الميلاديّ، ولم يَبقَ على وَجهِ الأرضِ من يَقرَؤُها. فأسماءُ مُوَظَّفي مِصرَ القَديمةِ صارت طَيَّ المَجهولِ المُطلَق. وقد اتَّهَمَ النُّقّادُ القرآنَ بالخَلطِ، وقالوا إنّ «هامان» اسمٌ مَنقولٌ من قِصّةٍ بابِليّةٍ في سِفرِ إستير، وأنّ ذِكرَه في مِصرَ خَطأٌ تاريخيّ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ١٨٢٢ فَكَّ شامبليون رُموزَ الهيروغليفيّةِ بحَجَرٍ رَشيد. وفي فِهرِسِ الأسماءِ المِصريّةِ القَديمةِ الصّادِرِ عن مُتحَفِ هوف في فيينّا يَرِدُ اسمُ **هامان** على لَوحٍ أثَريّ، مَقروناً بلَقَب: «**رئيسُ عُمّالِ مَحاجِرِ الحَجَر**». أي أنّ الرَّجُلَ مِصريٌّ حَقيقيّ، ومَنصِبُه مُتَعَلِّقٌ بالبِناءِ بالحَجَرِ تحديداً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ ما الذي كان يُمكِنُ أن يَقَعَ فيه مُختَلِقٌ للنَّصّ. اسمٌ غَريبٌ لشَخصيّةٍ ثانَويّة، في حَضارةٍ ماتَت لُغتُها، يُذكَرُ عَشرَ مَرّاتٍ في القرآنِ ودائماً مَقروناً بفِرعَونَ وبمِصر. ثمّ يُطلَبُ منه بالذّاتِ **بِناءُ صَرح** – وهي وَظيفةُ الرَّجُلِ الحَقيقيّةِ كما في النَّقش. احتِمالُ أن يُصيبَ مُفتَرٍ اسماً مَنسِيّاً ووَظيفتَه معاً، في لُغةٍ لا يَقرَؤُها أحدٌ على وَجهِ الأرض، ليس احتِمالاً مَعقولاً. والتُّهمةُ التي وُجِّهَت إلى القرآنِ قُروناً انقَلَبَت شَهادةً له.

الباب الخامس

نُبوءاتُ النّبيِّ ﷺ التي تَحقَّقَت

أخبارٌ قالها ﷺ عن مُستقبلٍ بعيد، سجّلها أصحابُه في كُتبهم، ثمّ وقعت أمامَ أعينِ الدُّنيا كما قال، حرفاً بحرف.

١٨ موضوعاً

لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ

رواه أحمد والبُخاريُّ في التّاريخ – صحّحه جماعة

القُسطَنطينيّة: أمنَعُ مدينةٍ مُحَصَّنةٍ في العالَمِ القَديم

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ **القُسطَنطينيّةَ ستُفتَح**، ومَدَحَ الأميرَ الذي سيَفتَحُها وجَيشَه. وبعدَ أكثَرَ من ثَمانيةِ قُرونٍ فَتَحَها السُّلطانُ مُحمّدٌ الفاتِح.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

القُسطَنطينيّةُ كانت **عاصِمةَ أقوى إمبراطوريّةٍ نَصرانيّةٍ في الأرض**، وأشَدَّ المُدُنِ تَحصيناً على الإطلاق: أسوارٌ ثُلاثيّةٌ ضَخمة، وخَليجٌ يُغلَقُ بسِلسِلةٍ حَديديّة، وبَحرٌ يُحيطُ بها من ثَلاثِ جِهات. وقد صَمَدَت أمامَ أكثَرَ من عِشرينَ حِصاراً عبر القُرون. والقائلُ يومَئذٍ في المدينةِ المُنَوَّرة، ولم تَكُن لدَولتِه بَحريّةٌ أصلاً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في **٢٩ مايو ١٤٥٣ م** فَتَحَها السُّلطانُ مُحمّدُ الثّاني وعُمرُه إحدى وعِشرونَ سنة، فلُقِّبَ بـ«الفاتِح». واستَعمَلَ مِدفَعاً عِملاقاً لم يُرَ مِثلُه، و**نَقَلَ سُفُنَه فوقَ اليابِسة** على ألواحٍ مَدهونةٍ بالشَّحمِ ليَتَجاوَزَ السِّلسِلة. والحَدَثُ من أشهَرِ ما في التّاريخِ العالَميّ، ويُؤَرَّخُ به لنِهايةِ العُصورِ الوُسطى.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الحَديثُ لم يَقتَصِر على الإخبارِ بالفَتح، بل **مَدَحَ الفاتِحَ وجَيشَه مُقَدَّماً** – وهذا يَزيدُ المُخاطَرة، إذ يَربِطُ صِدقَ النَّصِّ بصِفةِ رَجُلٍ لم يُولَد بعد. وقد تَنافَسَ قادةُ المُسلِمينَ على هذا الشَّرَفِ ثَمانيةَ قُرون، وحاصَرَها مُعاويةُ وسُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ وهارونُ الرَّشيدُ فلم يَفتَحوها – **وكلُّ محاولةٍ فاشِلةٍ كانت فُرصةً لتَكذيبِ الحَديث، لا لتَصديقِه**. ثمّ وَقَعَ الفَتحُ على يدِ فَتًى في الحاديةِ والعِشرينَ من عُمُرِه، بتِقنيّةٍ لم تَكُن مُتَخَيَّلة.

٧٧

إذا هَلَكَ كِسرى فلا كِسرى بعدَه

إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

وقَعَ كما قال

يَزدَجِردُ آخِرُ كِسرى
زالَت فارِسُ فلم تَعُد
والرُّومُ فَقَدَت الشّامَ ومِصر
وكُنوزُهما في بيتِ المال

قِيلَ وهم في أوجِ القُوّة

فارِسُ والرُّومُ يَحكُمانِ
نِصفَ العالَمِ المَعروف
والمُسلِمونَ في المدينة
دَولةٌ ناشِئةٌ بلا مال

الفَرقُ بين القَولِ والوُقوعِ: أقَلُّ من ثَلاثينَ سنة

إمبراطوريّتانِ حَكَمَتا قُروناً… انتَهَت إحداهُما وانحَسَرَت الأُخرى

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ **مَلِكَ فارِسَ إذا ماتَ لن يَأتيَ بعدَه مَلِكٌ مِثلُه**، وكذلك مَلِكُ الرُّوم، وإنّ كُنوزَهما ستُنفَقُ في سَبيلِ الله. ووَقَعَ ذلك كلُّه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت فارِسُ والرُّومُ **القُوَّتَينِ العُظمَيَينِ في العالَم** بلا مُنازِع، تَتَقاسَمانِ الشَّرقَ والغَرب، ولهما جُيوشٌ وخَزائنُ لا تُحصى. والمُسلِمونَ يومَئذٍ جَماعةٌ صَغيرةٌ في المدينة، يُحاصَرونَ في الخَندَقِ ويَربِطونَ الحِجارةَ على بُطونِهم من الجُوع. وفي تلك اللَّحظةِ بالذّاتِ قيلَ هذا الكَلام.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سَقَطَت الدَّولةُ السّاسانيّةُ نِهائيّاً سنة ٦٥١ م بمَقتَلِ **يَزدَجِردَ الثّالث**، ولم يَقُم لفارِسَ مَلِكٌ بذلك اللَّقَبِ بعدَه أبداً. وأمّا الرُّومُ فلم تَزُل دَولتُها فَوراً، لكنّها **فَقَدَت الشّامَ ومِصرَ وشَمالَ إفريقيا** وانحَسَرَت، ولم يَعُد لقَيصَرَ سُلطانٌ على تلك البِلاد. وقد حُمِلَت كُنوزُ كِسرى إلى المدينةِ في خِلافةِ عُمَرَ وقُسِّمَت، حتّى قال: «إنّ قَوماً أدَّوا هذا لأُمَناء».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انتَبِه للفَرقِ الدَّقيقِ بين الجُملَتَين. قيلَ في كِسرى: «فلا كِسرى بعدَه» – **وانتَهَت فارِسُ نِهائيّاً**. وقيلَ في قَيصَرَ مِثلُها – و**لم تَنتَهِ الرُّومُ بل انحَسَرَت** عن أراضي الإسلام. وهذا مُتَّسِقٌ مع سِياقِ الحَديثِ: إنّما الكَلامُ عمّن يَحكُمُ تلك الأرضَ ويُنازِعُ فيها. والأدَقُّ من ذلك أنّ الحديثَ جَعَلَ المِحوَرَ **الكُنوزَ لا الأرض**: «لَتُنفَقَنَّ كُنوزُهما في سَبيلِ الله» – وهي الجُملةُ التي أقسَمَ عليها. وَعْدٌ بمالٍ أغنى مَلِكَينِ في الأرضِ من رَجُلٍ لا يَجِدُ عَشاءَه.

٧٨

عَمّارٌ تَقتُلُه الفِئةُ الباغِية

وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

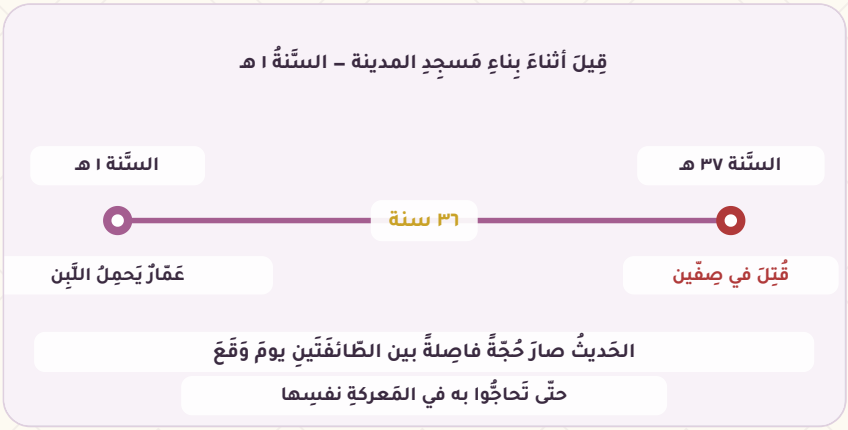

نُبوءةٌ قِيلَت في أوّلِ سنةٍ للهِجرة، ووَقَعَت بعدَ سِتٍّ وثَلاثينَ سنة

بكلامٍ بسيط

بينما كانوا يَبنونَ المَسجِد، قال النَّبيُّ ﷺ عن عَمّارِ بنِ ياسِرٍ إنّه **ستَقتُلُه فِئةٌ ظالِمة**. وبعدَ سِتٍّ وثَلاثينَ سنةً قُتِلَ عَمّارٌ في مَعركةِ صِفّين – فعَرَفَ النّاسُ مَن الباغي.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

قيلَ هذا الكَلامُ والمُسلِمونَ **جَماعةٌ واحدةٌ مُتَحابّةٌ في أوّلِ عَهدِها بالمدينة**، لا فِتنةَ بينهم ولا انقِسام، وكلُّهم يَبني المَسجِدَ بيَدِه. وفِكرةُ أن يَقتَتِلَ المُسلِمونَ فيما بينهم، وأن يُقتَلَ صَحابيٌّ جَليلٌ بأيدي مُسلِمين، كانت أبعَدَ ما يَخطُرُ على قَلبِ أحد.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

قُتِلَ عَمّارُ بنُ ياسِرٍ سنة ٣٧ هـ في مَعركةِ صِفّين، وهو في التِّسعينَ من عُمُرِه، في صَفِّ عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنه. و**اضطَرَبَ جَيشُ الشّامِ اضطِراباً شَديداً حين عُرِفَ أنّه قُتِل**، لأنّ الحَديثَ كان مَعروفاً مُتَداوَلاً بينهم. والحَديثُ مُخَرَّجٌ في الصَّحيحَينِ ومَرويٌّ عن جَماعةٍ من الصَّحابةِ من طُرُقٍ كَثيرةٍ بَلَغَت التَّواتُر.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أقوى ما في هذه النُّبوءةِ أنّ **الطَّرَفَينِ المُتَنازِعَينِ كِلَيهما كانا يَعرِفانِها ويَحتَجّانِ بها** – فهي ليست خَبَراً دُوِّنَ بعدَ الحادِثة، بل كان مُتَداوَلاً قبلَها بعُقود، حتّى إنّ وُقوعَه أحدَثَ أزمةً حَقيقيّةً في أحدِ الجَيشَين. ولو كان الحَديثُ مَوضوعاً بعدَ صِفّينَ لَما قَبِلَه الطَّرَفُ الذي يُدينُه. وقد سَمّى النَّبيُّ ﷺ **شَخصاً بعَينِه**، و**طَريقةَ مَوتِه** (القَتلُ لا المَرَض)، و**وَصفَ قاتِليه** (فِئةٌ باغِية، أي مُسلِمونَ ظالِمون لا كُفّار). ثَلاثةُ قُيودٍ وَقَعَت معاً.

٧٩

ابني هذا سيِّد... يُصلِحُ اللهُ به بين فِئتين

إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

رواه البُخاريّ – صحيح

السَّنةُ ٤١ هـ – عامُ الجَماعة

الأُمّةُ انقَسَمَت جَيشَين

الحَسَنُ يَتَنازَلُ للصُّلح

فتَوَحَّدَ المُسلِمونَ

وسُمِّيَ: عامَ الجَماعة

قِيلَ والحَسَنُ طِفلٌ صَغير

لا فِئَتَين ولا اقتِتال

والأُمّةُ كُلُّها واحدة

والطِّفلُ لم يَبلُغ

ولا مَنصِبَ له

تَنازَلَ عن الخِلافةِ وهو قادِرٌ عليها – فحَقَنَ الدِّماء

أعظَمُ صُلحٍ في التّاريخِ الإسلاميِّ المُبَكِّر، وصاحِبُه سُمِّيَ قبلَ أن يُدرِك

بكلامٍ بسيط

حَمَلَ النَّبيُّ ﷺ حَفيدَه الحَسَنَ وهو طِفلٌ صَغير، وقال: **سيُصلِحُ اللهُ به بين جَماعَتَينِ عَظيمَتَينِ من المُسلِمين**. وبعدَ نحوِ أربعينَ سنةً فَعَلَ ذلك بالضّبط.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَكُن في الأُمّةِ فِئَتانِ أصلاً – كانت جَماعةً واحدةً خَلفَ نَبيِّها. والطِّفلُ الذي قيلَ فيه الكَلامُ لم يَبلُغ، ولا يُعرَفُ ما يَصيرُ إليه. والحَديثُ يُخبِرُ عن ثَلاثةِ أشياءَ مَجهولةٍ معاً: أنّ الأُمّةَ **ستَنقَسِم**، وأنّ الانقِسامَ **سيَنتَهي بصُلح**، وأنّ هذا الطِّفلَ بعَينِه هو الذي سيَعقِدُه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ٤١ هـ، بعدَ مَقتَلِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، بُويِعَ الحَسَنُ بالخِلافة، وكان على رأسِ جَيشٍ كَبير. ثمّ **تَنازَلَ عنها لمُعاويةَ حَقناً لدِماءِ المُسلِمين**، فاجتَمَعَت الأُمّةُ على رَجُلٍ واحدٍ بعدَ سِنينَ من الاقتِتال. وسُمِّيَ ذلك العامُ في التّاريخِ الإسلاميِّ كلِّه: **«عامَ الجَماعة»**. والحَديثُ في صحيحِ البُخاريّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

تأمَّل ما تَقتَضيه هذه الجُملةُ الواحدة: إثباتُ **فِتنةٍ ستَقَع** في أُمّةٍ لم تَفتَرِق بعد، وتَحديدُ **الرَّجُلِ الذي يُنهيها** وهو طِفلٌ لم يَنطِق، وتَحديدُ **الطَّريقة** – إصلاحاً لا انتِصاراً في حَرب. والأمرُ الأخيرُ هو الأعجَب: فالطَّبيعيُّ لمن يَملِكُ جَيشاً وشَرعِيّةً أن يُقاتِل. أن يُوصَفَ حَفيدُ النَّبيِّ ﷺ بأنّه سيَتَنازَلُ وهو قادِر – **وهو ما عابَه عليه بعضُ أتباعِه** – ثمّ يُسمّى ذلك «سِيادةً» و«إصلاحاً»، حُكمٌ مُخالِفٌ لكلِّ تَوَقُّعٍ سِياسيّ. ووَقَعَ حَرفاً بحَرف.

٨٠

الخِلافةُ ثلاثون سنة... ثمّ مُلك

الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ

رواه أبو داود والتِّرمِذيُّ – صحّحه الألبانيّ

خَمسةُ خُلَفاءَ في ثَلاثينَ سنةً بالتَّمام... ثمّ تَبَدَّلَ نِظامُ الحُكم

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الخِلافةَ على مِنهاجِ النُّبُوّةِ ستَدومُ **ثَلاثينَ سنة** فقط، ثمّ يَتَحَوَّلُ الحُكمُ إلى مُلكٍ يُوَرَّث. وجاء الحِسابُ مُطابِقاً تماماً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أنظِمةُ الحُكمِ في الأرضِ كلِّها كانت مُلكاً وِراثيّاً: فارِسُ والرُّومُ والحَبَشةُ واليَمَن. ولم يَكُن في الأُفُقِ نِظامٌ آخَر. وأن يُحَدَّدَ لِنظامٍ لم يَبدأ بعدُ **عُمُرٌ بالسِّنين**، ثمّ يُقالَ إنّه سيَؤولُ إلى غيرِه، تَحديدٌ خَطيرٌ يَقبَلُ العَدَّ والحِساب.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

بَدَأَت الخِلافةُ بوَفاةِ النَّبيِّ ﷺ سنة ١١ هـ: أبو بكرٍ سَنَتانِ وثَلاثةُ أشهُر، ثمّ عُمَرُ عَشرُ سِنينَ ونِصف، ثمّ عُثمانُ نحوُ اثنَتي عشرةَ سنة، ثمّ عَليٌّ نحوُ خَمسِ سِنين، ثمّ الحَسَنُ نحوَ سِتّةِ أشهُرٍ حتّى تَنازَلَ سنة ٤١ هـ. **المَجموعُ: ثَلاثونَ سنةً بالتَّمام.** ثمّ صار الحُكمُ مُلكاً يُوَرَّثُ في بني أُمَيّةَ ثمّ بني العبّاس.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا رَقمٌ **قابِلٌ للقِياسِ والتَّكذيب**، لا وَصفٌ عامٌّ يَحتَمِلُ التَّأويل. ولو زادَت المُدّةُ سَنَتَينِ أو نَقَصَت لانكَشَفَ الأمرُ. والأعجَبُ أنّ الحَديثَ لم يَقُل «ثمّ يَنتَهي الإسلام» ولا «ثمّ يَسودُ الكُفر» – بل قال «ثمّ **مُلك**»، أي تَحَوُّلٌ في شَكلِ الحُكمِ مع بَقاءِ الدَّولة. وهذا بالضّبطِ ما جَرى: الدَّولةُ الإسلاميّةُ بَقِيَت واتَّسَعَت، لكنّ طَريقةَ اختِيارِ الحاكِمِ تَبَدَّلَت. دِقّةٌ في التَّوصيفِ السِّياسيِّ لا تَقِلُّ عن دِقّةِ الرَّقم.

٨١

رُعاةُ الشّاءِ يَتطاوَلونَ في البُنيان

أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – حديثُ جِبريل

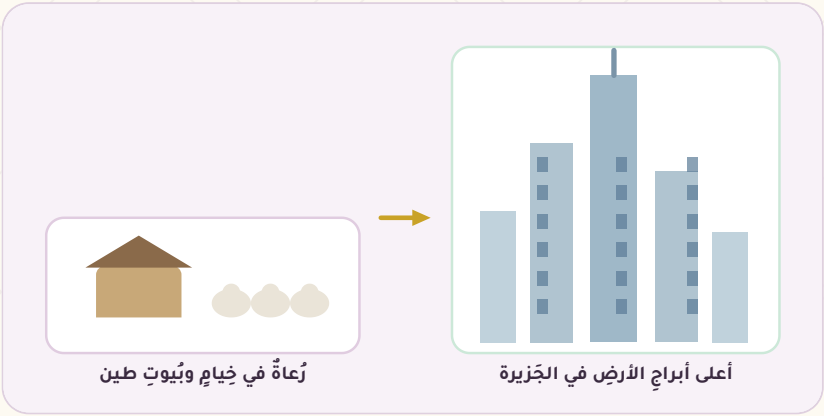

أطوَلُ مَبنًى في العالَمِ اليومَ يَقِفُ في صَحراءَ كانت بُيوتُها شَعَراً وطِيناً

بكلامٍ بسيط

أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنّ من عَلاماتِ آخِرِ الزَّمانِ أن يَصيرَ **رُعاةُ الغَنَمِ الفُقَراءُ الحُفاةُ** يَتَنافَسونَ في بِناءِ الأبنِيةِ العالِية. وهذا ما تَراه اليومَ بعَينِك.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجَزيرةُ العربيّةُ يومَئذٍ أفقَرُ بِقاعِ الأرضِ المَعمورة: لا نَهرَ ولا زَرعَ ولا مَعدِنَ مَعروف. وسُكّانُها رُعاةٌ يَنتَقِلونَ خَلفَ الكَلأ، وبُيوتُهم شَعرٌ وطِينٌ لا يَتَجاوَزُ الطّابِقَ الواحد. ولم يَكُن أحدٌ يَتَصَوَّرُ أن تَصيرَ هذه الأرضُ مَركزاً للثَّراءِ والعُمرانِ يوماً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

اكتُشِفَ النِّفطُ في الجَزيرةِ في ثَلاثينيّاتِ القرنِ العشرين، فتَبَدَّلَ حالُها في جِيلَين. واليومَ يَقِفُ **بُرجُ خَليفة** في دُبَيّ بارتِفاعِ ٨٢٨ متراً أطوَلَ مَبنًى في العالَم، و**بُرجُ جدّة** قَيدَ الإنشاءِ يَتَجاوَزُ الكيلومتر، و**أبراجُ البَيتِ** في مكّةَ من أضخَمِ المَباني كُتلةً على وَجهِ الأرض. والتَّنافُسُ على «الأطوَل» صارَ سِمةً مُعلَنةً لتلك المِنطَقةِ بالذّات.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثَلاثُ قُيودٍ في العِبارةِ الواحدةِ تَجعَلُها نُبوءةً لا حِكمةً عامّة. الأوّل: تَحديدُ **هُوِيّةِ الفاعِلين** – «رِعاءَ الشّاءِ الحُفاةَ العُراةَ العالة»، أي أنّ البُناةَ هم **الفُقَراءُ أنفُسُهم** لا أُمّةٌ غَنيّةٌ عَريقةٌ في العُمران. الثّاني: الفِعلُ «**يَتَطاوَلون**» – وهو تَفاعُلٌ يُفيدُ **المُنافَسةَ على الطُّول** بعَينِها، لا مُجَرَّدَ البِناءِ العالي. الثّالث: أنّ هذا سِياقُ **عَلامةً على تَبَدُّلٍ عَظيم**، أي أنّه أمرٌ خارِجٌ عن المُعتادِ يَستَحِقُّ أن يُعَدَّ آية. ومَن يَنظُرُ إلى صَحراءَ قاحِلةٍ فيَتَنَبَّأُ بأنّ أهلَها سيَتَنافَسونَ يوماً على أطوَلِ بِناءٍ في الأرض، لا يَتَكَلَّمُ عن حَدْس.

٨٢

حتّى تَعودَ أرضُ العَرَبِ مُروجاً وأنهاراً

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا

رواه مُسلِم – صحيح

تحت رِمالِ الجَزيرةِ مَجاري أنهارٍ قَديمةٍ كَشَفَتها الأقمارُ الصِّناعيّة

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ أرضَ العَرَبِ **ستَعودُ** مُروجاً خَضراءَ وأنهاراً جارِية. والكلمةُ المِفتاحيّةُ هي «**تَعود**» – أي أنّها كانت كذلك من قبل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجَزيرةُ العربيّةُ صَحراءُ قاحِلةٌ منذ ما قبلَ التّاريخِ المَكتوب، ولا يَعرِفُ أهلُها لها حالاً غيرَ هذه. ولم يَكُن هناك أيُّ سَبيلٍ لمعرفةِ ماضيها المُناخيِّ السَّحيق. وأن يُقالَ إنّها ستَعودُ مُروجاً **يَقتَضي أنّها كانت مُروجاً** – وهذا هو مَوضِعُ الخَبَر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الأقمارُ الصِّناعيّةُ ورادارُ اختِراقِ الأرضِ كَشَفَت تحت رِمالِ الجَزيرةِ **شَبَكةً هائلةً من مَجاري أنهارٍ قَديمة** تُسمّى «الأنهارَ المُتَحَجِّرة»، أكبَرُها وادي الباطِنِ ووادي الرُّمّة. وأثبَتَت دِراساتُ المُناخِ القَديمِ أنّ الجَزيرةَ مَرَّت بفَتَراتٍ رَطبةٍ مُتَكَرِّرة (آخِرُها نحوَ ٦ آلافِ سنةٍ مَضَت) كانت فيها بُحَيراتٌ وأنهارٌ ومَراعٍ وحَيَواناتٌ كَبيرة. وقد عُثِرَ فيها على عِظامِ أفراسِ نَهرٍ وتَماسيحَ وأدَواتٍ حَجَريّةٍ قُربَ بُحَيراتٍ جافّة. والدَّوراتُ المُناخيّةُ تُنبِئُ بعَودةِ الرُّطوبةِ مُستَقبَلاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لفظةٌ واحدةٌ تَحمِلُ الإعجاز: «**تَعود**». فهي تُثبِتُ أمرَينِ معاً: خَبَراً عن **ماضٍ** جيولوجيٍّ لم يَكُن لأحدٍ به عِلم، ونُبوءةً عن **مُستَقبَلٍ** لم يَقَع بعد. ولو قيلَ «تَصير» لكان كَلاماً عن المُستَقبَلِ وحدَه. ولاحِظ القَرينةَ في الحَديثِ نفسِه: قَرَنَ ذلك بـ«يَكثُرَ المالُ ويَفيض» – وقد وَقَعَ هذا الشَّطرُ فِعلاً بالنِّفط، وهو ما يُموِّلُ اليومَ مَشاريعَ التَّشجيرِ والزِّراعةِ الضَّخمةَ هناك.

٨٣

نارٌ تَخرُجُ من أرضِ الحجاز

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

ثَوَرانٌ بُركانيٌّ تاريخيٌّ مُسَجَّلٌ في المَصادِرِ وفي طَبَقاتِ الحِمَم

بكلامٍ بسيط

أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنّ ناراً ستَخرُجُ من أرضِ الحِجازِ يَبلُغُ ضَوءُها مَدينةَ **بُصرى** في الشّامِ على بُعدِ مِئاتِ الكيلومترات. وقد وَقَعَ ذلك سنة ١٢٥٦ ميلاديّة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحِجازُ أرضٌ صَحراويّةٌ لم يَشهَد أهلُها بُركاناً في حَياتِهم. ولم تَكُن كلمةُ «بُركان» مَعروفةً أصلاً في بيئتِهم. وأن يُذكَرَ **مَوضِعُ الخُروجِ** و**مَدى الضَّوء** بتَحديدِ مَدينةٍ بعَينِها في بَلَدٍ آخَر، تَفصيلٌ لا يُقالُ إلّا عن يَقين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في **جُمادى الآخِرةِ سنة ٦٥٤ هـ / يونيو ١٢٥٦ م** ثارَ بُركانٌ في **حَرّةِ رَهْط** شَرقيَّ المدينةِ المُنَوَّرة، واستَمَرَّ نحوَ خَمسةٍ وخَمسينَ يوماً، وسالت منه حِمَمٌ على مَسافةِ عَشَراتِ الكيلومترات. وقد وَصَفَه المُؤَرِّخونَ المُعاصِرونَ له – كأبي شامةَ والقُرطُبيِّ وابنِ كَثيرٍ والنَّوَويّ – وذَكَروا أنّ **ضَوءَه رُئيَ من بُصرى وتَيماءَ ومكّة**، وأنّ النّاسَ كانوا يَستَضيئونَ به لَيلاً. وقد دَرَسَ الجيولوجيّونَ تَدَفُّقاتِ الحِمَمِ في حَرّةِ رَهْطٍ وأرَّخوها لهذا التّاريخ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ دِقّةَ الوَصف: لم يَقُل «نارٌ عَظيمة» فحَسب، بل حَدَّدَ **الأثَرَ المَرئيّ**: «**تُضيءُ أعناقَ الإبِلِ ببُصرى**». وبُصرى مَدينةٌ في جَنوبِ الشّام، تَبعُدُ عن المدينةِ نحوَ ألفِ كيلومتر. والتَّفصيلُ في «**أعناقِ الإبِل**» تَحديداً غَريبٌ حتّى يُفهَم: الوَهَجُ الأُفُقيُّ البَعيدُ يُضيءُ الأجسامَ المُرتَفِعةَ فوقَ خَطِّ الأُفُق، وعُنُقُ البَعيرِ أعلى ما في القافِلة. وهذا بالضّبطِ ما وَصَفَه المُؤَرِّخونَ بعدَ سِتَّةِ قُرون. والحادِثةُ مُسَجَّلةٌ في مَصادِرَ مُستَقِلّةٍ كَثيرة، ومُثبَتةٌ جيولوجيّاً في الصَّخر.

٨٤

يَتَقارَبُ الزَّمان

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ

رواه أحمد والتِّرمِذيّ – صحّحه الألبانيّ

ما كان يَستَغرِقُ شَهراً صار يَستَغرِقُ ساعَتَين

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الزَّمانَ **سيَتَقارَب**، فتَصيرَ السَّنةُ كالشَّهرِ والشَّهرُ كالأُسبوع. وهذا ما نَعيشُه: ما كان يَحتاجُ شُهوراً صار يَحتاجُ ساعات.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الزَّمَنُ كان ثابِتاً في تَجرِبةِ البَشَرِ منذ بَدءِ الخَليقة. السَّفَرُ بالجَمَلِ والفَرَس، والرِّسالةُ تَسيرُ شُهوراً، والخَبَرُ يَصِلُ بعدَ مَواسِم. ولم يَكُن يُتَصَوَّرُ أن تَتَغَيَّرَ هذه النِّسَبُ أبداً – فهي من ثَوابِتِ الحَياة.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

ما كانت القافِلةُ تَقطَعُه في شَهرٍ تَقطَعُه الطّائرةُ في ساعَتَين. والرِّسالةُ التي كانت تَستَغرِقُ أشهُراً تَصِلُ الآنَ في أقَلّ من ثانية. وما كان يَحتاجُ عُمُراً من البَحثِ في المَكتَباتِ يُنجَزُ في دَقائق. وقد صارَ هذا التَّسارُعُ مَوضوعَ دِراسةٍ في عِلمِ الاجتِماعِ باسمِ **«ضَغطِ الزَّمانِ والمَكان»** (Time-Space Compression)، وهو مُصطَلَحٌ مُعتَمَدٌ يَصِفُ أثَرَ سُرعةِ النَّقلِ والاتِّصالِ على إدراكِ المَسافات.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّعبيرُ نَفسُه هو الإعجاز. لم يَقُل «تَقِلُّ البَرَكة» ولا «يَمُرُّ العُمُرُ سَريعاً» – وكِلاهُما تَفسيرٌ مُمكِنٌ ومَقبول. بل استَعمَلَ صِيغةَ **نِسبةٍ رِياضيّةٍ مُتَدَرِّجة**: السَّنةُ ← شَهر، والشَّهرُ ← أُسبوع، والأُسبوعُ ← يوم، واليَومُ ← ساعة. أي أنّ الوَحدةَ الزَّمنيّةَ تَنكَمِشُ إلى نحوٍ عُشرِها في كلِّ دَرَجة. و«**يَتَقارَب**» فِعلُ مُفاعَلةٍ يُفيدُ اقتِرابَ الأطرافِ بَعضِها من بَعض – وهو وَصفٌ دَقيقٌ لانكِماشِ المَسافاتِ لا لنَقصِ البَرَكةِ وحدَه. ومُصطَلَحُ «ضَغطِ الزَّمانِ والمَكان» الذي صاغَه عُلَماءُ الاجتِماعِ في القرنِ العشرين يَكادُ يَكونُ تَرجَمةً حَرفيّةً للعِبارة.

٨٥

يَكثُرُ المالُ حتّى لا يَجِدَ مَن يَقبَلُ صَدَقَتَه

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

أُمّةٌ كانت تَربِطُ الحَجَرَ على بَطنِها من الجُوع

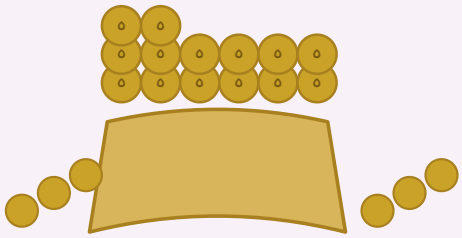

مَشاكِلُ الوَفرة... لا مَشاكِلُ النُّدرة

مِن أن يَشُدَّ النَّبيُّ ﷺ حَجَراً على بَطنِه... إلى فائضٍ لا يَجِدُ آخِذاً

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ زَماناً سيَأتي يَكثُرُ فيه المالُ حتّى **يَتَعَبَ صاحِبُ المالِ في إيجادِ فَقيرٍ يَقبَلُ صَدَقَتَه**. وقد وَقَعَ هذا في التّاريخِ مَرّاتٍ ويَقَعُ اليوم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

قيلَ هذا الكَلامُ في مُجتَمَعٍ **يُعاني الجُوعَ فِعلاً**: الصَّحابةُ يَربِطونَ الحِجارةَ على بُطونِهم يومَ الخَندَق، وأهلُ الصُّفّةِ لا يَجِدونَ ثَوباً يَستُرُهم. وفِكرةُ أن يَفيضَ المالُ حتّى لا يُوجَدَ فَقيرٌ كانت مُستَحيلةَ التَّصَوُّرِ يومَئذ. والتّاريخُ البَشَريُّ كلُّه إلى ذلك الوَقتِ تاريخُ نُدرةٍ لا وَفرة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

وَقَعَ هذا بصورةٍ واضِحةٍ في **خِلافةِ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز**، حتّى نَقَلَ المُؤَرِّخونَ أنّ عُمّالَه كانوا يَطوفونَ بالأموالِ فلا يَجِدونَ من يَأخُذُها، فاشتَروا بها الرِّقابَ وزَوَّجوا العُزّاب. وفي عَصرِنا: دُوَلٌ خَليجيّةٌ يَفيضُ فيها المالُ حتّى صارَ التَّحَدّي هو **إيجادَ مَصارِفَ للزَّكاة**، وصَناديقُ خَيريّةٌ عالَميّةٌ تُعلِنُ فائضاً لا تَجِدُ له مَصرِفاً في بِلادِها، ومَشاكِلُ اقتِصاديّةٌ حَديثةٌ اسمُها **«فائضُ الإنتاج»** و«الإفراطُ في الاستِهلاك».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النُّبوءةُ هنا ليست «سيَغنى النّاس» – وهذا كَلامٌ مُحتَمَل – بل هي مُعادَلةٌ مَقلوبةٌ تَماماً: **أن يَصيرَ العَطاءُ مُشكِلةً بدَلَ الأخذ**. وهذا انقِلابٌ في بِنيةِ المُجتَمَعِ لا مُجَرَّدُ تَحَسُّنٍ في الحال. والفِعلُ «**يُهِمَّ**» دَقيقٌ: أي يُقلِقُه ويَشغَلُ بالَه – فالمُشكِلةُ نَفسيّةٌ إداريّة، لا مادّيّة. وهذا هو بالضّبطِ وَصفُ صَناديقِ الزَّكاةِ المُعاصِرةِ حين تُعلِنُ عن فائضٍ لا مَصرِفَ له. قِيلَ هذا لقَومٍ لا يَجِدونَ قُوتَ يَومِهم.

ستَفتَحونَ مِصر... فاستَوصوا بأهلِها خَيراً

إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا

رواه مُسلِم – صحيح

مِصرُ: وَصّى بها النَّبيُّ ﷺ قبلَ فَتحِها بأكثَرَ من عِشرينَ سنة

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ المُسلِمينَ **سيَفتَحونَ مِصر**، وأوصاهم بأهلِها خَيراً قبلَ أن يَدخُلوها. وذَكَرَ عَلامةً لها: أنّها أرضٌ يُستَعمَلُ فيها **«القيراط»**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

مِصرُ يومَئذٍ وِلايةٌ رُومِيّةٌ حَصينة، والدَّولةُ الإسلاميّةُ ناشِئةٌ لم تَخرُج من الجَزيرةِ بعد. والعَرَبُ يَعرِفونَ مِصرَ تِجارةً ولا يَعرِفونَ تَفاصيلَ نُظُمِها. وأن يُوصى بأهلِ بَلَدٍ **قبلَ فَتحِه** يَعني الجَزمَ بأنّه سيُفتَح.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

فُتِحَت مِصرُ سنة ٢٠ هـ على يدِ عَمرِو بنِ العاصِ في خِلافةِ عُمَر. وأمّا «**القيراط**» فهو وَحدةُ قياسٍ ذاتُ أصلٍ يونانيٍّ مِصريّ، وما زالت تُستَعمَلُ في مِصرَ إلى اليومِ لقياسِ الأرض (القيراطُ = ١/٢٤ من الفَدّان) وللذَّهَبِ (عِيارُ ٢١ و٢٤ قيراطاً). وهي وَحدةٌ **لا تُستَعمَلُ بهذا الشُّيوعِ في غيرِ مِصرَ من بِلادِ العَرَب**. وقد ظَلَّ المُؤَرِّخونَ يَذكُرونَ أنّ أهلَ مِصرَ يَختَصُّونَ بهذه التَّسمِية.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

العَلامةُ المَذكورةُ هي الشّاهِد: «**أرضٌ يُسَمّى فيها القيراط**». وهذا تَعريفٌ باصطِلاحٍ مَحَلّيٍّ خاصٍّ بأهلِ بَلَدٍ لم يَدخُلْه المُسلِمونَ بعد – وهو نَوعٌ من التَّفاصيلِ التي لا يَذكُرُها إلّا مَن يَعلَم. ثمّ التَّعليلُ الأعجَب: «فإنّ لهم **ذِمّةً ورَحِماً**» – والرَّحِمُ إشارةٌ إلى هاجَرَ أُمِّ إسماعيلَ عليه السّلام وهي مِصريّة، وإلى ماريةَ القِبطيّةِ أُمِّ إبراهيمَ ابنِ النَّبيِّ ﷺ. فالوَصِيّةُ مَبنِيّةٌ على نَسَبٍ حَقيقيّ. وَصِيّةٌ بحُسنِ مُعامَلةِ شَعبٍ قبلَ فَتحِ بِلادِه بعِشرينَ سنة، مِن رَجُلٍ لا جَيشَ له يومَ قالها.

٨٧

أُوَيسٌ القَرَنيّ... وَصفٌ لرَجُلٍ لم يَرَه

يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ

رواه مُسلِم – صحيح

خَمسُ عَلاماتٍ حُدِّدَت سَلَفاً

- اسمُه: أُوَيسُ بنُ عامِر
- قَبيلتُه: مُرادٌ ثمّ قَرَن
- كان به بَرَصٌ فبَرِئ
- بَقِيَ منه مَوضِعُ دِرهَم
- بارٌّ بأُمِّه لا غير

وَجَدَه عُمَرُ بعدَ سِنينَ بهذه العَلاماتِ كلِّها

عُمَرُ بنُ الخَطّابِ كان يَسألُ عنه في مَواسِمِ الحَجِّ حتّى وَجَدَه

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ رَجُلاً **لم يَرَه قَطُّ ولم يَلقَه**: اسمَه، وقَبيلتَه، وأنّه شُفِيَ من مَرَضٍ إلّا بُقعةً صَغيرةً بقَدرِ قِطعةِ نُقود، وأنّه بارٌّ بأُمِّه. ثمّ وَجَدَه عُمَرُ بهذه الأوصافِ كلِّها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أُوَيسٌ رَجُلٌ مَغمورٌ من اليَمَن، لا جاهَ له ولا ذِكر، ولم يَلقَ النَّبيَّ ﷺ أبداً (ولهذا يُعَدُّ من التّابِعينَ لا الصَّحابة). وبين اليَمَنِ والمدينةِ مَسافةٌ طَويلة، ولا سَبيلَ لمعرفةِ أخبارِ آحادِ النّاسِ فيها. والوَصفُ يَشمَلُ **عَلامةً جَسَديّةً دَقيقةً جِدّاً** لا يَعرِفُها إلّا من رآه عارِياً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

خَرَجَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رَضيَ اللّهُ عنه يَسألُ عن أُوَيسٍ في أمدادِ أهلِ اليَمَنِ سنةً بعدَ سنة، حتّى لَقِيَه، فسألَه عن اسمِه وقَبيلَتِه، ثمّ سألَه عن البَرَصِ فوَجَدَ الأمرَ كما وُصِف، ثمّ سألَه: «ألكَ والِدة؟» قال: نعم. فطَلَبَ منه أن يَستَغفِرَ له. والقِصّةُ بتَمامِها في **صحيحِ مُسلِم**، من أوثَقِ ما رُوِيَ في هذا الباب.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

خَمسُ عَلاماتٍ مُستَقِلّةٍ اجتَمَعَت في رَجُلٍ واحد. الاسمُ والنَّسَبُ قد يُصيبُهما مُتَخَرِّص، لكنّ العَلامةَ الرّابِعةَ هي الفاصِلة: «**كان به بَرَصٌ فبَرَأَ منه إلّا مَوضِعَ دِرهَم**» – فهذا وَصفٌ لمَرَضٍ سابِقٍ، ولشِفاءٍ منه، ولبَقيّةٍ مُحَدَّدةِ الحَجم. ثَلاثُ مَعلوماتٍ في عَلامةٍ واحدة، عن جَسَدِ رَجُلٍ في بَلَدٍ آخَر. والعَجيبُ أنّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ عُمَرَ أن **يَطلُبَ منه الدُّعاء** – فجَعَلَ أميرَ المُؤمِنينَ يَبحَثُ عن راعٍ مَغمورٍ سِنينَ ليَستَغفِرَ له. ولو أخطَأَت عَلامةٌ واحدةٌ لسَقَطَ الخَبَرُ كلُّه أمامَ أعينِ الصَّحابة.

أوّلُ جَيشٍ يَركَبُ البَحر

أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا ... ثُمَّ قَالَ: أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

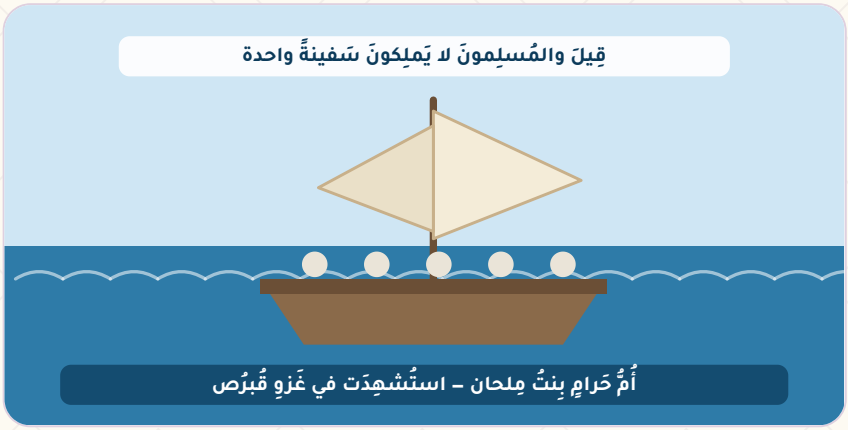

أوّلُ غَزوةٍ بَحريّةٍ في الإسلام – قُبرُص، سنة ٢٨ هـ

بكلامٍ بسيط

رأى النَّبيُّ ﷺ في المَنامِ جَيشاً من أُمّتِه **يَركَبُ البَحر**، فسألَته أُمُّ حَرامٍ أن يَدعُوَ لها أن تَكونَ منهم، فقال: **«أنتِ من الأوَّلين»**. وقد كانت.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَرَبُ أُمّةُ بَرٍّ لا بَحر. لا سُفُنَ لهم ولا مَعرِفةَ بالمِلاحةِ الحَربيّة، والبَحرُ في ثَقافَتِهم مَخوفٌ يُتَجَنَّب. بل إنّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ رَفَضَ الإذنَ بغَزوِ البَحرِ في خِلافَتِه كلِّها خَوفاً على النّاس. فالتَّنبُّؤُ بجَيشٍ بَحريٍّ إسلاميٍّ كان بَعيدَ الاحتِمالِ جِدّاً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

سنة ٢٨ هـ أذِنَ عُثمانُ بنُ عَفّانَ لمُعاويةَ بغَزوِ البَحر، فأُنشِئَ أوّلُ أُسطولٍ إسلاميٍّ وغَزا **قُبرُص**. وخَرَجَت معه **أُمُّ حَرامٍ بِنتُ مِلحان** رَضيَ اللهُ عنها، فلمّا نَزَلَت قُدِّمَت لها دابّةٌ فصَرَعَتها فماتت، فدُفِنَت هناك. وقَبرُها مَعروفٌ في قُبرُصَ إلى اليومِ باسمِ «هالا سُلطان تَكّه» ويَزورُه النّاس. والقِصّةُ في الصَّحيحَين.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثَلاثُ طَبَقاتٍ من الإخبارِ في جُملةٍ قَصيرة. الأولى: أنّ للأُمّةِ **جَيشاً بَحريّاً** أصلاً – وهي أُمّةُ صَحراءَ لا سُفُنَ لها. الثّانية: أنّ امرأةً بعَينِها **ستَكونُ فيه** – وهي يومَئذٍ في المدينةِ لا تُفَكِّرُ في بَحر. الثّالثةُ وهي الأدَقّ: أنّها من «**الأوَّلين**» لا من الآخِرين – أي في **الحَملةِ الأولى** تحديداً، لا في غَزوةٍ لاحِقة. وقد سألَته أن تَكونَ من الطّائفةِ الثّانيةِ التي رآها فقال: «أنتِ من الأوَّلين». فوَقَعَ التَّحديدُ على وَجهِه. وماتَت في تلك الحَملةِ بعَينِها بعدَ نَحوِ عِشرينَ سنةً من الخَبَر.

٨٩

الخَوارِج... ورَجُلٌ إحدى يَدَيه كثَدْيِ المرأة

يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ ... يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

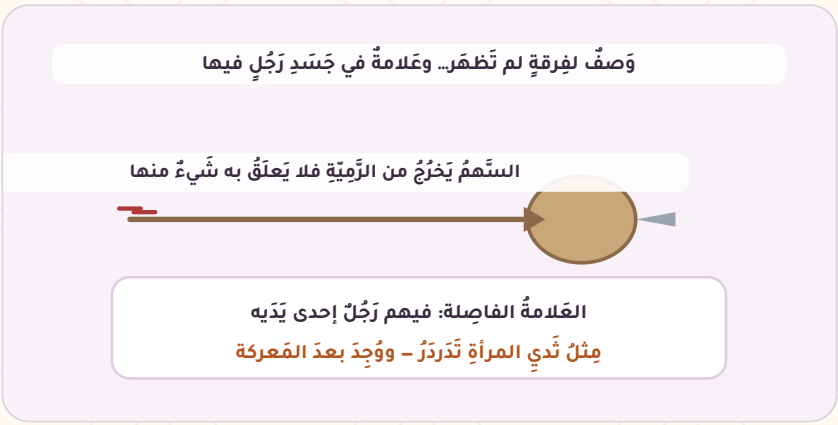

عَليٌّ رَضيَ اللهُ عنه أمَرَ بالبَحثِ عنه بين القَتلى حتّى وُجِد

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ جَماعةً ستَخرُجُ في المُسلِمين: عِبادَتُهم شَديدةٌ ظاهِراً، ويَقرَؤونَ القرآنَ، لكنّهم **يَخرُجونَ من الدِّين**. وأعطى عَلامةً: فيهم رَجُلٌ يَدُه ناقِصةٌ غَريبةُ الشَّكل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن هناك فِرَقٌ ولا انقِسامٌ في الأُمّة. وفِكرةُ قَومٍ **يَجمَعونَ بين شِدّةِ العِبادةِ والخُروجِ من الدِّين** كانت مُتَناقِضةً في ظاهِرِها – فالمُعتادُ أن يَكونَ المُنحَرِفُ مُقَصِّراً في عِبادَتِه لا مُبالِغاً فيها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

ظَهَرَ **الخَوارِجُ** في خِلافةِ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، فكَفَّروا المُسلِمينَ واستَحَلُّوا دِماءَهم، مع اشتِهارِهم بطولِ الصَّلاةِ وكَثرةِ التِّلاوة. وقاتَلَهم عَليٌّ في **النَّهرَوان** سنة ٣٨ هـ. وبعدَ المَعركةِ أمَرَ بالبَحثِ عن الرَّجُلِ المَوصوف، فالتُمِسَ بين القَتلى حتّى وُجِد: رَجُلٌ إحدى يَدَيه كثَدْيِ المرأة، فكَبَّرَ عَليٌّ وقال: «صَدَقَ اللهُ وبَلَّغَ رَسولُه». والقِصّةُ في صحيحِ مُسلِم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّشبيهُ نَفسُه بالِغُ الدِّقّة: «**يَمرُقونَ من الدِّينِ كما يَمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيّة**». والسَّهمُ إذا نَفَذَ من الصَّيدِ خَرَجَ **نَظيفاً لا يَعلَقُ به شَيءٌ من دَمٍ ولا لَحم** – وهذا وَصفٌ لمن يَمُرُّ بالدِّينِ فلا يَبقى معه منه شَيء، مع شِدّةِ سُرعَتِه فيه. لكنّ الحاسِمَ هو **العَلامةُ الجَسَديّة**: تَشوُّهٌ نادِرٌ في ذِراعِ رَجُلٍ واحدٍ بعَينِه، في جَماعةٍ لم تُخلَق بعد، في مَعركةٍ لم تَقَع. وهي عَلامةٌ **قابِلةٌ للفَحصِ فَوراً** – ولهذا فَتَّشَ عَليٌّ عنها بنفسِه بين القَتلى. ولو لم يُوجَد لسَقَطَ الخَبَرُ أمامَ جَيشٍ كامِل.

٩٠

قَومٌ صِغارُ الأعيُنِ عِراضُ الوُجوه

لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُمُ الشَّعَرُ، وَحَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ صِغَارَ الْأَعْيُنِ، حُمْرَ الْوُجُوهِ، ذُلْفَ الْأُنُوفِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

وَصفٌ عِرقيٌّ دَقيقٌ لشَعبٍ لم يَرَه العَرَبُ يومَئذ

«صِغارُ الأعيُنِ · عِراضُ الوُجوهِ · ذُلفُ الأُنوف»

الغَزوُ المَغوليُّ – القَرنُ السّابِعُ الهِجريّ

ملامِحُ شُعوبِ آسيا الوُسطى مَوصوفةٌ قبلَ أن يَراها العَرَبُ بقُرون

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ قَوماً سيُقاتِلُهم المُسلِمون، ووَصَفَ **شَكلَ وُجوهِهم**: عُيونٌ صَغيرة، ووُجوهٌ عَريضةٌ مُستَديرة، وأُنوفٌ قَصيرةٌ مُفَطَّسة. وهذه ملامِحُ شُعوبِ آسيا الوُسطى والمَغول.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَرَبُ في الجَزيرةِ لم يَكونوا يَرَونَ إلّا أنفُسَهم والرُّومَ والفُرسَ والأحباش – وكلُّهم ذَوو ملامِحَ مُختَلِفةٍ تَماماً عن هذا الوَصف. وشُعوبُ السُّهوبِ الآسيويّةِ كانت وراءَ فارِسَ في أقاصي الشَّرق، لا يَبلُغُ خَبَرُها الجَزيرة. ولم يَكُن بين العَرَبِ وبينهم اتِّصالٌ ولا حَربٌ ولا تِجارة.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

وَصَفَ الحَديثُ ثَلاثَ سِماتٍ تَشريحيّةٍ مَعروفةٍ اليومَ بأنّها مُميِّزةٌ لشُعوبِ شَرقِ آسيا وآسيا الوُسطى: **الشَّقُّ الجَفنيُّ الضَّيِّقُ مع طَيّةِ المُوقِ**، و**الوَجهُ العَريضُ المُسطَّحُ بارِزُ الوَجنَتَين**، و**الأنفُ القَصيرُ المُنخَفِضُ القَصَبة**. وقد وَقَعَ القِتالُ فِعلاً: الغَزوُ المَغوليُّ في القَرنِ السّابِعِ الهِجريِّ الذي دَمَّرَ بَغداد سنة ٦٥٦ هـ، ثمّ هُزِمَ في **عَينِ جالوت** سنة ٦٥٨ هـ. وسَبَقَه قِتالُ المُسلِمينَ للتُّركِ في ما وَراءَ النَّهرِ منذُ القَرنِ الأوّل.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا وَصفٌ **أنثروبولوجيٌّ** لا سِياسيٌّ ولا عَسكَريّ. ولم يَقتَصِر على سِمةٍ واحدةٍ قد تُصيبُ بالصُّدفة، بل جَمَعَ **أربَعَ سِماتٍ مُتَلازِمة** تُشَكِّلُ معاً نَمَطاً وَجهِيّاً مُحَدَّداً يَعرِفُه عِلمُ الأعراقِ اليوم. والتَّشبيهُ الأخيرُ بالِغُ الدِّقّة: «كأنّ وُجوهَهم **المَجانُّ المُطرَقة**» – والمِجَنُّ هو التُّرس، والمُطرَقةُ هي التي أُلبِسَت طَبَقاتٍ من الجِلدِ فصارَت عَريضةً مُستَديرةً قَليلةَ البُروز. أن يَصِفَ رَجُلٌ في صَحراءِ الجَزيرةِ ملامِحَ شَعبٍ يَسكُنُ وراءَ الصِّين، ثمّ يُخبِرَ بأنّ أُمّتَه ستُقاتِلُه، أمرٌ لا مَدخَلَ فيه للتَّخمين.

٩١ يَشرَبونَ الخَمرَ يُسَمُّونَها بغيرِ اسمِها

لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا

رواه أبو داود وابنُ ماجه – صحّحه الألبانيّ

التَّسمِيةُ تَتَغَيَّرُ ليَسهُلَ تَناوُلُ ما حُرِّم

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ أُناساً من أُمّتِه سيَشرَبونَ الخَمرَ، لكنّهم **لن يُسَمُّوها خَمراً** – سيُعطونَها أسماءً أُخرى ليَستَسيغوها ويُبَرِّروها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الخَمرُ كانت تُسمّى باسمِها صَراحةً ويُفتَخَرُ بها في الشِّعر. ولم يَكُن أحدٌ يَستَحي منها ولا يَحتاجُ إلى إخفاءِ اسمِها. فالحَديثُ يَتَنَبَّأُ بسُلوكٍ **نَفسِيٍّ واجتِماعيٍّ** مُعَيَّن: أن يَعتَرِفَ النّاسُ بالتَّحريمِ ثمّ يَلتَفُّوا عليه بتَغييرِ التَّسمِية.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

هذه ظاهِرةٌ مَرصودةٌ في عِلمِ الاجتِماعِ واللُّغةِ باسمِ **«التَّلطيفُ اللَّفظيّ»** (Euphemism): تَغييرُ اسمِ الشَّيءِ لتَخفيفِ وَقعِه أو لتَجاوُزِ مَنعِه. وواقِعُنا مَليءٌ بأمثِلَتِها: «مَشروباتٌ رُوحيّة» و«نَبيذٌ صِحّيّ» و«مَشروباتُ طاقة» تَحوي كُحولاً، و«تَمرُ هِنديٍّ مُخَمَّر»، و«بيرةٌ خالِيةٌ من الكُحول» تَحوي نِسبةً منه. والمَبدأُ نفسُه يُستَعمَلُ في الرِّبا («فائدة»، «عائدٌ استِثماريّ»)، وفي غيرِه من المُحَرَّمات.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النُّبوءةُ هنا ليست عن **فِعل** بل عن **حِيلةٍ لُغَويّة** – وهذا أدَقُّ وأصعَبُ. فأن يُقالَ «سيَشرَبُ ناسٌ الخَمر» خَبَرٌ مُتَوَقَّع. أمّا أن يُحَدَّدَ **أُسلوبُ التَّحايُل** – وهو تَبديلُ الاسمِ لا إنكارُ الحُكم – فهذا وَصفٌ لآليّةٍ نَفسِيّةٍ اجتِماعيّةٍ لم تَكُن ظاهِرةً في ذلك المُجتَمَعِ أصلاً. وهي اليومَ بابٌ كامِلٌ في عِلمِ اللُّغةِ الاجتِماعيّ. ويَتَّسِقُ هذا مع حَديثٍ آخَرَ يَذُمُّ من «يَستَحِلُّ الحَرامَ باسمٍ يُسَمّيه إيّاه» – فالقاعِدةُ واحدةٌ وإن تَعَدَّدَت صُوَرُها.

٩٢ لَتَتبَعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم

لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

الأُمَمُ تُعيدُ أخطاءَ سابِقاتِها بدَرَجةٍ تُدهِشُ المُؤَرِّخين

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ هذه الأُمّةَ ستُقَلِّدُ الأُمَمَ التي سَبَقَتها **خُطوةً بخُطوة**، حتّى في الأشياءِ السَّخيفةِ التي لا فائدةَ فيها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان السّائدُ أنّ كلَّ أُمّةٍ لها طَريقُها الخاصّ، وأنّ المُسلِمينَ مُتَمَيِّزونَ بدِينِهم عن أن يَقَعوا فيما وَقَعَ فيه غَيرُهم. ولم يَكُن هناك تَصَوُّرٌ لـ«قانونٍ» يَحكُمُ مَسارَ الأُمَمِ جَميعاً بلا استِثناء.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

هذا هو جَوهَرُ ما يُسمّى في عِلمِ الاجتِماعِ التّاريخيِّ بـ**«الدَّوراتِ الحَضاريّة»**. وقد صاغَه ابنُ خَلدونَ في مُقَدِّمَتِه بعدَ سَبعةِ قُرون، وبَنى عليه أوزوالد شبنغلر وأرنولد توينبي نَظَريّاتِهما في القَرنِ العشرين: **الأُمَمُ تَمُرُّ بأطوارٍ مُتَشابِهةٍ من النُّهوضِ والتَّرَفِ والانحِلال**، وتُعيدُ أخطاءَ سابِقاتِها بصورةٍ تَكادُ تَكونُ حَتميّة. ورَصَدَ عُلَماءُ الاجتِماعِ ظاهِرةً مُوازِيةً في سُلوكِ الأفرادِ سَمَّوها **«تَقليدَ الجَماعة»** (Herd Behaviour).

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعُ الدِّقّةِ في القَيدِ الأخير: «**حتّى لو دَخَلوا جُحرَ ضَبٍّ لاتَّبَعتُموهم**». فالحَديثُ لا يَتَحَدَّثُ عن تَقليدِ النّافِعِ – وهذا مَعقولٌ ومَحمود – بل عن تَقليدِ **ما لا فائدةَ فيه ولا مَعنى له**، بل ما فيه ضَرَرٌ ظاهِر. وهذا هو بالضّبطِ ما يَصِفُه عُلَماءُ الاجتِماعِ اليومَ في مَوضاتِ السُّلوكِ التي تَجتاحُ المُجتَمَعاتِ بلا سَبَبٍ عَقلانيّ. ولاحِظ صِيغةَ القَسَمِ والتَّوكيدِ «**لَتَتَّبِعُنَّ**» – فهي جَزمٌ بالوُقوعِ لا تَحذيرٌ مِن مُحتَمَل. وقد وَقَعَ بصورةٍ لا يُنكِرُها أحد.

تَداعي الأُمَمِ... وغُثاءُ السَّيل

يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. قِيلَ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ

رواه أبو داود وأحمد – صحّحه الألبانيّ

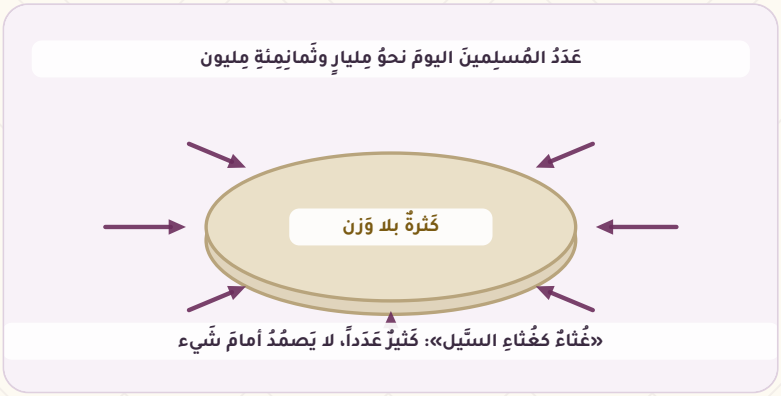

الحَديثُ نَفى أن يَكونَ السَّبَبُ قِلّةَ العَدَد – وحَدَّدَ السَّبَبَ الحَقيقيّ

بكلامٍ بسيط

قال النَّبيُّ ﷺ إنّ الأُمَمَ ستَتَداعى على المُسلِمينَ كما يَتَداعى الآكِلونَ على المائدة. فسُئِل: أمِن قِلّةٍ؟ فقال: **لا، بل أنتم كَثيرون** – لكن بلا وَزنٍ ولا أثَر.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الأُمّةُ في طَريقِها إلى أن تَصيرَ أعظَمَ قُوّةٍ في الأرض. وبعدَ جيلٍ واحدٍ فَتَحَت فارِسَ والشّامَ ومِصرَ وشَمالَ إفريقيا. فالتَّنبُّؤُ بضَعفٍ قادِمٍ – مع **كَثرةٍ عَدَديّة** – بَدا مُتَناقِضاً تَماماً مع المَسارِ الظّاهِر.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عَدَدُ المُسلِمينَ اليومَ نحوُ مِليارٍ وثَمانِمِئةِ مِليون، أي قُرابةَ رُبعِ سُكّانِ الأرض، ويَملِكونَ أكبَرَ احتِياطيّ طاقةٍ في العالَم، ومَواقِعَ جُغرافيّةً استِراتيجيّة. ومع ذلك فنَصيبُهم من الإنتاجِ العِلميّ والصِّناعيّ والاقتِصاديّ العالَميّ ضَئيلٌ بالنِّسبةِ إلى عَدَدِهم، وبِلادُهم من أكثَرِ بِقاعِ الأرضِ نِزاعاً وتَبَعِيّة. **الكَثرةُ العَدَديّةُ قائمة، والوَزنُ الحَضاريُّ غائب** – وهي المُعادَلةُ التي وَصَفَها الحَديثُ بالضّبط.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أهَمُّ ما في هذا الحَديثِ أنّه **استَبَقَ التَّفسيرَ الخاطِئَ ونَفاه صَراحةً**. فحين سُئِلَ: «ومِن قِلّةٍ نحن يومَئذ؟» لم يَقُل نعم – بل قال: «بل أنتم يومَئذٍ كَثير». فأخرَجَ العَدَدَ من المُعادَلةِ كلِّها، وأثبَتَ أنّ **الخَلَلَ في النَّوعِ لا في الكَمّ**.

والتَّشبيهُ بـ«**غُثاءِ السَّيل**» في غايةِ الدِّقّة: الغُثاءُ ما يَحمِلُه السَّيلُ من زَبَدٍ وعِيدانٍ يَعلو السَّطحَ ويَبدو كَثيراً، لا وَزنَ له ولا يَثبُتُ في مَكان، ويَذهَبُ حيثُ يُساقُ لا حيثُ يُريد. ثمّ ذَكَرَ السَّبَبَ في تَتِمّةِ الحَديث: «الوَهَن... حُبُّ الدُّنيا وكَراهيةُ المَوت» – تَشخيصٌ نَفسِيٌّ لا عَسكَريّ.

الباب السّادس

بشاراتُ التّوراةِ والإنجيل

نصوصٌ ما زالت مكتوبةً إلى اليومِ في كُتبِ أهلِ الكتاب، تصفُ نبيّاً قادماً لا تنطبقُ صفاتُه إلّا على رجلٍ واحدٍ في التّاريخ.

١٢ موضوعاً

٩٤

نَبِيّاً مِن وَسَطِ إخوَتِهِم مِثلَك

أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ

سِفرُ التَّثنِية – الإصحاح ١٨، العدد ١٨

مِثلَ موسى

شَريعةٌ كامِلة

أبٌ وأُمّ... ووُلِدَ وماتَ

قائدٌ ومُحارِبٌ ومُشَرِّع

وخَرَجَ بقَومِه مُهاجِراً

مِن وَسَطِ إخوَتِهم

بَنو إسرائيلَ من إسحاق

وإخوَتُهم بَنو إسماعيل

فالنَّبيُّ من العَرَب

لا من بَني إسرائيل

«وأجعَلُ كَلامي في فَمِه» – يَنطِقُ بما يُوحى إليه حَرفاً

ثَلاثةُ شُروطٍ في نَصٍّ واحد: من الإخوة، ومِثلَ موسى، ويَنطِقُ بما يُلقى إليه

بكلامٍ بسيط

يَعِدُ اللهُ موسى بنَبيٍّ قادِمٍ له ثَلاثُ صِفات: يَكونُ من **إخوةِ** بَني إسرائيلَ لا منهم، ويَكونُ **مِثلَ موسى**، و**يَنطِقُ بكَلامٍ يُوضَعُ في فَمِه**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

ظَنَّ اليَهودُ يَنتَظِرونَ هذا النَّبيَّ قُروناً، ويَسألونَ عنه كلَّ مَن يَظهَر. وفي إنجيلِ يوحنّا أنّهم سألوا يَحيى: «أنتَ إيليّا؟» قال: لا. «أنتَ **النَّبيّ**؟» قال: لا. – فدَلَّ على أنّ «النَّبيَّ» شَخصٌ ثالِثٌ مُنتَظَرٌ بعَينِه، غيرُ المَسيحِ وغيرُ إيليّا.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

«**إخوَتُهم**» في لُغةِ التَّوراةِ تَعني بَني العَمّ لا بَني الأب – وبَنو إسرائيلَ من إسحاق، وإخوَتُهم بَنو إسماعيلَ أي العَرَب. وأمّا «**مِثلَك**» فالمُقارَنةُ الدَّقيقةُ تُعطي محمّداً ﷺ: وُلِدَ وِلادةً عاديّةً من أبٍ وأُمّ، وتَزَوَّجَ وأنجَب، وجاء بشَريعةٍ كامِلة، وقادَ قَومَه وحارَبَ وحَكَم، وهاجَرَ من بَلَدِه، وماتَ مَوتاً طَبيعيّاً. وسِفرُ التَّثنِيةِ نفسُه يَختِم: «**ولم يَقُم بعدُ نَبيٌّ في إسرائيلَ مِثلُ موسى**» (٣٤: ١٠) – فأخرَجَ أنبياءَ بَني إسرائيلَ كلَّهم من المُقارَنة.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

الشَّرطُ الثّالثُ هو الحاسِم: «**وأجعَلُ كَلامي في فَمِه فيُكَلِّمُهم بكُلِّ ما أُوصيه به**». هذا وَصفٌ لنَبيٍّ يَنطِقُ **بنَصٍّ يُملى عليه حَرفاً بحَرف**، لا بمَعناه. وهو بالضّبطِ وَصفُ القرآن: «**وما يَنطِقُ عن الهَوى إن هو إلّا وَحيٌ يُوحى**». وأوّلُ ما نَزَلَ على محمّدٍ ﷺ كان أمراً مُباشِراً بالتَّلَقّي: «اقرَأ». ثمّ يَختِمُ النَّصُّ التَّوراتيُّ بتَحذيرٍ شَديد: «ويَكونُ أنّ الإنسانَ الذي لا يَسمَعُ لكَلامي الذي يَتَكَلَّمُ به باسمي أنا أُطالِبُه». فالأمرُ ليس بِشارةً فحَسب، بل **تَكليفٌ بالاتّباع**.

٩٥

وتَلأَلأَ مِن جَبَلِ فاران

❖ جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبَوَاتِ الْقُدْسِ ❖

سِفرُ التَّثنِية – الإصحاح ٣٣، العدد ٢

ثَلاثُ درجاتٍ من النّور: أشرَقَ… ثمّ تَلَأْلَأَ

بكلامٍ بسيط

نَصٌّ في التَّوراةِ يَذكُرُ ثَلاثةَ جِبالٍ بالتَّرتيب: **سيناء** حيث كَلَّمَ اللّهُ موسى، ثمّ **ساعير** أرضُ عيسى، ثمّ **فاران**. وفاران هي – بنَصِّ التَّوراةِ نفسِها – الأرضُ التي سَكَنَها إسماعيلُ وذُرِّيَّتُه: مكّةُ وما حَولَها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

اليَهودُ والنَّصارى يَقرَؤونَ هذا النَّصَّ في كُتُبِهم منذ آلافِ السِّنين. والإشكالُ الذي لم يُحَلَّ عندهم: **ما هو الحَدَثُ الثّالِث؟** فمَجيءُ الرَّبِّ من سيناءَ هو التَّوراة، وإشراقُه من ساعيرَ هو الإنجيل – فما الذي تَلَأْلَأَ من فاران؟ ولم يَقَع في تلك المِنطَقةِ حَدَثٌ دينيٌّ يُوازي الاثنَينِ قَبلَه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

فاران مَوضِعٌ مُحَدَّدٌ في التَّوراةِ نفسِها. جاء في سِفرِ التَّكوين (٢١: ٢١) عن إسماعيل: «**وسَكَنَ في بَرِّيَّةِ فاران، وأَخَذَت له أُمُّه زَوجةً من أرضِ مِصر**». فهي مَوطِنُ ذُرِّيّةِ إسماعيلَ بنَصِّهم. والجُغرافيّونَ المُسلِمونَ ومَعاجِمُ الكِتابِ المُقَدَّسِ تُحَدِّدُ بَرِّيّةَ فارانَ في شِمالِ الحِجازِ وشِبهِ جَزيرةِ سيناءَ وما بينهما. ولم يَخرُج من تلك البَرِّيّةِ نَبيٌّ ذو رِسالةٍ عالَميّةٍ إلّا محمّدٌ ﷺ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّدَرُّجُ في الأفعالِ هو مَوضِعُ الدَّلالة، وهو مَقصودٌ في العِبريّة: «**جاء**» ثمّ «**أشرَقَ**» ثمّ «**تَلَأْلَأَ**» – والتَّلَألُؤُ أقوى النُّورِ وأعَمُّه انتِشاراً. فالنَّصُّ يُرَتِّبُ ثَلاثَ رِسالاتٍ تَصاعُديّاً، ويَجعَلُ الأخيرةَ أسطَعَها. ثمّ يُتبِعُه: «**وأتى من رِبَواتِ القُدس، وعن يَمينِه نارُ شَريعةٍ لهم**» – أي أنّ مع هذا المَجيءِ الأخيرِ **شَريعةً**، لا مَوعِظةً فقط. ومحمّدٌ ﷺ هو النَّبيُّ الوَحيدُ بعدَ موسى الذي جاء بشَريعةٍ كامِلةٍ تَحكُمُ العِبادةَ والمُعامَلةَ والقَضاء.

٩٦

القُدُّوسُ مِن جَبَلِ فاران

اَللهُ جَاءَ مِنْ تَيْمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ

سِفرُ حَبَقّوق – الإصحاح ٣، العدد ٣

مَوضِعانِ في الجَزيرةِ العربيّةِ يَذكُرُهما نَبيٌّ عِبريٌّ قبلَ الميلاد

بكلامٍ بسيط

نَبيٌّ من أنبياءِ بَني إسرائيلَ يَذكُرُ مَوضِعَينِ في **جَزيرةِ العَرَب**: **تَيماء** – وهي مَدينةٌ مَعروفةٌ شَماليَّ الجَزيرةِ إلى اليوم – و**فاران** مَوطِنَ إسماعيل. ويَقولُ إنّ القُدُّوسَ سيَأتي منهما.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

ظَلَّ هذا النَّصُّ عَصِيّاً على التَّفسيرِ عند أهلِ الكِتاب. فلا تَيماءُ ولا فارانُ من أرضِ بَني إسرائيل، ولم يَخرُج منهما نَبيٌّ في تاريخِهم. وحاوَلَ بعضُهم حَملَه على أنّه وَصفٌ شِعريٌّ لمَجيءِ اللهِ في سيناء – لكنّ سيناءَ لم تُذكَر هنا أصلاً، وذُكِرَ مَوضِعانِ عَرَبيّانِ بأسمائهما.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

تَيماء واحةٌ ومَدينةٌ أثَريّةٌ مَشهورةٌ في شِمالِ غَربِ السُّعوديّةِ اليوم، كانت مَحَطّةً رَئيسيّةً على طَريقِ القَوافِلِ بين الحِجازِ والشّام، وفيها آثارٌ ونُقوشٌ تَعودُ إلى ما قبلَ الميلاد. و**فاران** بَرّيّةُ إسماعيلَ كما نَصَّ سِفرُ التَّكوين.

فالنَّصُّ يُشيرُ إلى **مِنطَقةٍ واحدةٍ بعَينِها**: شِمالَ الجَزيرةِ العربيّةِ والحِجاز. وهو المَوضِعُ الذي خَرَجَت منه رِسالةُ محمّدٍ ﷺ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ما يَرفَعُ هذا النَّصَّ عن الاحتِمالِ أمران. الأوّل: أنّه **يُطابِقُ نَصَّ التَّثنِيةِ في ذِكرِ فاران** – نَبيّانِ مُختَلِفانِ في زَمَنَينِ مُختَلِفَينِ يُشيرانِ إلى المَوضِعِ نفسِه. وتَوارُدُ شاهِدَينِ مُستَقِلَّينِ على مَوضِعٍ غَريبٍ عن أرضِهما دَلالةٌ قَويّة.

الثّاني: تَتِمّةُ النَّصّ: «**والأرضُ امتَلأَت من تَسبيحِه**» – أي أنّ أثَرَ هذا المَجيءِ **عالَميٌّ لا مَحَلّيّ**. ولم يَخرُج من تلك الأرضِ أمرٌ مَلَأَ الأرضَ تَسبيحاً إلّا الإسلام، الذي يُرفَعُ به الأذانُ والتَّسبيحُ في كلِّ ساعةٍ من ساعاتِ اليومِ في كلِّ قارّة.

ديارُ قِيدارَ... وسُكّانُ سالِع

لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِيَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ، مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا

سِفرُ إشَعياء – الإصحاح ٤٢، العدد ١١

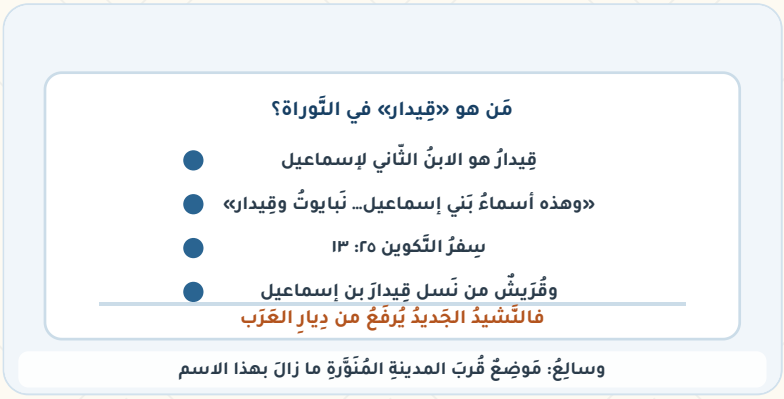

إشَعياء يَدعو ديارَ قِيدارَ إلى التَّرنُّمِ بنَشيدٍ جَديد

بكلامٍ بسيط

يَقولُ إشَعياء: لِتَرفَعِ البَرِّيّةُ صَوتَها، **الدِّيارُ التي سَكَنَها قِيدار**. وقِيدارُ – بنَصِّ التَّوراة – هو ابنُ إسماعيل، وجَدُّ العَرَبِ العَدنانيّينَ الذين منهم قُرَيش.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

الإصحاحُ الثّاني والأربعونَ من إشَعياء يَتَحَدَّثُ عن «عَبدٍ» يَختارُه الله، يَأتي بالعَدلِ للأُمَم، ولا يَكِلُّ ولا يَنكَسِرُ حتّى يُقيمَ الحَقَّ في الأرض. وظَلَّ أهلُ الكِتابِ يَختَلِفونَ في تَعيينِه. لكنّ النَّصَّ نَفسَه يُعَيِّنُ **المَكان**: ديارُ قِيدارَ وسالِع.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

«**قِيدار**» مَذكورٌ في سِفرِ التَّكوين (٢٥: ١٣) ضِمنَ أبناءِ إسماعيلَ الاثنَي عَشَر. والعَرَبُ العَدنانيّونَ – ومنهم قُرَيشٌ وبَنو هاشِم – من نَسلِه. وقد سُمِّيَت مِنطَقةُ شَمالِ الجَزيرةِ في النُّقوشِ الآشوريّةِ باسمِ «قِيدار» فِعلاً. وأمّا «**سالِع**» فمَوضِعٌ مَعروفٌ: جَبَلُ **سَلْع** المُلاصِقُ للمدينةِ المُنَوَّرة، وعِندَه حُفِرَ خَندَقُ الأحزاب، وهو قائمٌ بهذا الاسمِ إلى اليوم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النَّصُّ يَبدأُ في العدد ١ بوَصفِ «عَبدي الذي أسنِدُه» – والعَبدُ لَقَبٌ يُلازِمُ محمّداً ﷺ في القرآن: «سُبحانَ الذي أسرى **بعَبدِه**»، «وأنّه لمّا قامَ **عَبدُ الله** يَدعوه». ثمّ يَقولُ في العدد ١٠: «**غَنُّوا للرَّبِّ أُغنِيةً جَديدة**» – أي شَريعةً جَديدةً لا تَجديدَ قَديم. ثمّ يُحَدِّدُ أهلَ هذه الأُغنِية: ديارَ قِيدارَ وسُكّانَ سالِع – وهما **مَوضِعانِ عَرَبيّانِ خالِصان**، أحدُهما نَسَبُ قُرَيشٍ والآخَرُ جَبَلٌ في المدينةِ المُنَوَّرة. أن يَجتَمِعَ في نَصٍّ واحدٍ نَسَبُ النَّبيِّ ﷺ ومَدينةُ هِجرَتِه، وصِفَتُه «العَبد»، ودَعوةٌ إلى شَريعةٍ جَديدة – اجتِماعٌ لا يَحتَمِلُ المُصادَفة.

٩٨

راكِبُ الحَمِيرِ وراكِبُ الجِمال

فَرَأَى رُكَّابًا أَزْوَاجَ فُرْسَانٍ، رُكَّابَ حَمِيرٍ، رُكَّابَ جِمَالٍ، فَأَصْغَى إِصْغَاءً شَدِيدًا

سِفرُ إشَعياء – الإصحاح ٢١، العدد ٧

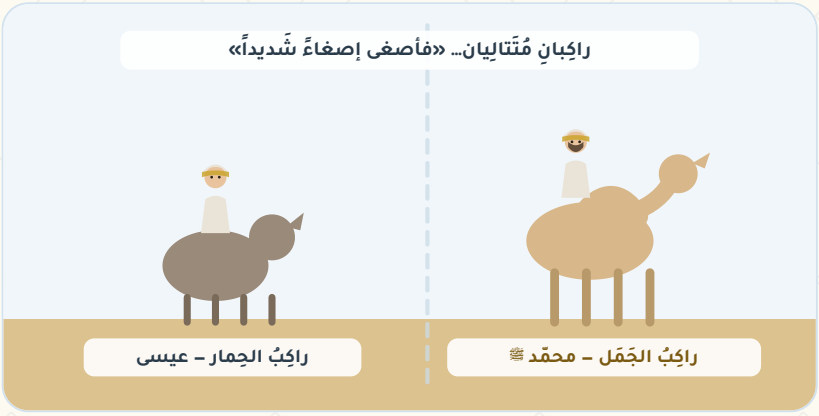

نَصٌّ يَذكُرُ راكِبَيْنِ بعَينِهما ويَأمُرُ بالإنصاتِ لهما

بكلامٍ بسيط

رؤيا في سِفرِ إشَعياء يَرى فيها النَّبيُّ **راكِبَين**: أحدُهما على حِمارٍ والآخَرُ على جَمَل، ويُؤمَرُ بأن يُصغيَ إليهما إصغاءً شَديداً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

فُسِّرَ هذا النَّصُّ عند أهلِ الكِتابِ على أنّه رُؤيا عن سُقوطِ بابِل. لكنّ المَشهَدَ نَفسَه لافِت: راكِبانِ مُتَمَيِّزانِ يُذكَرانِ بمَركوبَيهما، ويُؤمَرُ النَّبيُّ بالإصغاءِ إليهما – والإصغاءُ يَكونُ لرِسالةٍ لا لخَبَرِ حَرب.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

راكِبُ الحِمار عَلامةٌ يَعرِفُها أهلُ الكِتابِ للمَسيحِ عليه السّلام. فقد جاء في سِفرِ زَكَرِيّا (٩: ٩): «هُوَذا مَلِكُكِ يَأتي إليكِ... وَديعاً وراكِباً على حِمار»، وأورَدَت الأناجيلُ دُخولَ المَسيحِ أورَشَليمَ راكِباً حِماراً تَحقيقاً لهذه النُّبوءة. فإذا ثَبَتَ أنّ الأوّلَ هو المَسيح، فمَن هو **راكِبُ الجَمَل** الذي جاء بعدَه، والذي يُؤمَرُ النَّبيُّ بالإصغاءِ إليه كما أُمِرَ بالإصغاءِ إلى الأوّل؟ الجَمَلُ مَركوبُ العَرَب، ولم يَأتِ بعدَ المَسيحِ نَبيٌّ من أهلِ الجِمالِ إلّا محمّدٌ ﷺ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القُوّةُ في **الاقتِرانِ والتَّرتيب**. لم يُذكَر راكِبُ الجَمَلِ وَحدَه فيُقالَ إنّه إشارةٌ عامّةٌ إلى قافِلة – بل قُرِنَ براكِبِ الحِمارِ في مَشهَدٍ واحد، وبَعدَه مُباشَرةً. وقد قَبِلَ أهلُ الكِتابِ بأنّ «راكِبَ الحِمار» عَلامةٌ نُبُوّيّةٌ لشَخصٍ بعَينِه – فلا يَستَقيمُ أن يَكونَ قَرينُه في النَّصِّ نفسِه مُجَرَّدَ تَفصيلٍ لا مَعنى له. والأمرُ بالإصغاء – «**فأصغى إصغاءً شَديداً**» – يُفيدُ أنّ ما سيَأتي **كَلامٌ يُسمَعُ ويُطاع**، لا مَشهَدٌ يُرى. وتَتِمّةُ الإصحاحِ تَذكُرُ «**وَحْيٌ من جِهةِ بِلادِ العَرَب**» وذِكرَ ديدانَ وتَيماءَ و«**مَجدِ قِيدار**» – فالسِّياقُ كلُّه عَرَبيّ.

٩٩

لا أعرِفُ الكِتابة

وَيُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ، وَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ هٰذَا، فَيَقُولُ: لَا أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ

سِفرُ إشَعياء – الإصحاح ٢٩، العدد ١٢

مَشهَدٌ وُصِفَ قبلَ وُقوعِه بأكثَرَ من ألفِ سنة

بكلامٍ بسيط

نَصٌّ في إشَعياء يَصِفُ مَشهَداً: يُعطى كِتابٌ لرَجُلٍ **لا يَعرِفُ القِراءةَ**، ويُقالُ له: «اقرَأ». فيُجيب: «لا أعرِفُ الكِتابة». وهذا بعَينِه ما حَدَثَ في غارِ حِراء.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

النَّصُّ مَوجودٌ في كُتُبِ أهلِ الكِتابِ قبلَ مَولِدِ النَّبيِّ ﷺ بقُرون، ولم يَكُن له مِصداقٌ يُشارُ إليه. وكانوا يَحمِلونَه على مَعنًى رَمزيٍّ عن عَمى بَني إسرائيلَ عن فَهمِ كِتابِهم.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

في غارِ حِراء، سنة ٦١٠ م، جاء جِبريلُ إلى محمّدٍ ﷺ فقال: «**اقرَأ**». فقال: «**ما أنا بقارِئ**». فغَطَّه ثمّ قال: «اقرَأ». فقال: «ما أنا بقارِئ» – ثَلاثَ مَرّات. ثمّ نَزَلَ: «اقرَأْ باسمِ رَبِّكَ الذي خَلَق». والقِصّةُ في صَحيحِ البُخاريِّ ومُسلِمٍ من حَديثِ عائشةَ رَضيَ اللّهُ عنها، وهي من أشهَرِ ما في السِّيرةِ وأثبَتِه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّطابُقُ ليس في المَعنى فَحَسب، بل في **بِنيةِ المَشهَدِ كلِّها**: أمرٌ بالقِراءة، وجَوابٌ بالعَجزِ عنها، من رَجُلٍ لا يَقرَأ. وهذا يَقتَضي شَرطاً لا بُدَّ منه: أن يَكونَ النَّبيُّ المَوعودُ **أُمّيّاً لا يَقرَأُ ولا يَكتُب**. وهي الصِّفةُ التي يُصَرِّحُ بها القرآنُ في محمّدٍ ﷺ ويَجعَلُها دَليلاً: «**وما كُنتَ تَتلو من قَبلِه من كِتابٍ ولا تَخُطُّه بيَمينِك، إذاً لارتابَ المُبطِلون**». ولاحِظ أنّ الأُمّيّةَ هنا ليست نَقصاً، بل هي **البُرهان**: فلو كان قارِئاً كاتِباً لقِيلَ إنّه نَقَلَ ونَسَخ. ونَصُّ إشَعياءَ يَجعَلُ هذا العَجزَ نفسَه عَلامةً، لا عَيباً.

وكُلُّه مُحَمَّدِيم

حِكُّو مَمْتَقِّيم وَكُلُّو مَحَمَدِّيم، زِيه دُودِي وَزِيه رِعِي، بِنُوت يَروشَلَايِم

نَشيدُ الأنشاد – الإصحاح ٥، العدد ١٦ (النَّصُّ العِبريّ)

النَّصُّ العِبريُّ الأصليّ

מַחֲמַדִּים

تُنطَق: مَحَمَدِّيم

وتُرجِمَت في العربيّةِ إلى: «مُشتَهَيات»

الاسمُ مَوجودٌ في النَّصِّ... واختَفى في التَّرجَمة

الكَلِمةُ العِبريّةُ كما هي في النُّسَخِ المُعتَمَدةِ اليوم

بكلامٍ بسيط

في النَّصِّ العِبريِّ لنَشيدِ الأنشادِ تَرِدُ كلمةُ **«مَحَمَدِّيم»** – وهي اسمُ «مُحَمَّد» مع لاحِقةِ التَّعظيمِ العِبريّةِ «يم». وقد تُرجِمَت في النُّسَخِ العربيّةِ إلى «مُشتَهَيات»، فاختَفى الاسم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

النَّشيدُ يَصِفُ مَحبوباً في صُورةٍ شِعريّة، وتُختَمُ أوصافُه بهذه الكَلِمة: «حَلْقُه حَلاوة، **وكُلُّه مَحَمَدِّيم**». وقد فُهِمَ النَّصُّ رَمزاً عن العَلاقةِ بين اللهِ وشَعبِه، أو مُجَرَّدَ شِعرٍ في المَحَبّة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

اللّاحِقةُ «**يم**» في العِبريّةِ لِلجَمعِ وللتَّعظيمِ معاً – كما في «إلوهيم» وهي اسمٌ لله بصيغةِ الجَمعِ مع أنّ المُرادَ واحد. وجِذرُ الكَلِمةِ العِبريِّ «ח־מ־ד» (ح م د) هو نفسُه الجِذرُ العَرَبيُّ «ح م د». فـ«مَحَمَدِّيم» تُقابِلُ في العربيّةِ: **مُحَمَّد**، بصيغةِ التَّعظيم. والكَلِمةُ ما زالت في النَّصِّ العِبريِّ المُعتَمَدِ حتّى اليوم، ويُمكِنُ لأيِّ أحدٍ أن يَراها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعُ الحُجّةِ أنّ الاسمَ **باقٍ في الأصلِ ولم يُحذَف** – إنّما ذابَ في التَّرجَمة. وهذا يَحدُثُ كثيراً: فالأسماءُ الأعلامُ إذا كانت ذاتَ مَعنًى في لُغَتِها قد تُتَرجَمُ فيَضيعُ العَلَم. ولو كان اسمُ «عبدُ الله» في نَصٍّ عَرَبيٍّ لتُرجِمَ «Servant of God» فاختَفى الشَّخص. وقد نَقَلَ القرآنُ أنّ اسمَه ﷺ مَذكورٌ عندهم: «**الذين يَتَّبِعونَ الرَّسولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ الذي يَجِدونَه مَكتوباً عندهم في التَّوراةِ والإنجيل**»، وأنّ عيسى بَشَّرَ «**برَسولٍ يَأتي من بَعدي اسمُه أحمد**». فالقرآنُ يُصَرِّحُ بأنّ **الاسمَ نفسَه** مَوجودٌ عندهم – وها هو في النَّصِّ العِبريِّ إلى اليوم.

١٠١

الفارَقليط... المعزّي الآخَر

وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ

إنجيلُ يوحنّا – الإصحاح ١٤، العدد ١٦

تَشابُهٌ شَديدٌ بين كَلِمَتَينِ في خَطٍّ لم يَكُن يُشَكَّل

بكلامٍ بسيط

وَعَدَ المَسيحُ عليه السّلامُ بمَجيءِ **«فارَقليط»** بعدَه. والكَلِمةُ اليونانيّةُ «باراكليتوس» تُشبِهُ إلى حَدٍّ بَعيدٍ كَلِمةَ «بيريكليتوس» التي مَعناها **«الحَميدُ كَثيرُ الحَمد»** – أي «أحمد».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

اختَلَفَ المُفَسِّرونَ في تَعيينِ «الفارَقليط» منذ القَديم. والنُّسَخُ اليونانيّةُ الأُولى كُتِبَت بحُروفٍ كَبيرةٍ مُتَّصِلةٍ بلا فَواصِلَ ولا حَرَكات، فالخَلطُ بين كَلِمَتَينِ مُتَقارِبَتَينِ في الرَّسمِ وارِدٌ جِدّاً عند النَّسخ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الأوصافُ التي ذَكَرَها المَسيحُ للفارَقليطِ في يوحنّا (١٤ و ١٥ و ١٦) لا تَستَقيمُ إلّا على بَشَر: «**إن لم أنطَلِق لا يَأتيكم المُعَزّي**» – فمَجيئُه مَشروطٌ بذَهابِ المَسيح، ولو كان رُوحاً حاضِراً لما احتاجَ إلى ذلك (وقد ذُكِرَ في الأناجيلِ أنّ الرُّوحَ القُدُسَ كان مع يَحيى في بَطنِ أُمِّه ومع المَسيحِ عندَ مَعموديَّتِه). و«**مُعَزّياً آخَر**» – فهو من جِنسِ الأوّل، أي نَبيٌّ مِثلُه. و«**يَمكُثُ معكم إلى الأبَد**» – أي شَريعةٌ باقِيةٌ لا تُنسَخ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أقوى ما في البابِ هو العدد ١٣ من الإصحاحِ السّادسَ عشر: «**لأنّه لا يَتَكَلَّمُ من نَفسِه، بل كُلُّ ما يَسمَعُ يَتَكَلَّمُ به، ويُخبِرُكم بأُمورٍ آتِية**». هذا وَصفٌ لا يَنطَبِقُ إلّا على نَبيٍّ يُوحى إليه. وقارِنه بقَولِ القرآن: «**وما يَنطِقُ عن الهَوى، إن هو إلّا وَحيٌ يُوحى**» – تَكادُ تَكونُ العِبارةَ نفسَها. ثمّ «**يُخبِرُكم بأُمورٍ آتِية**» – وهذا بابٌ كامِلٌ في هذا الكِتاب: النُّبوءاتُ التي تَحَقَّقَت. فالوَصفُ الوَظيفيُّ مُطابِق، والاسمُ مُتَقارِبٌ في الرَّسم، والشَّرطُ («إن لم أنطَلِق») مُستَوفًى.

١٠٢ يُنزَعُ مِنكم ويُعطى لأُمّةٍ أُخرى

لِذٰلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ

إنجيلُ مَتّى – الإصحاح ٢١، العدد ٤٣

النَّصُّ يَتَحَدَّثُ عن أُمّةٍ لا عن جَماعةٍ من بَني إسرائيل

أُمّةٌ أُخرى	بَنو إسرائيل
«تَعمَلُ أثمارَه»	النُّبُوّةُ فيهم
لا من نَسلِهم	قُروناً مُتَتالِية
«ويُعطى لأُمّة»	«يُنزَعُ مِنكم»

الحَجَرُ الذي رَفَضَه البَنّاؤونَ صارَ رأسَ الزّاوِية

انتِقالُ النُّبُوّةِ من فَرعٍ إلى فَرع… بنَصِّ الإنجيلِ نفسِه

بكلامٍ بسيط

قال المَسيحُ عليه السّلامُ لبَني إسرائيل: إنّ **مُلكَ اللهَ سيُنزَعُ منكم ويُعطى لأُمّةٍ أُخرى** تَعمَلُ بما يُرضيه.
أي أنّ النُّبُوّةَ ستَخرُجُ من بَني إسرائيلَ إلى غيرِهم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت النُّبُوّةُ في بَني إسرائيلَ قُروناً مُتَّصِلة: إبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوبُ ويوسُفُ وموسى وداودُ وسُلَيمانُ وإشَعياءُ وإرميا وحَزقيالُ وغيرُهم. وكانوا يَعتَقِدونَ أنّ النُّبُوّةَ حَقٌّ مَحفوظٌ في نَسلِهم لا يَخرُجُ عنهم أبداً. ولهذا استَنكَروا أن يُبعَثَ نَبيٌّ من العَرَب.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

بُعِثَ محمّدٌ ﷺ من **بَني إسماعيل** – أي من الفَرعِ الآخَرِ لذُرِّيّةِ إبراهيمَ عليه السّلام. فخَرَجَت النُّبُوّةُ من بَني إسحاقَ إلى بَني إسماعيلَ لأوّلِ مَرّةٍ في التّاريخ. وقامَت على يَدِه أُمّةٌ جَديدةٌ لم تَكُن مَوجودةً من قبل، انتَشَرَت في قارّاتِ الأرضِ كلِّها. وقد أشارَ القرآنُ إلى الحَسَدِ الذي يَقَعُ في هذا المَوضِعِ بعَينِه: «**أم يَحسُدونَ النّاسَ على ما آتاهُم اللهُ من فَضلِه**».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

كلمةُ «**أُمّة**» هي الحاسِمة. لم يَقُل «يُعطى لجَماعةٍ منكم» ولا «لبَقِيّةٍ صالِحة» – بل قال «**لأُمّة**»، وهي في اليونانيّةِ (ἔθνος) تَعني **شَعباً آخَر**. والنَّصُّ يَسبِقُه مَثَلُ الكَرمِ الذي قَتَلَ عُمّالُه المُرسَلينَ ثمّ قَتَلوا الابن، فيَستَحِقُّونَ أن يُنزَعَ منهم ويُسلَّمَ لآخَرين. ويَتلوه مُباشَرةً: «**الحَجَرُ الذي رَفَضَه البَنّاؤونَ هو صارَ رأسَ الزّاوِية**» – أي أنّ الفَرعَ المَرفوضَ هو الذي سيَقومُ عليه البِناء. وبَنو إسماعيلَ هم الفَرعُ الذي أُهمِلَ في سِجِلّاتِ النُّبُوّةِ كلِّها – حتّى صارَ منه خاتَمُ الأنبياء.

١٠٣

اثنا عَشَرَ رَئيساً... وأُمَّةً كَبيرة

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً

سِفرُ التَّكوين – الإصحاح ١٧، العدد ٢٠

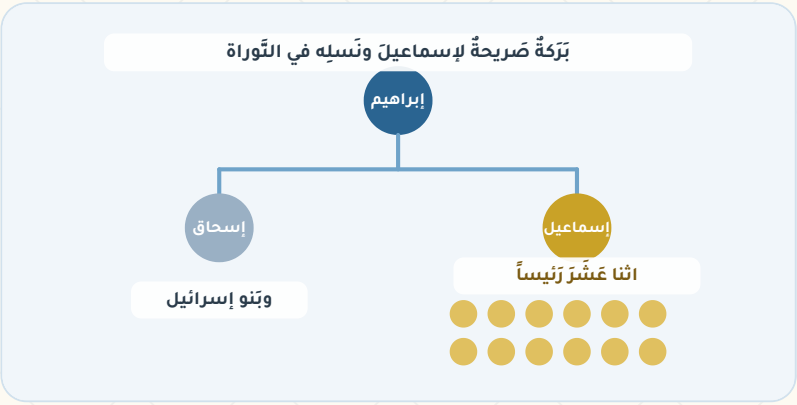

نَصٌّ يُثبِتُ لإسماعيلَ بَرَكةً ونَسلاً وأُمّةً كَبيرة

بكلامٍ بسيط

التَّوراةُ نفسُها تَذكُرُ أنّ اللّهَ بارَكَ **إسماعيل**، ووَعَدَ بأن يَخرُجَ من صُلبِه **اثنا عَشَرَ رَئيساً**، وأن يَجعَلَه **أُمّةً كَبيرة**. فالبَرَكةُ ليست مَقصورةً على إسحاقَ وحدَه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

شاعَ عند بَني إسرائيلَ أنّ المَوعِدَ كلَّه في إسحاقَ ونَسلِه، وأنّ إسماعيلَ وذُرِّيَّتَه خارِجونَ من العَهد. وبُنِيَ على ذلك رَفضُ أيِّ نُبُوّةٍ تَأتي من جِهةِ العَرَب. لكنّ النَّصَّ صَريحٌ في إثباتِ بَرَكةٍ مُستَقِلّةٍ لإسماعيل.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

أبناءُ إسماعيلَ الاثنا عَشَرَ مَذكورونَ بأسمائهم في سِفرِ التَّكوين (٢٥: ١٣-١٦)، وخُتِمَت القائمةُ بقَولِه: «**اثنا عَشَرَ رَئيساً حَسَبَ قَبائِلِهم**» – وهي قَبائلُ العَرَبِ الشَّماليّةِ المَعروفة، وقد وَرَدَت أسماءُ عِدّةٍ منها في النُّقوشِ الآشوريّة. وأمّا وَعدُ «**الأُمّةِ الكَبيرة**» فقد تَحَقَّقَ بالإسلام: أُمّةٌ خَرَجَت من ذُرِّيّةِ إسماعيلَ وبَلَغَت مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النَّصُّ يُبطِلُ الحُجّةَ الأساسيّةَ التي رُدَّت بها نُبُوّةُ محمّدٍ ﷺ. فإذا كانت التَّوراةُ نَفسُها تُثبِتُ لإسماعيلَ **بَرَكةً** و**نَسلاً عَظيماً** و**أُمّةً كَبيرة**، فلا وَجهَ لإقصاءِ فَرعِه من النُّبُوّة. وانتَبِه إلى تَرتيبِ الوَعد: بَرَكةٌ، ثمّ إثمارٌ وتَكثير، ثمّ رِياسةٌ في اثنَي عَشَرَ رَئيساً، ثمّ **«أُمّةً كَبيرة»** – وهي الغايةُ التي خُتِمَ بها. وقد نَصَّ سِفرُ التَّكوين (٢١: ٢١) على أنّ إسماعيلَ سَكَنَ **بَرِّيّةَ فاران** – وهي المَوضِعُ الذي «تَلَألَأَ» منه النُّورُ في نَصِّ التَّثنِية. فالنُّصوصُ يُصَدِّقُ بعضُها بعضاً ويُشيرُ بعضُها إلى بَعضٍ في اتِّجاهٍ واحد.

مُقارَنة ١٠٤

مِثلَ موسى... المقارَنةُ التي تَحسِم

> وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ
>
> سِفرُ التَّثنِية – الإصحاح ٣٤، العدد ١٠

الصِّفة	موسى	محمّد ﷺ
وِلادةٌ طَبيعيّة	✓	✓
أبٌ وأُمّ	✓	✓
زَوجٌ وأولاد	✓	✓
شَريعةٌ كامِلة	✓	✓
قائدٌ ومُحارِب	✓	✓
هجرةٌ من بَلَده	✓	✓

«مِثلَك» – والتّوراةُ تَنفي أن يَكونَ من بَني إسرائيل

سَبعُ صِفاتٍ تَجتَمِعُ في اثنَينِ ولا تَجتَمِعُ في ثالِث

بكلامٍ بسيط

التَّوراةُ وَعَدَت بنَبيٍّ **مِثلِ موسى**. وحين نُقارِن، نَجِدُ أنّ الصِّفاتِ تَجتَمِعُ في محمّدٍ ﷺ ولا تَجتَمِعُ في غيرِه من الأنبياء.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

ظَلَّ أهلُ الكِتابِ يَنتَظِرونَ «النَّبيَّ الذي مِثلُ موسى» ولم يُعَيِّنوه تَعييناً مُتَّفَقاً عليه. وكلُّ من ادُّعِيَ فيه ذلك من أنبياءِ بَني إسرائيلَ يَنقُصُه شَرطٌ أو أكثَر: فلا شَريعةَ جَديدةً عندهم، ولا قِيادةَ دَولةٍ ولا حَرب.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

وَجهُ الشَّبَهِ بين موسى ومحمّدٍ ﷺ يَشمَلُ: وِلادةً طَبيعيّةً من أبٍ وأُمّ، وحَياةً زَوجيّةً وذُرِّيّة، و**شَريعةً كامِلةً** تَحكُمُ العِبادةَ والمُعامَلاتِ والقَضاءَ والحُدود، وقِيادةً لأُمّةٍ وجِهاداً وحُكماً، و**هِجرةً** من بَلَدِ الاضطِهادِ إلى بَلَدِ التَّمكين، وانتِصاراً على أعدائه في حَياتِه، ومَوتاً طَبيعيّاً ودَفناً في الأرض. وهذه كلُّها لا تَجتَمِعُ في نَبيٍّ آخَرَ بعدَ موسى.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّوراةُ نَفسُها أغلَقَت الباب: «**ولم يَقُم بعدُ نَبيٌّ في إسرائيلَ مِثلُ موسى**». فهذه شَهادةٌ صَريحةٌ بأنّ النَّبيَّ المَوعودَ **ليس من بَني إسرائيل**، وإلّا لَناقَضَ النَّصُّ نَفسَه. فإذا ضُمَّ هذا إلى قَولِه في العدد ١٨ «من وَسَطِ **إخوَتِهم**»، خَرَجَت النَّتيجةُ حَتماً: نَبيٌّ من بَني عَمِّهم – بَني إسماعيل. وقد فَهِمَ اليَهودُ هذا قَديماً؛ ولذلك جاء في القرآن: «**وكانوا من قَبلُ يَستَفتِحونَ على الذين كَفَروا، فلمّا جاءَهم ما عَرَفوا كَفَروا به**» – أي كانوا يَنتَظِرونَه ويُبَشِّرونَ به، حتّى جاء من غيرِ نَسلِهم.

١٠٥ يَجِدونَه مَكتوباً عِندَهم

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ

سورة الأعراف – الآية ١٥٧

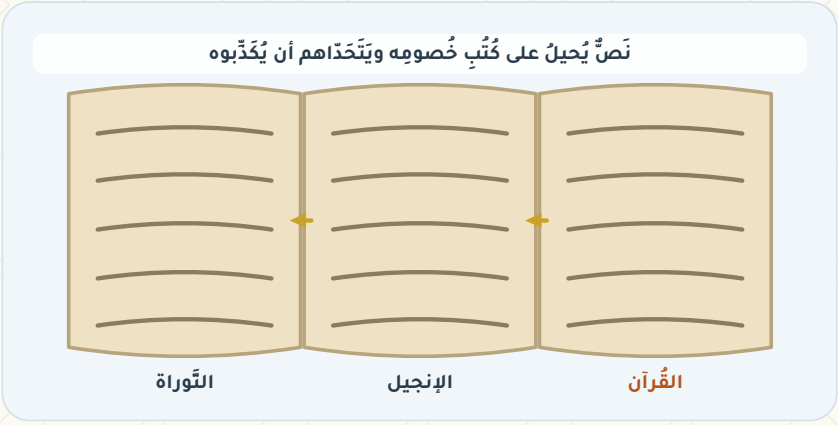

القرآنُ يَستَشهِدُ بما في أيدي أهلِ الكِتابِ لا بما عندَه وحدَه

بكلامٍ بسيط

القرآنُ يقولُ صَراحةً إنّ صِفةَ النَّبيِّ ﷺ **مَكتوبةٌ في التَّوراةِ والإنجيل** التي في أيدي أهلِ الكِتاب. وهذا تَحَدٍّ مَفتوحٌ لهم أن يَفتَحوا كُتُبَهم ويَنظُروا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان اليَهودُ والنَّصارى في المدينةِ ونَجرانَ واليَمَنِ يَملِكونَ كُتُبَهم ويَقرَؤونَها. وكان بينهم عُلَماءُ مُتَخَصِّصونَ في نُصوصِها. فالادِّعاءُ بأنّ وَصفَ النَّبيِّ ﷺ في كُتُبِهم كان **يُمكِنُ تَكذيبُه في يَومِه** لو لم يَكُن له أصل.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

هذه النُّصوصُ التي مَرَّت – التَّثنِية ١٨، والتَّثنِية ٣٣، وحَبَقّوق ٣، وإشَعياء ٢١ و٢٩ و٤٢، ونَشيدُ الأنشاد ٥، ويوحنّا ١٤ و١٦، ومَتّى ٢١، والتَّكوين ١٧ و٢١ – **كلُّها مَوجودةٌ في النُّسَخِ المُعتَمَدةِ اليوم**، يُمكِنُ لأيِّ قارِئٍ أن يَفتَحَ الكِتابَ ويَقرَأَها. ولم تَدَّعِ الآيةُ أنّ الاسمَ مُصَرَّحٌ به في كلِّ مَوضِع، بل قالت «**يَجِدونَه**» – أي يَجِدونَ وَصفَه وعَلاماتِه فيَعرِفونَه بها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القُوّةُ هنا من نَوعٍ مُختَلِف. القرآنُ لا يَستَدِلُّ بنَفسِه، بل **يُحيلُ على كِتابِ الخَصم**. وهذا أخطَرُ أنواعِ الاستِدلالِ وأسهَلُها تَكذيباً – يَكفي أن يَفتَحوا كُتُبَهم فيُظهِروا خُلُوَّها. ومع ذلك أسلَمَ من عُلَمائهم من أسلَمَ لهذا السَّبَبِ بعَينِه – كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ حَبرِ يَهودِ المدينة. ثمّ زادَ القرآنُ في الجُرأة: «**يَعرِفونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم**» – تَشبيهٌ لا يَقولُه إلّا واثِق. وبَقاءُ هذه النُّصوصِ في كُتُبِهم أربعةَ عشرَ قَرناً، يَقرَؤُها الباحِثونَ ويُناقِشونَها، هو نفسُه استِمرارٌ للتَّحَدّي إلى اليوم.

الباب السّابع

مُعجزاتُ النّبيِّ ﷺ الحِسّيّة

ما رآه أصحابُه بأعينِهم فنقلوه لنا بأسانيدَ متّصلة: الماءُ ينبعُ من أصابعه، والجِذعُ يبكي شوقاً إليه، والقمرُ ينشقُّ فوقَ مكّة.

١٦ موضوعاً

١٠٦ انشَقَّ القَمَرُ فَوقَ مكّة

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ

سورة القَمَر – الآيتان ١-٢

حَدَثٌ رآه أهلُ مكّةَ جَميعاً – مُؤمِنُهم وكافِرُهم

بكلامٍ بسيط

انشَقَّ القَمَرُ في السَّماءِ نِصفَين، حتّى رأى النّاسُ جَبَلَ حِراءٍ بينهما. ولم يُنكِر المُشرِكونَ أنّهم رأوا – بل قالوا: **«سَحَرَنا محمّد»**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت قُرَيشٌ تُطالِبُ النَّبيَّ ﷺ بآيةٍ حِسّيّةٍ تُثبِتُ صِدقَه. فلمّا وَقَعَت، لم يَقولوا «لم نَرَ شَيئاً» – وهو أسهَلُ رَدٍّ وأسلَمُه – بل فَسَّروا ما رأوه بالسِّحر. **وهذا في نَفسِه إقرارٌ بالمُشاهَدة.**

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الآيةُ نَزَلَت بصيغةِ **الماضي المُحَقَّق**: «انشَقَّ القَمَر» – لا «سيَنشَقّ». وحَديثُ الانشِقاقِ مَرويٌّ في **صحيحِ البُخاريِّ ومُسلِمٍ** من طُرُقٍ مُتَعَدِّدةٍ عن جَماعةٍ من الصَّحابة: ابنِ مَسعود، وأنَسٍ، وابنِ عبّاس، وجُبَيرِ بنِ مُطعِم، وعَليّ. ورِواياتُهم مُتَّفِقةٌ على الوَصف: «حتّى رَأَوا الجَبَلَ بين فِلقَتَي القَمَر». وقد بَلَغَ الخَبَرُ حَدَّ التَّواتُرِ عند أئمّةِ الحَديث.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الدَّليلُ هنا ليس في الحَدَثِ وَحدَه، بل في **رَدِّ فِعلِ الخُصوم**. فالآيةُ تُلي عليهم في مكّةَ وهم أحياء، تُقَرِّرُ أنّ القَمَرَ قدِ انشَقَّ أمامَ أعيُنِهم. ولو لم يَقَع لكان أيسَرَ شَيءٍ عليهم أن يَقولوا: «مَتى؟ لم نَرَ». وهم أحرَصُ النّاسِ على تَكذيبِه، ولم يَتَوَرَّعوا عن اتِّهامِه بالشِّعرِ والسِّحرِ والجُنون. لكنّهم **اختاروا التَّفسيرَ لا الإنكار** – وهذا أقوى شاهِدٍ مُمكِن. والآيةُ نَفسُها سَجَّلَت رَدَّهم: «**ويَقولوا سِحرٌ مُستَمِرّ**» – فوَثَّقَت الحُجّةَ وجَوابَها معاً.

١٠٧ الماءُ يَنبُعُ من بينِ أصابِعِه

فَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا. قِيلَ لِأَنَسٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: زُهَاءَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

لم يَنبُع من الإناء... بل من بينِ الأصابِع

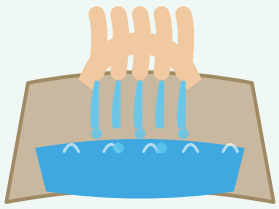

نَحوُ ثَلاثِمِئةِ رَجُلٍ شَرِبوا وتَوَضَّؤوا من إناءٍ واحد

مَشهَدٌ رواه أنَسُ بنُ مالِكٍ وجابِرٌ وابنُ مَسعودٍ وغيرُهم

بكلامٍ بسيط

نَفِدَ الماءُ والنّاسُ عِطاش. فوَضَعَ النَّبيُّ ﷺ يَدَه في إناءٍ صَغير، **فتَفَجَّرَ الماءُ من بين أصابِعِه كالعُيون**، حتّى شَرِبَ الجَيشُ كلُّه وتَوَضّأ.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم يَكُن في ذلك المَوقِفِ بِئرٌ ولا مَطَر. والماءُ في الصَّحراءِ مَسألةُ حَياةٍ أو مَوت. ومِئاتٌ من النّاسِ يَحتاجونَ الماءَ في وَقتٍ واحد. والإناءُ الصَّغيرُ لا يَكفي رَجُلاً واحداً لو أُريدَ به الوُضوءُ والشُّرب.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحادِثةُ مَرويّةٌ في **الصَّحيحَين** عن أنَسِ بنِ مالِكٍ وجابِرِ بنِ عبدِ اللهِ وعبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ وغيرِهم، في مَواطِنَ مُختَلِفة – الحُدَيبِيَةِ وتَبوكَ وغيرِهما. وقد وَقَعَت أكثَرَ من مَرّة، وشَهِدَها الآلاف. وابنُ مَسعودٍ يَقول: «كُنّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكَةً، وأنتم تَعُدُّونها تَخويفاً. كُنّا مع رَسولِ اللهِ ﷺ في سَفَر، فقَلَّ الماء، فقال: اطلُبوا فَضلةً من ماء...».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّفصيلُ الفارِقُ هو مَوضِعُ النَّبْع: «**من بينِ أصابِعِه**» لا من الإناء. ولو أُريدَ اختِلاقُ خَبَرٍ لكان الأقرَبُ أن يُقالَ إنّ الإناءَ امتَلَأ – فهذا أبسَط. أمّا نُبوعُ الماءِ من بين أصابِعِ يَدٍ بَشَريّةٍ فوَصفٌ غَريبٌ دَقيقٌ لا يُقالُ إلّا عن مُشاهَدة. والأهَمُّ هو **شُهودُ العَدَد**: «زُهاءَ الثَّلاثِمِئة» في رِوايةِ أنَس، وألفٌ وأربَعُمِئةٍ في رِوايةِ جابِرٍ يومَ الحُدَيبِيَة. خَبَرٌ يَشهَدُه هذا العَدَدُ ثمّ يُروى ويُدَوَّنُ ولا يُنكِرُه واحِدٌ منهم، لا يُمكِنُ أن يَكونَ قد اختُلِقَ بعدَهم.

١٠٨

صاعٌ من شَعيرٍ أشبَعَ ألفاً

فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ... فَقَالَ: ادْعُ أَهْلَ الْخَنْدَقِ. وَهُمْ أَلْفٌ ... فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

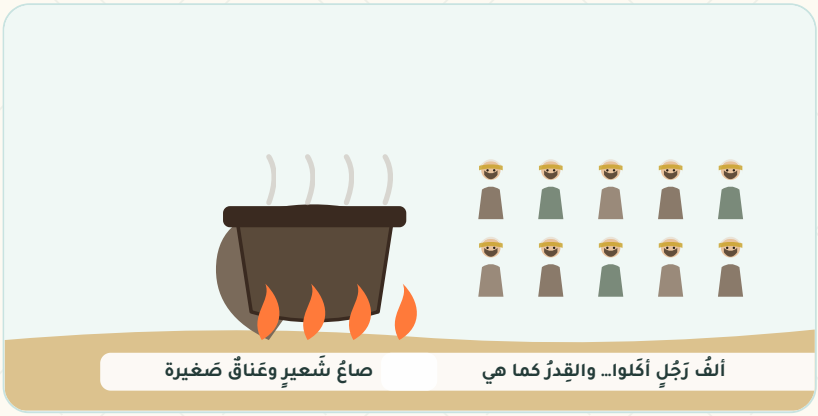

يومَ الخَندَقِ – والنّاسُ يَربِطونَ الحِجارةَ على بُطونِهم من الجُوع

بكلامٍ بسيط

دَعا جابِرٌ النَّبيَّ ﷺ إلى طَعامٍ قَليلٍ يَكفي بِضعةَ أشخاص، فدَعا النَّبيُّ ﷺ ألفَ رَجُلٍ من حافِري الخَندَق. **فأكَلوا كلُّهم حتّى شَبِعوا، والقِدرُ ما زالت مُمتَلِئة.**

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان ذلك في أشَدِّ أيّامِ الحِصار. والمُسلِمونَ جائعون، حتّى شَدَّ النَّبيُّ ﷺ على بَطنِه حَجَراً من الجُوع. والطَّعامُ صاعٌ من شَعيرٍ وعَناقٌ صَغيرة – لا يَكفي إلّا بَيتاً واحداً. وقد اعتَذَرَ جابِرٌ سِرّاً لامرأتِه ممّا فَعَل.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الحَديثُ بطولِه في **صحيحِ البُخاريّ**، يَرويه جابِرُ بنُ عبدِ اللهِ عن نَفسِه ومَوقِفِه، بتَفاصيلَ بَيتيّةٍ دَقيقة: حِوارُه مع امرأتِه، وخَوفُه من الفَضيحة، ونَهيُ النَّبيِّ ﷺ عن إنزالِ القِدرِ عن النّار، وأمرُه بأن يُغرَفَ ولا يُكشَف. ويُقسِمُ جابِرٌ في آخِرِه: «فأقسَمَ باللهِ لقد أكَلوا حتّى تَرَكوه وانصَرَفوا، **وإنّ بُرمَتَنا لَتَغِطُّ كما هي**» – أي ما زالت تَغلي مُمتَلِئة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مِثلُ هذه الحادِثةِ لا تُختَلَق، لأنّها وَقَعَت أمامَ **ألفِ شاهِد** في مَكانٍ واحدٍ ووَقتٍ واحد. ولو كانت كَذِباً لكانَ في الجَيشِ مِئاتٌ يُكَذِّبونَها، وفيهم مُنافِقونَ يَتَرَبَّصون. والأدَقُّ من ذلك أنّ الرّاويَ يَحكي عن **حَرَجِه الشَّخصيّ** وخَوفِه من قِلّةِ الطَّعام – وهذا تَفصيلٌ لا يُضيفُه مُختَلِقٌ يُريدُ تَعظيمَ نَفسِه. ونَظائرُ هذه الحادِثةِ كَثيرةٌ في الصِّحاح: طَعامُ تَبوك، وتَمرُ ابنِ الجَراح، ودَينُ أبي جابِرٍ الذي قُضِيَ من تَمرٍ لا يَكفي عُشرَه.

جَمادٌ يَبكي

١٠٩ الجِذعُ الذي حَنَّ إليه

كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا. فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ ... سَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ

رواه البُخاريّ – صحيح

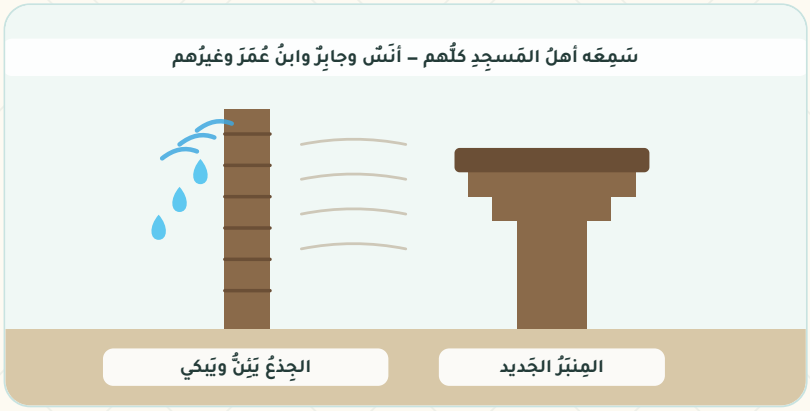

جِذعُ نَخلةٍ أنَّ أنينَ النّاقةِ التي فُقِدَ وَلَدُها

بكلامٍ بسيط

كان النَّبيُّ ﷺ يَخطُبُ مُستَنِداً إلى جِذعِ نَخلة. فلمّا صُنِعَ له مِنبَر، **بَكى الجِذعُ وأنَّ** حتّى سَمِعَه كلُّ من في المَسجِد – فنَزَلَ ﷺ واحتَضَنَه فسَكَن.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجِذعُ خَشَبةٌ جافّةٌ لا حِسَّ فيها. وأن يُصدِرَ صَوتاً مَسموعاً كصَوتِ النّاقةِ التي فارَقَها وَلَدُها، أمرٌ لا يُقاسُ على شَيء. والمَسجِدُ يومَئِذٍ مَملوءٌ بالنّاسِ في يومِ جُمُعة.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في **صحيحِ البُخاريّ** وغيرِه، ومَرويٌّ عن جَماعةٍ من الصَّحابةِ من طُرُقٍ كَثيرة: جابِرِ بنِ عبدِ الله، وأنَسِ بنِ مالِك، وعبدِ اللهِ بنِ عُمَر، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وسَهلِ بنِ سَعدٍ، وبُرَيدةَ وغيرِهم – حتّى عَدَّه أهلُ العِلمِ من **المُتَواتِر**. قال الحَسَنُ البَصريُّ حين حَدَّثَ به: «يا مَعشَرَ المُسلِمين! الخَشَبةُ تَحِنُّ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ شَوقاً إليه، فأنتم أحَقُّ أن تَشتاقوا إليه».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

مَوضِعُ الحُجّةِ أنّ هذا وَقَعَ في **مَسجِدِ المدينةِ يومَ الجُمُعة**، أي أمامَ أكبَرِ تَجَمُّعٍ أُسبوعيٍّ في المدينة، لا في خَلوةٍ ولا أمامَ نَفَرٍ قَليل. وقد رواه عَدَدٌ كَبيرٌ من الصَّحابةِ كلٌّ بلَفظِه، ووَصَفوا الصَّوتَ وَصفاً مُتَقارِباً – «كصَوتِ العِشار» أي النّاقةِ الحامِل. والتَّفصيلُ الأخيرُ هو ما يَرفَعُ الخَبَرَ عن الخَيال: أنّه **سَكَنَ حين وَضَعَ يَدَه عليه**. وفي رِوايةٍ أنّه قال: «لو لم ألتَزِمْه لَحَنَّ إلى يومِ القِيامة». خَبَرٌ يَشهَدُه مَسجِدٌ كامِلٌ ثمّ يَرويه عَشَراتُ الصَّحابةِ ولا يُنكِرُه أحدٌ ممّن حَضَر.

١١٠

وَصَفَ بيتَ المَقدِسِ ولم يَرَه قَطّ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ

سورة الإسراء – الآية ١

أخبَرَ قُرَيشاً في الصَّباح، فسَألوه عن وَصفِ المَسجِدِ بابًا بابًا

بكلامٍ بسيط

أُسرِيَ بالنَّبيِّ ﷺ من مكّةَ إلى بيتِ المَقدِسِ في لَيلة. فلمّا أخبَرَ قُرَيشاً كَذَّبوه، **وسَألوه أن يَصِفَ المَسجِدَ** – وفيهم من رآه. فوَصَفَه لهم حتّى قالوا: «أمّا النَّعتُ فقد أصاب».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

المَسافةُ بين مكّةَ وبيتِ المَقدِسِ نحوُ ١٢٠٠ كيلومتر، تَقطَعُها القافِلةُ في شَهرٍ ذَهاباً ومِثلِه إياباً. والنَّبيُّ ﷺ **لم يَكُن قد رأى بيتَ المَقدِسِ في حَياتِه قَطّ**. وفي مكّةَ تُجّارٌ كَثيرونَ زاروا الشّامَ ورَأَوا المَسجِدَ وعَرَفوا مَعالِمَه. فكان التَّحَدّي في أخطَرِ صُوَرِه: **وَصفُ مَكانٍ يَعرِفُه خُصومُك ولا تَعرِفُه أنت**.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحادِثةُ في **الصَّحيحَين** وغيرِهما. روى البُخاريُّ ومُسلِمٌ عن جابرٍ رَضيَ اللّهُ عنه أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لمّا كَذَّبَتني قُرَيشٌ قُمتُ في الحِجر، فجَلَّى اللّهُ لي بيتَ المَقدِس، **فطَفِقتُ أُخبِرُهم عن آياتِه وأنا أنظُرُ إليه**». وفي رِوايةٍ أنّهم سألوه عن عَدَدِ أبوابِه فعَدَّها لهم. ثمّ أخبَرَهم عن عِيرٍ لهم في الطَّريق ووَصَفَها ومَوعِدَ قُدومِها – فجاءت كما قال.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

هذا اختِبارٌ **فَوريٌّ ومُباشِرٌ وقابِلٌ للتَّكذيب** في مَجلِسٍ واحد. لم يُطلَب منه أن يَصِفَ شَيئاً غائباً لا يُعرَف، بل مَكاناً **يَعرِفُه السّائلون** ولا يَعرِفُه هو. وأيُّ خَطأٍ في وَصفٍ واحدٍ كان كافِياً لهَدمِ الدَّعوةِ في يَومِها. وقد اعتَرَفوا بصِحّةِ الوَصفِ ثمّ أعرَضوا – كما هي عادَتُهم مع كلِّ آية. وأمّا الشّاهِدُ الأقوى فهو **خَبَرُ العِير**: أخبَرَهم بقافِلَتِهم وأينَ هي ومَتى تَصِل، فانتَظَروا فوَجَدوها كما قال يومَ قال. شَهادةٌ مُستَقِلّةٌ تَحَقَّقَت بأيديهم هم لا بيَدِه.

١١ مَصارِعُ القَتلى قبلَ المعركة

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

رواه مُسلِم – صحيح

مَواضِعُ مَرسومةٌ في الرَّملِ... وُجِدَت الجُثَثُ عليها

بكلامٍ بسيط

قبلَ مَعركةِ بَدرٍ بيَوم، مَشى النَّبيُّ ﷺ في أرضِ المَعركةِ يُشيرُ بيَدِه إلى مَواضِعَ في الأرضِ ويَقول: **هنا يُقتَلُ فُلان، وهنا يُقتَلُ فُلان**. فلمّا وَقَعَت المَعركةُ، لم يُجاوِز أحدٌ منهم المَوضِعَ الذي أشارَ إليه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

بَدرٌ كانت أوّلَ مُواجَهةٍ كُبرى، والمُسلِمونَ ثَلاثُمِئةٍ ونَيِّف، والمُشرِكونَ نحوَ ألف. ولم يَكُن أحدٌ يَجزِمُ بمَن يَنتَصِرُ فَضلاً عن أن يُعَيِّنَ القَتلى بأسمائهم ومَواضِعِهم. وفي الحَربِ يَتَحَرَّكُ النّاسُ ويَكِرُّونَ ويَفِرُّون؛ فتَحديدُ **البُقعةِ التي يَسقُطُ فيها كلُّ رَجُل** أمرٌ لا يُقاسُ على شَيء.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في **صحيحِ مُسلِم** عن أنَسِ بنِ مالِكٍ وعن عُمَرَ بنِ الخَطّاب. وفي رِوايةِ أنَس: «فجَعَلَ يَقول: هذا مَصرَعُ فُلانٍ غداً – ويَضَعُ يَدَه على الأرضِ ههنا وههنا. قال: **فما ماطَ أحَدُهم عن مَوضِعِ يَدِ رَسولِ اللهِ ﷺ**». وثَبَتَ كذلك أنّه وَقَفَ على القَليبِ بعدَ المَعركةِ يُناديهم بأسمائهم: «يا فُلانَ بنَ فُلان، يا فُلانَ بنَ فُلان، هل وَجَدتم ما وَعَدَ رَبُّكم حَقّاً؟».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النُّبوءةُ هنا **مُسَجَّلةٌ في الأرضِ نَفسِها قبلَ وُقوعِها**، ويَراها الجَيشُ كلُّه. وهي من أشَدِّ الأخبارِ قابِليّةً للتَّكذيب: يَكفي أن يَسقُطَ رَجُلٌ واحدٌ في غيرِ مَوضِعِه ليَبطُلَ الأمرُ أمامَ ثَلاثِمِئةٍ شاهِد. وقد جَمَعَت بين ثَلاثةِ أشياء: **تَعيينُ الأشخاصِ بأسمائهم**، و**الجَزمُ بمَقتَلِهم** أي بانتِصارِ الفِئةِ القَليلة، و**تَحديدُ البُقعةِ بالشِّبر**. ثَلاثةُ قُيودٍ في خَبَرٍ واحد، تَحَقَّقَت في اليومِ التّالي أمامَ عَينِ الجَيشَين.

١١٢

البَعيرُ الذي بَكى وشكا

فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ. فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ. فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ ... فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ

رواه أبو داود – صحّحه الألبانيّ

مَشى البَعيرُ إليه وذَرَفَت عَيناه – بمَشهَدٍ من الصَّحابة

بكلامٍ بسيط

دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ حائطاً لرَجُلٍ من الأنصار، فجاءه بَعيرٌ **يَبكي**. فمَسَحَ رأسَه فسَكَن. ثمّ دَعا صاحِبَه وقال له: **«إنّه شَكا إليَّ أنّك تُجيعُه وتُتعِبُه»**.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحَيَوانُ لا يَشتَكي ولا يُفهَمُ عنه. وعَلاقةُ الرَّجُلِ ببَعيرِه أمرٌ خاصٌّ بينه وبينه، لا يَعلَمُ أحدٌ كَيفَ يُعامِلُه في خَلوَتِه. فالخَبَرُ فيه أمرانِ معاً: **فَهمُ شَكوى الحَيَوانِ**، و**الاطّلاعُ على سِرٍّ لا يَعلَمُه إلّا صاحِبُه**.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في سُنَنِ أبي داود ومُسنَدِ أحمدَ من حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ جَعفَرٍ رَضيَ اللهُ عنهما، وصَحَّحَه الألبانيُّ وغيرُه. وله نَظائرُ ثابِتةٌ في الصِّحاح: كحَديثِ **الشّاةِ المَسمومةِ بخَيبَر** التي أخبَرَته أنّها مَسمومةٌ فامتَنَعَ وأنذَرَ أصحابَه (البُخاريُّ ومُسلِم)، و**حَديثِ الذّئبِ الذي كَلَّمَ الرّاعي** وأخبَرَه بخُروجِ النَّبيِّ ﷺ (رواه أحمدُ وصُحِّح). ولم يَكُن العَرَبُ يَعرِفونَ من هذا شيئاً، بل استَعظَموه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الأثَرُ العَمَليُّ للحادِثةِ هو ما يَجعَلُها ذاتَ دَلالة. فالنَّبيُّ ﷺ لم يَكتَفِ بإظهارِ الآية، بل حَوَّلَها إلى **تَشريعٍ في الرِّفقِ بالحَيَوان**: «أفلا تَتَّقي اللهَ في هذه البَهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إيّاها؟». وهذا مُتَّسِقٌ مع بابٍ كامِلٍ في سُنَّتِه: النَّهيُ عن تَعذيبِ الحَيَوانِ وعن اتِّخاذِه غَرَضاً، وحَديثُ المرأةِ التي دَخَلَت النّارَ في هِرّةٍ حَبَسَتها، والرَّجُلِ الذي غُفِرَ له في كَلبٍ سَقاه. وأن يَجيءَ بهذا في القَرنِ السّابِعِ الميلاديِّ في بيئةٍ تَستَهينُ بالدَّوابّ – وقبلَ أوّلِ جَمعيّةٍ للرِّفقِ بالحَيَوانِ في العالَمِ بأكثَرَ من ألفِ سنة – دَلالةٌ أخرى.

الشّاةُ المسمومةُ أخبرته

أَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا ... فَأَخَذَ مِنْهَا مُضْغَةً فَلَمْ يُسِغْهَا وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْعَظْمَ لَيُخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُومٌ

رواه البُخاريُّ ومُسلِمٌ وأبو داود

امرأةٌ أرادَت اختِبارَه: إن كان نَبيّاً أُخبِر، وإن كان مَلِكاً استَرَحنا منه

بكلامٍ بسيط

أهدَت امرأةٌ يَهوديّةٌ للنَّبيِّ ﷺ شاةً مَشوِيّةً وَضَعَت فيها سُمّاً. فلمّا أخَذَ لُقمةً **لم يَبتَلِعها**، وقال: «إنّ هذه الذِّراعَ تُخبِرُني أنّها مَسمومة».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان ذلك بعدَ فَتحِ خَيبَر، والعَداوةُ قائمةٌ ظاهِرة. والسُّمُّ إذا خُلِطَ بلَحمٍ مَشوِيٍّ لا يُدرَكُ بالنَّظَرِ ولا بالرّائحة.

والمرأةُ نَفسُها قالت حين سُئِلَت: أرَدتُ أن أعلَم – **«إن كان نَبيّاً فسَيُخبَر، وإن كان مَلِكاً استَرَحنا منه»**. أي أنّها صَمَّمَت الأمرَ ليَكونَ اختِباراً حاسِماً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحادِثةُ في **صحيحِ البُخاريِّ ومُسلِمٍ** وسُنَنِ أبي داود والدّارِميّ، من حَديثِ أنَسٍ وأبي هُرَيرةَ وجابِرٍ وابنِ عبّاسٍ وغيرِهم. وقد رُوِيَ فيها اعتِرافُ المرأةِ بنَفسِها ومَقصَدُها من الفِعل. ومات بشرُ بنُ البَراءِ رَضيَ اللّهُ عنه لأنّه ابتَلَعَ لُقمَتَه قبلَ التَّحذير – وهو تَفصيلٌ لا يُضيفُه مُختَلِقٌ لأنّه يُظهِرُ أنّ الآيةَ لم تَمنَع كلَّ ضَرَر.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أهَمُّ ما في هذه الحادِثةِ أنّ **الخَصمَ هو الذي صَمَّمَ الاختِبار**، وأعلَنَ شَرطَه مُقَدَّماً: النُّبُوّةُ تُعرَفُ بأن يُخبَرَ بالسُّمّ. ثمّ وَقَعَ الشَّرطُ على وَجهِه، واعتَرَفَت هي بذلك أمامَ النّاس. ثمّ زادَ الأمرُ بُرهاناً: **أنّ النَّبيَّ ﷺ عَفا عنها** في أشهَرِ الرِّواياتِ – وهذا سُلوكُ واثِقٍ لا مُنتَقِمٍ خائف. والتَّفصيلُ الأخيرُ الذي يَحسِمُ صِدقَ النَّقلِ هو ذِكرُ **مَوتِ أحدِ الصَّحابة** بالسُّمّ: فالرِّوايةُ لم تُجَمِّل الحادِثةَ ولم تَجعَلها نَصراً تامّاً، بل نَقَلَتها بحُلوِها ومُرِّها.

١١٤

مَطَرٌ نَزَلَ على الطَّلَبِ ثمّ تَوَقَّفَ على الطَّلَب

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَغِثْنَا ... فَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ ... فَمَا وَضَعَ يَدَهُ حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ حَتَّى سَالَ الْمَطَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

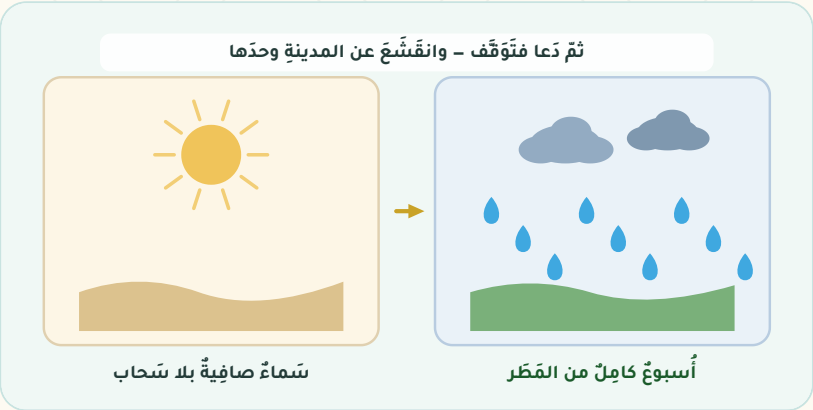

المَدينةُ تَحتَ الشَّمسِ وما حَولَها يُمطِر – كما وَصَفَ أنَس

بكلامٍ بسيط

جاء رَجُلٌ يَشكو الجَدْبَ في خُطبةِ الجُمُعة، فرَفَعَ النَّبيُّ ﷺ يَدَيه ودَعا – **والسَّماءُ صافِيةٌ لا سَحابَ فيها**. فما أنزَلَ يَدَه حتّى ثارَ السَّحاب، وأمطَرَت أُسبوعاً كامِلاً حتّى شَكَوا كَثرةَ المَطَر، فدَعا فتَوَقَّف.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الاستِسقاءُ عادةٌ قَديمةٌ عند الأُمَم، لكنّها دُعاءٌ يُرجى لا وَعدٌ يُنجَز. والمَطَرُ لا يَنزِلُ من سَماءٍ صافِيةٍ في لَحظات. وأن يَقَعَ ذلك **مَرَّتَين مُتَقابِلَتَين** – نُزولاً على الطَّلَبِ ثمّ انقِطاعاً على الطَّلَب – يَخرُجُ عن كلِّ احتِمالِ المُصادَفة.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في **الصَّحيحَين** من حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللّهُ عنه. ووَصَفَ أنَسٌ المَشهَدَ بدِقّةٍ لافِتة: أنّ السَّماءَ كانت صافِيةً تماماً، وأنّ السَّحابَ ثارَ «أمثالَ الجِبال»، وأنّ المَطَرَ دامَ إلى الجُمُعةِ التّالية. ثمّ لمّا دَعا برَفعِه قال أنَس: **«فانقَطَعَت، وخَرَجنا نَمشي في الشَّمس»**، وفي رِواية: «فانجابَت عن المدينةِ انجِيابَ الثَّوب» – أي أنّ المَطَرَ انحَسَرَ عن المدينةِ **وحدَها** وبَقِيَ حَولَها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّفصيلُ الأخيرُ هو أقوى ما في الخَبَر. فنُزولُ المَطَرِ بعدَ دُعاءٍ قد يُقالُ فيه: صادَفَ مَوسِمَه. لكنّ **انحِسارَه عن المدينةِ وحدَها مع بَقائه على ما حَولَها** ظاهِرةٌ لا تُفَسَّرُ بالصُّدفة، ويَراها أهلُ المدينةِ جَميعاً بأعيُنِهم في يومٍ واحد. ولاحِظ صِيغةَ الدُّعاءِ الثّانية، فهي في غايةِ الدِّقّة: «**اللّهُمَّ حَوالَينا ولا عَلَينا**» – لم يَطلُب رَفعَ المَطَرِ مُطلَقاً، بل صَرْفَه عن المدينةِ إلى ما حَولَها لأنّ النّاسَ يَحتاجونَه. فوَقَعَ على وَجهِه الدَّقيقِ الذي دَعا به.

١١٥

عَينُ عَليٍّ... وعَينُ قَتادة

فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ، حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

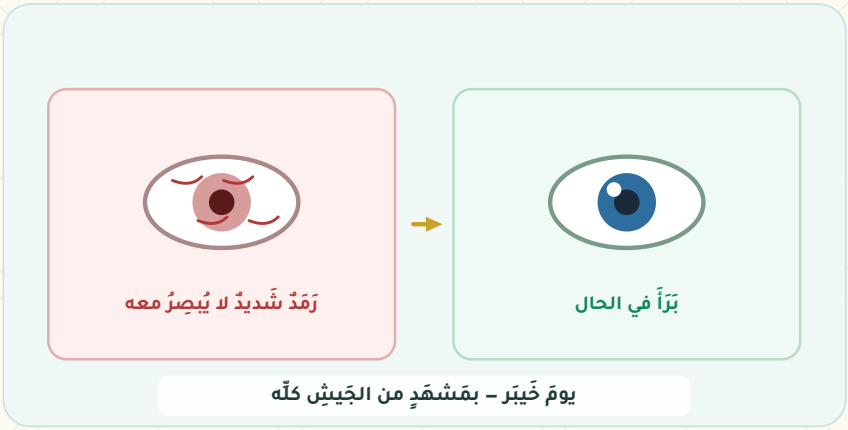

عَليٌّ كان أرمَدَ لا يَكادُ يُبصِر، فدُفِعَت إليه الرّايةُ بعدَ لَحَظات

بكلامٍ بسيط

يومَ خَيبَر قال النَّبيُّ ﷺ: **لَأُعطِيَنَّ الرّايةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللّهَ ورَسولَه**. فطَلَبَ عَليّاً – وكان مَريضَ العَينَين لا يُبصِر – **فبَصَقَ في عَينَيه فبَرَأَ في الحال**، ثمّ فُتِحَت خَيبَرُ على يَدِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الرَّمَدُ مَرَضٌ مَعروفٌ في تلك البيئة، ولا عِلاجَ له إلّا الصَّبرُ والأيّام. ولا يُشفى في لَحَظات. وكانت الحادِثةُ في مَوقِفٍ عَسكَريٍّ حَرِج، والجَيشُ مُنتَظِرٌ مُتَشَوِّفٌ لمَعرِفةِ صاحِبِ الرّاية – قال عُمَر: «ما أحبَبتُ الإمارةَ إلّا يومَئذ».

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في **الصَّحيحَين** من حَديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ وأبي هُرَيرةَ وسَلَمةَ بنِ الأكوَع. ونَظيرُه ما ثَبَتَ في **عَينِ قَتادةَ بنِ النُّعمان** رَضيَ اللّهُ عنه يومَ أُحُدٍ – أُصيبَت عَينُه حتّى سالَت على وَجنَتِه، فرَدَّها النَّبيُّ ﷺ بيَدِه ودَعا له، فكانت أحسَنَ عَينَيه وأحَدَّهما بَصَراً. وقد بَقِيَ ذلك مَعروفاً في ذُرِّيَّتِه حتّى ذَكَرَه حَفيدُه للخَليفةِ عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ما يُخرِجُ هذه الحادِثةَ من دائرةِ الدَّعوى أمران. الأوّل: أنّها وَقَعَت أمامَ **جَيشٍ كامِلٍ في وَقتِ تَعبِئة**، والأنظارُ كلُّها إلى صاحِبِ الرّاية. الثّاني – وهو الأهَمّ – أنّ الشِّفاءَ لم يَكُن غايةً في نَفسِه، بل **شَرطاً لأداءِ مُهِمّة**: فقد سَلَّمَه الرّايةَ فوراً وخَرَجَ يُقاتِل، وفُتِحَ الحِصنُ على يَدِه في ذلك اليومِ نفسِه. فلو لم يَبرَأ حَقيقةً لظَهَرَ الأمرُ في ساعَتِه. وأمّا عَينُ قَتادةَ فبَقِيَ أثَرُها **مَشهوداً عَشَراتِ السِّنين** – عَلامةٌ يَراها النّاسُ في وَجهِ الرَّجُلِ طَوالَ عُمُرِه، لا خَبَرٌ يُروى.

١١٦

سُراقةُ وفَرَسُه التي ساخَت في الأرض

فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ عَلَى فَرَسِي ... عَثَرَتْ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ... ثُمَّ رَكِبْتُ فَرَسِي، فَلَمَّا بَدَا لِي الْقَوْمُ سَاخَتْ يَدَاهَا فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ

رواه البُخاريّ – صحيح

طارِدٌ خَرَجَ طَمَعاً في مئةِ ناقةٍ... فعادَ يَطلُبُ الأمان

بكلامٍ بسيط

خَرَجَ سُراقةُ يُطارِدُ النَّبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ في الهِجرة. فكُلَّما اقتَرَبَ منهما **غاصَت قَوائمُ فَرَسِه في الأرضِ الصُّلبة** حتّى بَلَغَت رُكبَتَيها. فعَرَفَ أنّه ممنوع، فطَلَبَ منهما الأمان.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت قُرَيشٌ قد جَعَلَت مئةَ ناقةٍ لمن يَأتي بمُحَمَّدٍ ﷺ حَيّاً أو مَيِّتاً. وسُراقةُ فارِسٌ ماهِرٌ مُتَمَرِّسٌ من بَني مُدلِجٍ أهلِ القِيافةِ وتَتَبُّعِ الأثَر. وكان المَشهَدُ في صَحراءٍ مَفتوحةٍ لا مَهرَبَ فيها، والرَّجُلانِ بلا حِماية.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القِصّةُ بتَفاصيلِها في **صحيحِ البُخاريّ**، في حَديثِ الهِجرةِ الطَّويلِ عن عائشةَ وأبي بكر، و**يَرويها سُراقةُ نَفسُه** بعدَ إسلامِه. وذَكَرَ أنّه ساخَت به الفَرَسُ مِراراً، وأنّه استَخارَ بالأزلامِ فخَرَجَ ما يَكرَه فعَصاه، ثمّ لمّا يَئِسَ نادى بالأمانِ وعَرَضَ عليهما الزّادَ والمَتاع. وكَتَبَ له النَّبيُّ ﷺ كِتابَ أمان، فجاء به يومَ فَتحِ مكّة. وفي تلك اللَّحظةِ قال له ﷺ: «كيف بكَ إذا لَبِستَ سِوارَي كِسرى؟» – وقد لَبِسَهما بعدُ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أقوى ما في الخَبَرِ أنّ **راوِيَه هو الخَصمُ نَفسُه**. فسُراقةُ لم يَكُن مُسلِماً يومَ الحادِثة، بل كان المُطارِدَ الطّامِعَ في الجائزة. ثمّ أسلَمَ بعدَها بسِنين وحَدَّثَ النّاسَ بما جَرى له. وشَهادةُ الخَصمِ على نَفسِه بالفَشَلِ وبما رأى، من أعلى دَرَجاتِ الإثباتِ عند أهلِ النَّقل. ولاحِظ التَّفصيلَ الغَريبَ الذي لا يُختَلَق: أنّه **ساخَ مَرّاتٍ لا مَرّةً واحدة**، وأنّه في كلِّ مَرّةٍ كان يُعاوِدُ الطَّلَب، حتّى يَئِسَ أخيراً. ومُطارِدٌ يَختَلِقُ قِصّةً لن يَرويَها بهذا الإصرارِ المُتَكَرِّرِ على مُحاوَلةِ القَتل.

سَلمانُ الفارِسيُّ والعَلاماتُ الثَّلاث

وَوَصَفَ لِي صِفَتَهُ: لَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ

رواه أحمدُ وابنُ حِبّان – حَسَنُ الإسناد

ثَلاثُ عَلاماتٍ اختَبَرَها بنَفسِه

- قَدَّمَ له صَدَقةً… فلم يَأكُل
- قَدَّمَ له هَدِيّةً… فأكَلَ معهم
- نَظَرَ ظَهرَه فرأى خاتَمَ النُّبُوّة

فأسلَمَ في مَجلِسِه

رَجُلٌ قَطَعَ فارِسَ والشّامَ بَحثاً عن هذه الأوصافِ الثّلاثة

عَلاماتٌ سَمِعَها من راهِبٍ نَصرانيٍّ قبلَ البِعثة… فوَجَدَها

بكلامٍ بسيط

سَلمانُ الفارِسيُّ تَرَكَ دِينَ قَومِه وطافَ البِلادَ بَحثاً عن الحَقّ، حتّى أوصاه راهِبٌ بثَلاثِ عَلاماتٍ للنَّبيِّ المُنتَظَر. فلمّا وَصَلَ المدينةَ **اختَبَرَ العَلاماتِ الثَّلاثَ بنَفسِه فوَجَدَها** – فأسلَم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان أهلُ الكِتابِ في الشّامِ وغيرِها يَنتَظِرونَ نَبيّاً مَبعوثاً في أرضِ العَرَب، ويَتَوارَثونَ عَلاماتِه. وسَلمانُ خَرَجَ من بِلادِ فارِسَ وتَنَقَّلَ بين الرُّهبانِ سِنينَ طَويلة، حتّى بِيعَ عَبداً ووَصَلَ المدينةَ – قبلَ الهِجرةِ بسِنين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القِصّةُ يَرويها سَلمانُ بنَفسِه في مُسنَدِ أحمدَ وصَحيحِ ابنِ حِبّانَ وسيرةِ ابنِ إسحاق. وفيها أنّه جاء بتَمرٍ وقال: هذه صَدَقة. فقال النَّبيُّ ﷺ لأصحابِه: «كُلوا» ولم يَأكُل. ثمّ جاء بتَمرٍ آخَرَ وقال: هذه هَدِيّة. فأكَلَ معهم. ثمّ دارَ خَلفَ ظَهرِه يَنظُر، فعَرَفَ النَّبيُّ ﷺ ما يُريدُ فألقى رِداءَه عن ظَهرِه، فرأى الخاتَم، فأكَبَّ عليه يُقَبِّلُه ويَبكي.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذه ليست مُعجِزةً كَونيّة، بل **اختِبارٌ عِلميٌّ مُنَظَّم** بكلِّ مَعنى الكَلِمة: فَرَضِيّاتٌ مُحَدَّدةٌ سَلَفاً، وتَجرِبةٌ لكلِّ واحدةٍ منها، ونَتيجةٌ تُقبَلُ أو تُرَدّ. وسَلمانُ لم يُسلِم لمَنطِقٍ ولا لعاطِفة، بل بَعدَ أن **تَحَقَّقَت الشُّروطُ الثَّلاثةُ كلُّها**. وأدَقُّ ما فيها العَلامةُ الثّانية: التَّفريقُ بين **الصَّدَقةِ والهَدِيّة** – وهو حُكمٌ شَرعيٌّ خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ (الصَّدَقةُ مُحَرَّمةٌ عليه، والهَدِيّةُ حَلال)، ولا يُمكِنُ أن يُصيبَه أحدٌ بالحَدس. وقد وَرَدَ في عِدّةِ رِواياتٍ أنّ رُهباناً وأحباراً كانوا يَصِفونَ هذه العَلاماتِ قبلَ البِعثة – منهم بَحيرى الرّاهِب، وزَيدُ بنُ عَمرِو بنِ نُفَيل، وعبدُ اللّهِ بنُ سَلام.

١١٨

دَعا لأنَسٍ... فصارَ أكثَرَ الأنصارِ مالاً وولَداً

اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ. قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ الْيَوْمَ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

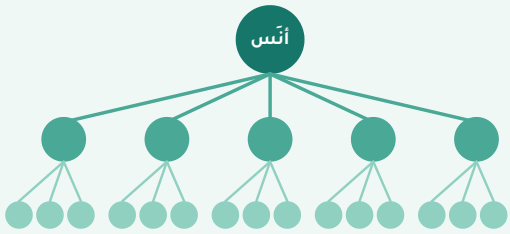

«ووَلَدي ووَلَدُ وَلَدي يَتَعادُّونَ على نَحوِ المِئةِ اليوم»
وعاشَ نَحوَ مِئةِ سنة – آخِرَ الصَّحابةِ مَوتاً بالبَصرة

دَعوةٌ في بَيتٍ فَقيرٍ.. شَهِدَ صاحِبُها تَحَقُّقَها بنَفسِه طَوالَ عُمُرِه

بكلامٍ بسيط

دَعَت أُمُّ سُلَيمٍ للنَّبيِّ ﷺ أن يَدعُوَ لابنِها أنَس، فدَعا له بـ**كَثرةِ المالِ والوَلَدِ والبَرَكة**. وعاشَ أنَسٌ حتّى رأى ذلك كلَّه بعَينِه وحَدَّثَ به النّاس.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

أنَسٌ يومَئذٍ غُلامٌ صَغيرٌ في العاشِرة، خَدَمَ النَّبيَّ ﷺ عَشرَ سِنين. وأُسرَتُه ليست من أغنى الأنصارِ ولا أكثَرِهم عَدَداً. والدُّعاءُ اشتَمَلَ على **ثَلاثةِ أشياءَ مُحَدَّدة** قابِلةٍ للقياسِ بعدَ عُمُر: المال، والوَلَد، والبَرَكةُ فيهما.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في **الصَّحيحَين**. وأنَسٌ نَفسُه هو الذي يَروي تَحَقُّقَه بعدَ عَشَراتِ السِّنين، يُقسِمُ بالله: «إنّ مالي لَكَثير، وإنّ وَلَدي ووَلَدَ وَلَدي لَيَتَعادُّونَ على نَحوِ المِئةِ اليوم». وفي رِوايةٍ أنّه دُفِنَ له قبلَ مَقدَمِ الحَجّاجِ البَصرةَ نَحوُ مِئةٍ وعِشرين من وَلَدِه. وكان بُستانُه يُثمِرُ في السَّنةِ مَرَّتَين. وعاشَ نَحوَ مِئةِ سنة، وهو **آخِرُ من ماتَ من الصَّحابةِ بالبَصرة**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا نَوعٌ مُختَلِفٌ من الدَّليل: **نُبوءةٌ يَشهَدُ صاحِبُها تَحَقُّقَها بنَفسِه ويُحَدِّثُ بها**. فالرّاوي هو المُنتَفِعُ وهو الشّاهِد، ويُحَدِّثُ بها في البَصرةِ وحَولَه آلافٌ يَعرِفونَ حالَه، ويَرَونَ وَلَدَه ووَلَدَ وَلَدِه ومالَه. ولو كان مُبالِغاً لرَدَّ عليه أهلُ بَلَدِه. ونَظائرُ هذا كَثيرةٌ وثابِتة: دُعاؤه لابنِ عبّاسٍ بالفِقهِ وتَأويلِ القرآنِ فصارَ «حَبرَ الأُمّة»؛ ودُعاؤه لسَعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ بإجابةِ الدَّعوةِ فكان مُستَجابَ الدَّعوةِ يُتَّقى دُعاؤه؛ ودُعاؤه على من أكَلَ بشِمالِه تَكَبُّراً فما استَطاعَ أن يَرفَعَها إلى فيه. أخبارٌ مُتَفَرِّقةٌ عن أشخاصٍ مُتَفَرِّقين، كلٌّ منها قابِلٌ للتَّكذيبِ بمُفرَدِه.

١١٩ تَسبيحُ الطَّعامِ بين يَدَيه

كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ

رواه البُخاريّ – صحيح

كانوا يَعُدُّونَ هذه الآياتِ بَرَكةً لا تَخويفاً

بكلامٍ بسيط

قال ابنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: **«كُنّا نَسمَعُ تَسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَل»** – أي أنّهم كانوا يَسمَعونَ صَوتَ تَسبيحٍ يَخرُجُ من الطَّعامِ بين يَدَي النَّبيِّ ﷺ.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الجَمادُ لا صَوتَ له. والطَّعامُ يُؤكَلُ في صَمت. وأن يُسمَعَ منه تَسبيحٌ أمرٌ لا مِثالَ له في تَجرِبةِ أحد. ولم يُنقَل مِثلُ هذا عن غيرِ النَّبيِّ ﷺ.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الأثَرُ في **صحيحِ البُخاريّ** في «بابِ عَلاماتِ النُّبُوّةِ في الإسلام». ويَرويه عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ بصيغةِ الجَمع: «**كُنّا نَسمَع**» – أي أنّها مُشاهَدةٌ جَماعيّةٌ مُتَكَرِّرة، لا حادِثةٌ فَرديّةٌ واحدة. ونَظيرُه ما ثَبَتَ من **تَسبيحِ الحَصى** في كَفِّه، ومن سَلامِ الحَجَرِ عليه بمكّة، كما في صحيحِ مُسلِمٍ من حَديثِ جابِرِ بنِ سَمُرة: «إنّي لأعرِفُ حَجَراً بمكّةَ كان يُسَلِّمُ عليَّ قبلَ أن أُبعَث، إنّي لأعرِفُه الآن».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

صِيغةُ الجَمعِ والاستِمرار هي مَوضِعُ القُوّة: «**كُنّا نَسمَع**». فلَو كانت مَرّةً واحدةً لقيلَ «سَمِعنا». أمّا «كُنّا» فتُفيدُ التَّكرارَ والاعتِيادَ – أي أنّها كانت أمراً مَألوفاً عندهم يَعرِفُه الجَماعة. ومِثلُ هذا لا يُختَلَقُ في وَسَطٍ فيه مِئاتُ الشُّهودِ الأحياء. والقرآنُ يُقَرِّرُ الأصلَ العامَّ لهذا الباب: «**وإن مِن شَيءٍ إلّا يُسَبِّحُ بحَمدِه ولٰكِن لا تَفقَهونَ تَسبيحَهم**» – فالتَّسبيحُ قائمٌ في كلِّ شَيء، والذي وَقَعَ في حَضرَةِ النَّبيِّ ﷺ هو **كَشفُ الحِجابِ عن سَماعِه**، لا إحداثُ شَيءٍ جَديد.

١٢٠

فُتِحَت خَيبَرُ... ونَجا من الحَديدِ في أُحُد

وَاللَّهِ لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْكَ حَتَّى أَمُوتَ دُونَكَ ... وَقَالَ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ: الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ

رواه البُخاريّ – صحيح

انقِلابُ المُبادَرةِ الكامِلُ... أُعلِنَ قبلَ أن يَقَع

بكلامٍ بسيط

بعدَ أن انصَرَفَت جُيوشُ الأحزابِ عن المدينة، قال النَّبيُّ ﷺ: **«الآنَ نَغزوهم ولا يَغزونَنا، نحن نَسيرُ إليهم»**.
ومن ذلك اليومِ لم تَغزُ قُرَيشٌ المدينةَ أبداً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان الحِصارُ في الخَندَقِ أشَدَّ ما مَرَّ على المُسلِمين. عَشَرةُ آلافِ مُقاتِلٍ حَولَ المدينة، ويَهودُ بَني قُرَيظةَ نَقَضوا العَهدَ من الدّاخِل، والجُوعُ والبَردُ والخَوف. يَقولُ القرآن: «**وبَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنونا**».
وفي تلك اللَّحظةِ بالذّاتِ يُعلَنُ انقِلابُ المُبادَرة.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

والحَديثُ في **صحيحِ البُخاريّ**. وقد وَقَعَ كما قال حَرفاً: بعدَ الخَندَقِ (٥ هـ) لم تَخرُج قُرَيشٌ إلى المدينةِ غازِيةً قَطّ. بل صارَ المُسلِمونَ هم المُبادِرين: الحُدَيبِيَةُ ٦ هـ، ثمّ خَيبَرُ ٧ هـ، ثمّ فَتحُ مكّةَ ٨ هـ، ثمّ حُنَينٌ وتَبوك. وهذه حَقيقةٌ عَسكَريّةٌ مُتَّفَقٌ عليها في كُتُبِ السِّيرةِ والتّاريخِ كلِّها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا خَبَرٌ **استِراتيجيٌّ لا رُوحيّ**، وهو ما يَجعَلُه قابِلاً للفَحصِ التّاريخيِّ البَحت. وقد صَدَرَ في **أسوأِ لَحظةٍ مُمكِنةٍ** – أي حين كانت كلُّ القَرائنِ تَقولُ بالعَكس. والقاعِدةُ المَعروفةُ أنّ من نَجا من حِصارٍ خانِقٍ يَنشَغِلُ بتَرميمِ حالِه لا بالهُجوم. ولاحِظ صِياغةَ الحَديث: لم يَقُل «سنَنتَصِر» – وهذا كَلامٌ عامّ يَحتَمِلُ كلَّ شَيء – بل حَدَّدَ **انتِقالَ زِمامِ المُبادَرة**: «نَحنُ نَسيرُ إليهم». وهذا وَصفٌ دَقيقٌ لِما جَرى فِعلاً في السَّنَواتِ الثَّلاثِ التّالية: كلُّ الحَملاتِ بعدَها كانت خارِجةً من المدينةِ لا قادِمةً إليها.

١٢١

لماذا نَثِقُ بهذه الأخبار؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ

سورة الحُجُرات – الآية ٦

مَعاييرُ قَبولِ الخَبَرِ عند المُحَدِّثين

- سَنَدٌ مُتَّصِلٌ يُسَمّي فيه كلُّ راوٍ باسمِه
- عَدالةُ كلِّ راوٍ وضَبطُه – وله تَرجَمةٌ مُدَوَّنة
- خُلُوُّ الخَبَرِ من الشُّذوذِ والعِلّةِ الخَفِيّة
- مُوافَقةُ الثِّقاتِ بعضِهم بعضاً في اللَّفظِ والمَعنى

عِلمٌ لا نَظيرَ له في أيِّ أُمّةٍ أُخرى

عِلمُ الجَرحِ والتَّعديل: سِيَرُ مِئاتِ الآلافِ من الرُّواةِ مُدَوَّنةٌ ومَفحوصة

بكلامٍ بسيط

هذه الأخبارُ لم تَصِل إلينا حِكاياتٍ يَتَناقَلُها النّاس. وَصَلَت عبرَ **نِظامٍ تَوثيقيٍّ مُحكَم**: كلُّ خَبَرٍ له سِلسِلةُ رُواةٍ مُسَمَّينَ بأسمائهم، وكلُّ راوٍ له تَرجَمةٌ مَكتوبةٌ تُفَتِّشُ في صِدقِه وحِفظِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الأُمَمُ قبلَ الإسلامِ كانت تَنقُلُ أخبارَ أنبيائها بلا أسانيد. فلا يُعرَفُ مَن نَقَلَ عن مَن، ولا مَتى دُوِّنَت، ولا هل كان النّاقِلُ ثِقةً أم لا. ولهذا اختَلَطَ في كُتُبِ الأُمَمِ الصَّحيحُ بالمَوضوع، والتّاريخُ بالأُسطورة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

ابتَكَرَ المُسلِمونَ **عِلمَ الإسناد** و**عِلمَ الجَرحِ والتَّعديل**، فدَوَّنوا تَراجِمَ مِئاتِ الآلافِ من الرُّواة: مَولِدَ كلِّ واحدٍ ووَفاتَه وشُيوخَه وتَلاميذَه ورِحلاتِه وحالَ حِفظِه، وهل اختَلَطَ في آخِرِ عُمُرِه، وهل تُوبِعَ على ما رَوى. وكُتُبُ الرِّجالِ – كتَهذيبِ الكَمالِ وميزانِ الاعتِدالِ – مَوسوعاتٌ ضَخمةٌ في ذلك. وقد قال المُستَشرِقُ الألمانيُّ شبرنجر إنّ المُسلِمينَ أنتَجوا عِلمَ تَراجِمَ لم تَعرِف الأُمَمُ الأُخرى له نَظيراً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ أنّ الأخبارَ التي في هذا البابِ تَجتَمِعُ فيها خَصائصُ يَصعُبُ تَجاوُزُها: **وُقوعُها أمامَ أعدادٍ كَبيرةٍ من الشُّهود** – ألفٌ في الخَندَق، وثَلاثُمِئةٍ في بَدر، ومَسجِدٌ كامِلٌ في حَديثِ الجِذع؛ و**رِواياتُها من طُرُقٍ مُتَعَدِّدةٍ مُستَقِلّة** عن صَحابةٍ لم يَجتَمِعوا على وَضعِها؛ و**تَضَمُّنُها لِما لا يُجَمِّل** – كمَوتِ صَحابيٍّ بالسُّمّ، وخَوفِ جابِرٍ من قِلّةِ الطَّعام؛ و**سُكوتُ الخُصومِ عن تَكذيبِها** وهم أحرَصُ النّاسِ على ذلك. ولا يُعرَفُ في تاريخِ البَشَرِ رَجُلٌ نُقِلَت أخبارُه وأقوالُه وأفعالُه بمِثلِ هذه الدِّقّةِ والتَّفصيل.

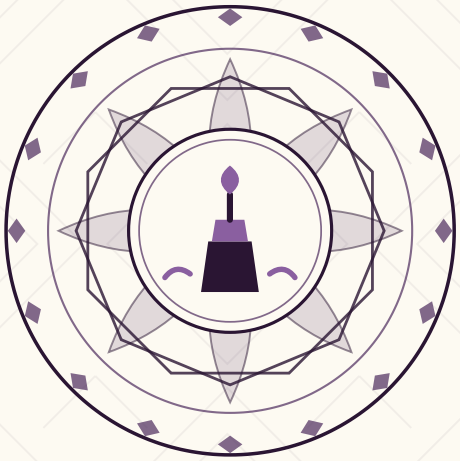

الباب الثّامن

عالَمُ الجنّ والسِّحرِ والغَيب

عالَمٌ حقيقيٌّ أخبرَنا اللّهُ عنه، وشهدَ به التّاريخُ في كلِّ أمّة، ووقائعُ ثابتةٌ حدثت للنّبيِّ ﷺ ولأصحابِه وللنّاسِ إلى يومِنا.

١٨ موضوعاً

١٢٢ نَفَرٌ مِنَ الجِنّ استَمَعوا القُرآن

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ

سورة الجِنّ – الآيتان ١-٢

الجِنُّ خَلْقٌ مُكَلَّفٌ: فيهم المُسلِمُ وفيهم الكافِر

بكلامٍ بسيط

الجِنُّ خَلْقٌ حَقيقيٌّ خَلَقَهم اللّهُ من نار، لا نَراهم وهم يَرَونَنا. وفي القرآنِ **سورةٌ كامِلةٌ باسمِهم** تَحكي أنّ جَماعةً منهم سَمِعوا القرآنَ فآمَنوا به.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان العَرَبُ يَعرِفونَ الجِنَّ ويُعَظِّمونَهم، بل كان منهم من **يَستَعيذُ بهم** ويَعبُدُهم ويَطلُبُ منهم الحِمايةَ في الأسفار – وهو ما ذَكَرَته السّورةُ نَفسُها: «وأنّه كان رِجالٌ من الإنسِ يَعوذونَ برِجالٍ من الجِنِّ فزادوهم رَهَقا». وكانوا يَنسِبونَ إليهم عِلمَ الغَيبِ ويَأخُذونَ عنهم الكِهانة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الإسلامُ **لم يُنكِر وُجودَهم ولم يُبالِغ فيه** – بل ضَبَطَه ضَبطاً دَقيقاً: أثبَتَ وُجودَهم خَلْقاً مُكَلَّفاً فيه الصّالِحُ والطّالِح، ونَفى عنهم عِلمَ الغَيبِ نَفياً قاطِعاً («وأنّا ظَنَنّا أن لن تَقولَ الإنسُ والجِنُّ على اللّهِ كَذِباً»، و«وأنّا لا نَدري أشَرٌّ أُريدَ بمَن في الأرض»)، و**حَرَّمَ الاستِعاذةَ بهم** وجَعَلَها شِركاً، وحَرَّمَ إتيانَ الكُهّانِ والعَرّافين. فأبقى الحَقيقةَ وأزالَ الخُرافةَ والعُبوديّةَ معاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا مَوقِفٌ **مُتَوازِنٌ بصورةٍ لا تُشبِهُ ما حَولَه**. فالدِّياناتُ والثَّقافاتُ إمّا تُضَخِّمُ عالَمَ الأرواحِ فتَجعَلَه مَصدَرَ عِلمٍ وقُوّةٍ تُعبَدُ وتُستَرضى، وإمّا تُنكِرُه إنكاراً تامّاً فتَجعَلَه خُرافة. والقرآنُ سَلَكَ طَريقاً ثالِثاً: **أثبَتَ الوُجودَ، وأبطَلَ العِبادة، ونَفى عِلمَ الغَيب**. ولو كان النَّصُّ من وَضعِ رَجُلٍ في تلك البيئةِ لكان أسهَلَ عليه أن يُوافِقَ ما تَعارَفوا عليه ويَستَثمِرَه في سُلطانِه – كما فَعَلَ الكُهّانُ قبلَه. لكنّه هَدَمَ تِجارةَ الكِهانةِ كلَّها، وهي من أربَحِ ما كان في الجَزيرة.

مِن مارِجٍ مِن نار

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ

سورة الرَّحمن – الآيتان ١٤-١٥

مادَّتانِ مُختَلِفتانِ تَمامَ الاختِلاف – ولهذا لا يُرى أحَدُهما الآخَر

بكلامٍ بسيط

نحن مَخلوقونَ من **طِين**، والجِنُّ مَخلوقونَ من **نارٍ خالِصةٍ مُضطَرِبة** لا دُخانَ فيها. ولأنّ المادّةَ مُختَلِفة، لا تَستَطيعُ عَينُك أن تُدرِكَهم – وهم يَرَونَك.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت تَصَوُّراتُ النّاسِ عن الجِنِّ خَيالاً شَعبيّاً بلا ضابِط: أشباحٌ وأرواحٌ وصُوَرٌ مُخيفة. ولم يَكُن هناك تَحديدٌ لمادّةِ خَلقِهم ولا تَفسيرٌ لسَبَبِ عَدَمِ رُؤيَتِهم. وكلمةُ «مارِج» لفظةٌ عربيّةٌ دَقيقةٌ قَليلةُ الاستِعمال.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

«**المارِج**» في المَعاجِمِ العربيّة: اللَّهَبُ الصّافي المُختَلِطُ المُضطَرِبُ الذي لا دُخانَ فيه. وهذا وَصفٌ لصورةٍ خاصّةٍ من صُوَرِ الطّاقة، لا لِجِسمٍ مادّيٍّ كَثيف. والعِلمُ اليومَ يُقَرِّرُ أنّ **ما تَراه عَينُ الإنسانِ لا يَتَجاوَزُ جُزءاً ضَئيلاً جِدّاً** من الطَّيفِ الكَهرومِغناطيسيّ (نحو ٤٠٠–٧٠٠ نانومتر)، وأنّ نَحوَ ٩٥٪ من مادّةِ الكَونِ وطاقَتِه «مُظلِمة» لا تُرى ولا تُرصَدُ إلّا بأثَرِها. فوُجودُ عَوالِمَ لا تَقَعُ عليها حاسّتُنا ليس أمراً مُستَغرَباً على العَقلِ العِلميِّ اليوم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القرآنُ عَلَّلَ عَدَمَ الرُّؤيةِ تَعليلاً صَريحاً، وهو في غايةِ الدِّقّة: «**إنّه يَراكم هو وقَبيلُه من حَيثُ لا تَرَونَهم**». فالرُّؤيةُ في اتِّجاهٍ واحدٍ لا اتِّجاهَين – وهذا يَقتَضي اختِلافاً في **طَبيعةِ الإدراكِ ذاتِها**، لا مُجَرَّدَ اختِفاءٍ أو تَستُّر. ثمّ إنّ التَّفريقَ بين مادَّتَي الخَلقِ يُفَسِّرُ الفَرقَ في القُدرات: السُّرعةَ والنُّفوذَ وتَغَيُّرَ الهَيئة. وهو تَفسيرٌ **مُتَّسِقٌ داخِلِيّاً** من أوَّلِه إلى آخِرِه، لا صُوَراً مُتَفَرِّقةً كما في أساطيرِ الأُمَم.

١٢٤

سِحرٌ وَقَعَ على النَّبيِّ ﷺ نفسِه

سُحِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ ... فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، وَهُوَ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

بِئرُ ذَروانَ بالمدينة – المَوضِعُ الذي أُخرِجَ منه السِّحر

بكلامٍ بسيط

السِّحرُ شَيءٌ حَقيقيٌّ يُؤَثِّر، لا خَيالٌ ولا وَهْم. وأوضَحُ دَليلٍ على ذلك أنّه **وَقَعَ على النَّبيِّ ﷺ نفسِه**، فكان يُخَيَّلُ إليه أنّه فَعَلَ شيئاً ولم يَفعَله – حتّى أخبَرَه اللهُ بمَوضِعِه فأُخرِج.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان السِّحرُ صِناعةً مَعروفةً رائجةً في كلِّ حَضاراتِ المِنطَقة: بابِلَ ومِصرَ واليَمَنِ والجَزيرة. والسّاحِرُ صاحِبُ مَكانةٍ ومالٍ ونُفوذ. وقد كان من اليَسيرِ على النَّبيِّ ﷺ أن يُخفيَ ما أصابَه – فلا شَيءَ أضَرُّ بدَعوةِ رَجُلٍ من أن يُقالَ إنّ السِّحرَ نالَ منه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحَديثُ في **صحيحِ البُخاريِّ ومُسلِمٍ** من حَديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، بتَفاصيلَ دَقيقة: اسمُ السّاحِر (لَبيدُ بنُ الأعصَم)، ومادّةُ السِّحرِ (مُشطٌ وشَعرٌ وقِشرُ طَلع)، ومَوضِعُه (بِئرُ ذَروان)، وصِفةُ أثَرِه، وكيفَ استُخرِج. وقد **أجمَعَ أهلُ السُّنّةِ على أنّ السِّحرَ له حَقيقةٌ وأثَر**، وأنّ أثَرَه لم يَمَسَّ الوَحيَ ولا التَّبليغَ – بل أُمورَه الدُّنيَويّةَ الخاصّةَ فقط. وهذا قَيدٌ مُهِمٌّ نَصَّ عليه العُلَماءُ لأنّ العِصمةَ في التَّبليغِ قائمة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الدَّليلُ هنا من نَوعٍ نادِر: **خَبَرٌ يَضُرُّ ظاهِرُه بصاحِبِ الدَّعوةِ ومع ذلك نُقِلَ وحُفِظَ**. فالنَّبيُّ ﷺ لم يُخفِه، وأصحابُه لم يَكتُموه، والمُحَدِّثونَ لم يَحذِفوه – بل أثبَتَه أصَحُّ كِتابَينِ عند المُسلِمين. ومَن يَختَلِقُ ديناً لا يَروي عن نَفسِه أنّ سِحرَ يَهوديٍّ أثَّرَ فيه. وهذا ما يُسَمّى عند أهلِ النَّقدِ التّاريخيِّ «**مِعيارَ الإحراج**»: الرِّوايةُ التي تَضُرُّ راويها أقربُ إلى الصِّدقِ من التي تَنفَعُه. ثمّ إنّ الحادِثةَ أثمَرَت شيئاً باقِياً: **المُعَوِّذَتان**، وهما عِلاجٌ عَمَليٌّ لكلِّ مُسلِمٍ إلى اليوم.

المُعَوِّذَتان... حِصنُ كلِّ مُسلِم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ ... ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

سورة الفَلَق – الآيات ١-٥

سورتانِ نَزَلَتا في وِقايةِ الإنسانِ من شَرِّ السِّحرِ والحَسَد

بكلامٍ بسيط

حين وَقَعَ السِّحر، لم يُتْرَك النّاسُ بلا عِلاج. نَزَلَت سورتانِ قَصيرتان – **الفَلَقُ والنّاس** – فيهما الحِمايةُ من السِّحرِ والحَسَدِ ووَسوَسةِ الشَّيطان.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان النّاسُ إذا أصابَهم السِّحرُ لَجَؤوا إلى ساحِرٍ آخَرَ يَحُلُّه – أي يُعالِجونَ الشَّرَّ بشَرٍّ مِثلِه، فيَزدادونَ تَعَلُّقاً بالسَّحَرةِ ودَفعاً للمال. وهذه هي الدّائرةُ التي كانت تُدِرُّ على الكُهّانِ والسَّحَرةِ أرزاقَهم.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

النَّبيُّ ﷺ كان يَقرَأُ المُعَوِّذَتَينِ على نَفسِه ويَنفُثُ في كَفَّيه ويَمسَحُ بهما جَسَدَه كلَّ لَيلةٍ قبلَ النَّوم، ويَقرَؤُهما على المَرضى (البُخاريُّ ومُسلِم). وأمَرَ عُقبةَ بنَ عامِرٍ بِقِراءتِهما **دُبُرَ كلِّ صَلاة**، وقال له: «ما تَعَوَّذَ المُتَعَوِّذونَ بِمِثلِهِنّ». وفي الحَديثِ الصَّحيح: «مَن قَرَأَ آيةَ الكُرسيِّ حين يَأوي إلى فِراشِه لم يَزَل عليه من اللّهِ حافِظٌ ولا يَقرَبُه شَيطانٌ حتّى يُصبِح».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

لاحِظ ما الذي صَنَعَه هذا العِلاجُ بالبِنيةِ الاجتِماعيّةِ كلِّها. لقد جَعَلَ الوِقايةَ من السِّحر **في يَدِ كلِّ إنسانٍ مُباشَرةً**: كَلِماتٌ قَصيرةٌ يَحفَظُها الطِّفل، بلا واسِطةٍ ولا أُجرةٍ ولا طُقوس. فأسقَطَ بذلك سُلطانَ السَّحَرةِ والكُهّانِ وتِجارَتَهم من أصلِها. وهذا أمرٌ لا يَفعَلُه مَن يَبتَغي السُّلطانَ على النّاسِ – بل يَفعَلُ ضِدَّه. وأدَقُّ ما في السّورة: «**النَّفّاثاتِ في العُقَد**» – وهي صِفةٌ لأشهَرِ صُوَرِ السِّحرِ عَمَليّاً: العَقدُ والنَّفثُ فيه. وهو ما وُجِدَ في سِحرِ لَبيدِ بنِ الأعصَمِ بعَينِه: إحدى عَشرةَ عُقدةً في وَتَر.

بابِلُ... وأقدَمُ ألواحِ السِّحرِ في التّاريخ

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

سورة البقرة – الآية ١٠٢

رُقًى وتَعاويذُ مَكتوبةٌ قبلَ الميلادِ بأكثَرَ من ألف

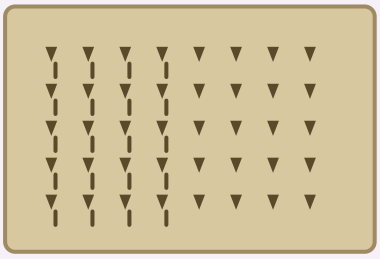

ألواحٌ طينيّةٌ مِسماريّةٌ من بابِل – مَحفوظةٌ في المَتاحِف

مَكتَباتٌ كامِلةٌ من نُصوصِ السِّحرِ خَرَجَت من أرضِ العِراق

بكلامٍ بسيط

القرآنُ رَبَطَ السِّحرَ بمَكانٍ مُحَدَّد: **بابِل**. وعُلَماءُ الآثارِ أخرَجوا من تلك الأرضِ بالذّاتِ **أضخَمَ مَجموعةٍ من نُصوصِ السِّحرِ في العالَمِ القَديم**.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

بابِلُ كانت أطلالاً مَندَثِرةً حين نَزَلَ القرآن، وقد خَرِبَت منذ قُرون. ولم يَكُن أحدٌ يَقرَأُ الكِتابةَ المِسماريّةَ – فقد ماتَت تَماماً. فنِسبةُ تَعليمِ السِّحرِ إلى **بابِلَ بعَينِها** دون غيرِها من حَواضِرِ الدُّنيا تَحديدٌ جُغرافيٌّ وتاريخيٌّ يَقبَلُ الاختِبار.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

فُكَّت رُموزُ الكِتابةِ المِسماريّةِ في القَرنِ التّاسِعَ عشر. فظَهَرَ أنّ بِلادَ ما بينَ النَّهرَينِ – وبابِلُ قَلبُها – كانت **أعظَمَ مَركَزٍ للسِّحرِ والرُّقى والتَّعاويذِ في العالَمِ القَديم**. ومن أشهَرِ ما اكتُشِفَ سِلسِلةُ ألواحٍ **«مَقلو»** (Maqlû) وهي تِسعةُ ألواحٍ كامِلةٍ في السِّحرِ وإبطالِه، و«شُرپو» (Šurpu)، وآلافُ الألواحِ في التَّعاويذِ والتَّنجيمِ وقِراءةِ الطَّوالِع.

ومَكتَبةُ آشور بانيبال وحدَها ضَمَّت مِئاتٍ منها. ويُقِرُّ المُؤَرِّخونَ بأنّ بابِلَ كانت مَصدَرَ انتِشارِ هذه العُلومِ في المِنطَقةِ كلِّها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطِعة؟

التَّحديدُ الجُغرافيُّ هو مَوضِعُ الحُجّة. لم يَقُل القرآنُ «تَعَلَّموا السِّحر» فقط – بل حَدَّدَ **المَوطِنَ الذي خَرَجَ منه**. وقد ظَهَرَ بعدَ اثنَي عشرَ قَرناً أنّ ذلك المَوطِنَ هو أغنى مَوقِعٍ أثَريٍّ بنُصوصِ السِّحرِ في الأرض. والأدَقُّ من ذلك **بَراءةُ سُلَيمانَ** عليه السّلام: «وما كَفَرَ سُلَيمان». فقد كانت الأساطيرُ المُتَداوَلةُ في المِنطَقةِ – وفي نُصوصٍ يَهوديّةٍ مُتَأخِّرة – تَنسِبُ السِّحرَ إلى سُلَيمانَ وتَجعَلُه سَيِّدَ السَّحَرة. فجاء القرآنُ **يُبَرِّئُ نَبيّاً ممّا نَسَبَه إليه أهلُ الكِتابِ أنفُسُهم** – وهذا عَكسُ ما يَفعَلُه النّاقِلُ عنهم.

سَحَرةُ فِرعَون... ومَشهَدُ الحَبلِ الذي يَسعى

قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ

سورة طه – الآية ٦٦

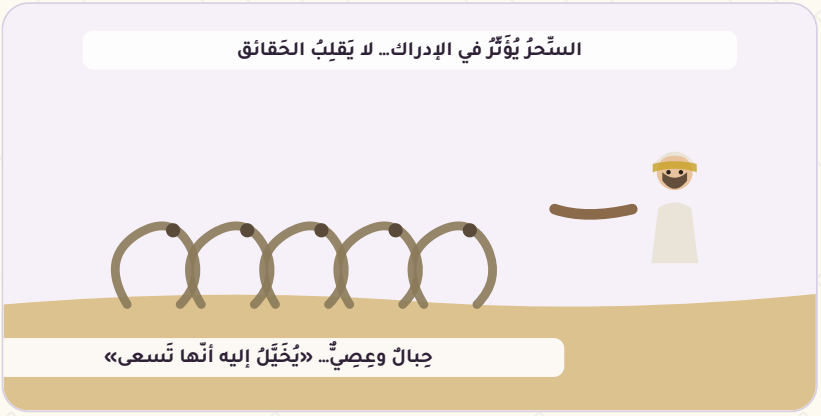

القرآنُ يَصِفُ السِّحرَ بأنّه تَأثيرٌ في العَين، لا خَلقٌ جَديد

بكلامٍ بسيط

جاء سَحَرةُ فِرعَونَ بحِبالٍ وعِصِيّ، فبَدَت للنّاسِ وكأنّها **حَيّاتٌ تَسعى**. ولاحِظ اللّفظَ الدَّقيق: «**يُخَيَّلُ إليه**» – أي أنّها لم تَتَحَوَّل، وإنّما تَأثَّرَ إدراكُ النّاظِرِ بها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان السِّحرُ في ذُروةِ مَجدِه في مِصرَ القَديمة، وله كَهَنةٌ ومَدارِسُ ونُصوصٌ مُدَوَّنة. وكان يُعتَقَدُ أنّ السّاحِرَ **يَقلِبُ الأعيانَ حَقيقةً**: يُحَوِّلُ العَصا حَيّةً والإنسانَ حَيَواناً. وهذا الاعتِقادُ كان سائداً في كلِّ حَضاراتِ الأرضِ تَقريباً.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القرآنُ رَفَضَ هذا التَّصَوُّرَ رَفضاً صَريحاً وحَصَرَ أثَرَ السِّحرِ في ثَلاثةِ مَجالات: **التَّأثيرُ في الإدراكِ والحَواسّ** («يُخَيَّلُ إليه»، «سَحَروا أعيُنَ النّاس»)، و**التَّأثيرُ في النُّفوسِ والعَلاقات** («يُفَرِّقونَ به بين المَرءِ وزَوجِه»)، و**التَّأثيرُ في البَدَنِ بالأذى**. أمّا **قَلبُ حَقيقةِ الأشياء** فمَنفِيٌّ تَماماً. وهذا مُتَّسِقٌ مع ما يُقَرِّرُه عِلمُ النَّفسِ اليومَ عن الإيحاءِ والتَّنويمِ وخِداعِ الإدراكِ الجَماعيّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّفريقُ بين «**التَّأثيرِ في الإدراك**» و«**قَلبِ الحَقيقة**» تَفريقٌ بالِغُ الدِّقّة، ولم تَكُن ثَقافةُ ذلك الزَّمانِ تَعرِفُه. وهو الذي يُميِّزُ المَوقِفَ الإسلاميَّ من السِّحرِ عن كلِّ ما حَولَه: فلا هو إنكارٌ كامِلٌ يُكَذِّبُ المُشاهَدة، ولا هو تَسليمٌ بأنّ السّاحِرَ يَخلُقُ ويَقلِب. ولاحِظ الفارِقَ في مُعجِزةِ موسى نَفسِها: عَصا موسى **تَلَقَّفَت** ما صَنَعوا – أي ابتَلَعَته ابتِلاعاً حَقيقيّاً. فالفَرقُ بين المُعجِزةِ والسِّحرِ في القرآن: **الأولى تَغييرٌ في الواقِع، والثّاني تَغييرٌ في العَين**. ولهذا آمَنَ السَّحَرةُ أنفُسُهم أوَّلَ النّاس – لأنّهم أعلَمُ بحُدودِ صِناعَتِهم.

الشَّيطانُ الذي جاء أبا هُرَيرةَ ثلاثَ لَيال

فَقَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا ... إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ... فَقَالَ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ

رواه البُخاريّ – صحيح

حادِثةٌ مُتَكَرِّرةٌ ثَلاثَ لَيالٍ في مَخزَنِ صَدَقةِ رَمَضان

بكلامٍ بسيط

وَكَّلَ النَّبيُّ ﷺ أبا هُرَيرةَ بحِفظِ طَعامِ الصَّدَقة. فجاءه شَخصٌ لَيلاً يَسرِقُ منه، فأمسَكَه ثَلاثَ لَيالٍ مُتَتالِيات. وفي الأخيرةِ عَلَّمَه **آيةَ الكُرسيّ** وقال: لن يَقرَبَك شَيطانٌ إذا قَرَأتَها. ثمّ أخبَرَه النَّبيُّ ﷺ أنّه كان شَيطاناً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحِراسةُ اللَّيليّةُ لمَخزَنِ طَعام أمرٌ عاديّ. وأبو هُرَيرةَ ظَنَّه إنساناً مِسكيناً في أوّلِ مَرّة، فرَحِمَه وأطلَقَه. ثمّ تَكَرَّرَ ذلك ثَلاثاً – وفي كلِّ مَرّةٍ كان يُخبِرُ النَّبيَّ ﷺ في الصَّباح، فيَقولُ له: «**أما إنّه سيَعودُ**» – فيَعود.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الحادِثةُ في **صحيحِ البُخاريّ** بطولِها، في «بابِ فَضلِ آيةِ الكُرسيّ». وفيها ثَلاثُ إشاراتٍ مُهِمّة: الأولى أنّ النَّبيَّ ﷺ كان **يُخبِرُ أبا هُرَيرةَ في كلِّ صَباحٍ بأنّه سيَعودُ لَيلاً** – فيَعود. الثّانيةُ أنّ الحُكمَ النِّهائيَّ جاء بعِبارةٍ في غايةِ الدِّقّة: «**صَدَقَكَ وهو كَذوب**» – أي أنّ المَعلومةَ صَحيحةٌ وإن كان القائلُ كاذِباً بطَبعِه. الثّالثةُ أنّ النَّتيجةَ العَمَليّةَ كانت **سِلاحاً لكلِّ مُسلِم**: آيةُ الكُرسيِّ عندَ النَّوم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أهَمُّ ما في هذه الحادِثةِ هو **المَنهَجُ** الذي عَلَّمَه النَّبيُّ ﷺ في التَّعامُلِ مع هذا العالَم. فهو لم يُنكِر الواقِعةَ ولم يُهَوِّلها، بل **حَكَمَ على المَعلومةِ بذاتِها لا بقائلِها**. وعِبارةُ «صَدَقَكَ وهو كَذوب» قاعِدةٌ كامِلةٌ في نَقدِ الأخبار. ثمّ لاحِظ أنّ النَّتيجةَ كانت **آيةً من القرآنِ يَحفَظُها كلُّ أحد**، لا طَقساً ولا تَميمةً ولا واسِطةً بَشَريّة. فالحادِثةُ كلُّها تَنتَهي إلى تَمكينِ الإنسانِ العادِيِّ من حِمايةِ نَفسِه بنَفسِه – وهذا هو الخَيطُ الجامِعُ لكلِّ ما في هذا الباب.

١٢٩ لِكُلِّ إنسانٍ قَرين

مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ. قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ

رواه مُسلِم – صحيح

تَفسيرٌ للصِّراعِ الدّاخِليّ يَضَعُ الخَواطِرَ السَّيِّئَةَ في مَوضِعِها

بكلامٍ بسيط

مع كلِّ إنسانٍ **قَرينٌ من الجِنّ** يُوَسوِسُ له بالسُّوء. وهذا يُفَسِّرُ الخَواطِرَ السَّيِّئَةَ التي تَأتيك فَجأةً وأنت لا تُريدُها ولا تَرضاها.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان النّاسُ إمّا يَنسِبونَ كلَّ خاطِرٍ إلى أنفُسِهم فيَغرَقونَ في لَومِ الذّات، وإمّا يَنسِبونَ أفعالَهم كلَّها إلى قُوًى خارِجيّةٍ فيُسقِطونَ المَسؤوليّةَ عن أنفُسِهم. ولم يَكُن هناك تَفسيرٌ مُنضَبِطٌ يُفَرِّقُ بين الخاطِرِ والفِعل.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

النَّبيُّ ﷺ قَرَّرَ هذه الحَقيقةَ ثمّ **ضَبَطَها بقُيودٍ في غايةِ الأهَمِّيّة**: أنّ القَرينَ **يُوَسوِسُ ولا يُجبِر**؛ وأنّ الإنسانَ **لا يُؤاخَذُ بالخاطِرِ ما لم يَعمَل** («إنّ اللهَ تَجاوَزَ لأُمّتي عمّا حَدَّثَت به أنفُسَها ما لم تَعمَل أو تَتَكَلَّم»)؛ وأنّ شِدّةَ الوَسوَسةِ **عَلامةُ إيمانٍ لا عَلامةُ فَساد** – فلمّا شَكا الصَّحابةُ ما يَجِدونَه من الوَسوَسةِ قال: «**ذاكَ صَريحُ الإيمان**»، أي أنّ استِعظامَكم لها دَليلٌ على سَلامةِ قُلوبِكم.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انظُر إلى الأثَرِ النَّفسيِّ لهذا التَّصَوُّر، وقارِنه بحالِ كَثيرٍ من النّاسِ اليوم. فالذي يَأتيه خاطِرٌ بَشِعٌ فيَظُنُّه صادِراً من أعماقِه الحَقيقيّةِ يُصابُ بالرُّعبِ من نَفسِه، وهو ما يَقَعُ في **الوَسواسِ القَهريِّ ذي الطّابِعِ الدِّينيّ** بالذّات. أمّا هذا التَّفسيرُ فيَفصِلُ بين **ما يُلقى عليك** و**ما تَختارُه أنت**، ويَحكُمُ بأنّ الأوّلَ لا تُحاسَبُ عليه، بل كَراهِيَتُك له دَليلُ صَلاحِك. ثمّ يُعطي العِلاجَ العَمَليّ: الاستِعاذةُ والانتِهاء، وعَدَمُ الاسترسالِ في المُجادَلة. وهذا قَريبٌ جِدّاً ممّا تُوصي به العِلاجاتُ النَّفسيّةُ الحَديثةُ في التَّعامُلِ مع الأفكارِ التَّطَفُّليّة: لا تُقاوِمها بالجِدال، ولا تُعَرِّف نَفسَك بها.

١٣٠

يَجري مِن ابنِ آدَمَ مَجرى الدَّم

إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

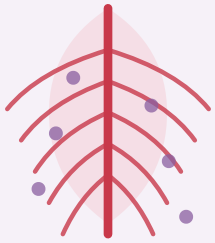

لا مَوضِعَ في الجَسَدِ بَعيدٌ عن مَبلَغِه

«مَجرى الدَّم» – أشمَلُ تَشبيهٍ مُمكِن

الدَّمُ يَبلُغُ كلَّ خَليّةٍ في الجَسَدِ بلا استِثناء

بكلامٍ بسيط

وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ نُفوذَ الشَّيطانِ في الإنسانِ بأنّه **كجَريانِ الدَّم** – أي يَبلُغُ كلَّ مَوضِعٍ منك، لا يَخلو منه عُضو.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لم تَكُن **الدَّورةُ الدَّمَويّة** مَعروفةً. كان الظَّنُّ السّائدُ – وهو مَذهَبُ جالينوس الذي حَكَمَ الطِّبَّ ألفاً وخَمسَمِئةِ سنة – أنّ الدَّمَ يُصنَعُ في الكَبِدِ ويُستَهلَكُ في الأطراف، لا أنّه **يَدورُ دَورةً كامِلةً** فيَبلُغُ كلَّ جُزءٍ من الجَسَدِ ثمّ يَعود. ولم يُكتَشَف ذلك إلّا سنة ١٦٢٨ على يدِ وِليَم هارفي، وأُكمِلَ باكتِشافِ الشَّعيراتِ الدَّقيقةِ سنة ١٦٦١.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

جِهازُ الدَّورانِ يَصِلُ إلى **كلِّ خَليّةٍ في الجَسَد** عبر شَبَكةٍ من الشَّعيراتِ الدَّمَويّةِ يَبلُغُ طولُها مَجموعةً نَحوَ مئةِ ألفِ كيلومتر. ولا يُوجَدُ نَسيجٌ حَيٌّ في البَدَنِ لا يَصِلُه الدَّم. فاختِيارُ «مَجرى الدَّم» تَشبيهاً للنُّفوذِ التّامِّ الشّامِل هو **أدَقُّ تَشبيهٍ مُمكِنٍ في الجَسَدِ كلّه** – ولا يُدرَكُ وَجهُ دِقَّتِه إلّا بعدَ معرفةِ الدَّورةِ الدَّمَويّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

التَّشبيهُ لم يَكُن لِيُختارَ اعتِباطاً. فلو أُريدَ مُجَرَّدُ التَّعبيرِ عن القُربِ لقيلَ «كالظِّلّ» أو «كالنَّفَس» – وكِلاهُما أقرَبُ إلى تَصَوُّرِ ذلك الزَّمان. لكنّ المُرادَ كان **الشُّمولَ والنُّفوذَ إلى كلِّ جُزء**، وهذه خاصّيّةٌ لا تَتَحَقَّقُ في الجَسَدِ إلّا في الدَّمِ وحدَه – وهي خاصّيّةٌ لم تُعرَف إلّا بعدَ عَشرةِ قُرون. ولاحِظ الأثَرَ العَمَليَّ الذي بَناه النَّبيُّ ﷺ على هذا: قالها وهو يُخرِجُ صَفِيّةَ من المَسجِدِ لَيلاً، فمَرَّ رَجُلانِ فأسرَعا، فأوقَفَهما وقال: «على رِسلِكما، إنّها صَفِيّةُ بِنتُ حُيَيّ». أي أنّه جَعَلَ القاعِدةَ سَبَباً لـ**دَفعِ الظَّنِّ السَّيِّئِ عن نَفسِه ابتِداءً** – دَرسٌ في شَفافيّةِ المَوقِفِ لا في التَّخويف.

١٣١

العَينُ حَقّ... وحادِثةٌ وَقَعَت بمَشهَدٍ من الصَّحابة

الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا

رواه مُسلِم – صحيح

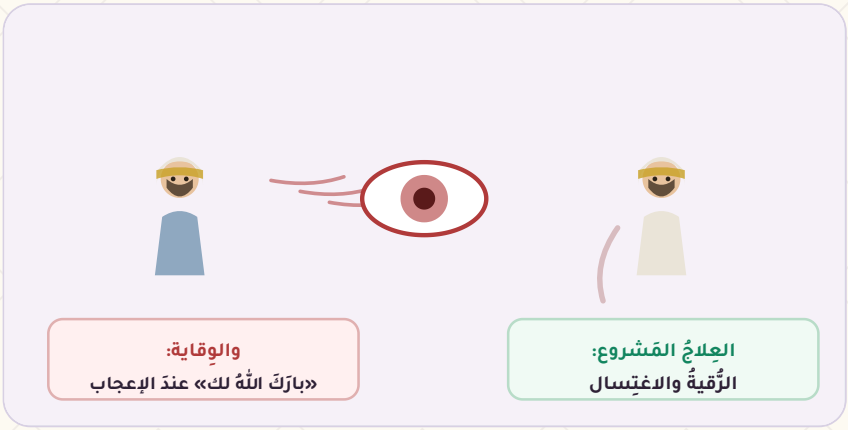

حادِثةُ سَهلِ بنِ حُنَيفٍ وعامِرِ بنِ رَبيعةَ – رواها مالِكٌ وأحمدُ والنَّسائيّ

بكلامٍ بسيط

«العَينُ حَقّ» – أي أنّ نَظرةَ الإعجابِ أو الحَسَدِ قد تُصيبُ بالأذى فِعلاً. ولم يُترَك الأمرُ بلا عِلاج: **الرُّقيةُ والاغتِسال**، والوِقايةُ بأن يَدعُوَ المُعجَبُ بالبَرَكةِ حين يُعجِبُه شَيء.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت العَينُ مَخوفةً عند العَرَبِ وغيرِهم، ويَتَّقونَها بالتَّمائمِ والخَرَزِ والتَّعاويذِ وتَعليقِ العِظامِ وعُيونِ الحَيَوانات. أي أنّهم كانوا يُواجِهونَ اعتِقاداً بخُرافةٍ أُخرى، ويَدفَعونَ لذلك ثَمَناً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

الحادِثةُ المَشهورةُ رَواها مالِكٌ في المُوَطَّأ وأحمدُ والنَّسائيّ: اغتَسَلَ **سَهلُ بنُ حُنَيفٍ** فرآه **عامِرُ بنُ رَبيعة** فقال: «ما رأيتُ كاليَومِ ولا جِلدَ مُخَبَّأة» – فلُبِطَ سَهلٌ (سَقَطَ مَريضاً) في الحال. فأُخبِرَ النَّبيُّ ﷺ فقال: «**عَلامَ يَقتُلُ أحَدُكم أخاه؟ ألّا بَرَّكت**»، ثمّ أمَرَ عامِراً أن يَتَوَضَّأَ ويُصَبَّ الماءُ على سَهل – فقامَ سَهلٌ سَليماً. وقد وَقَعَ ذلك **بمَشهَدٍ من جَماعةٍ من الصَّحابةِ في سَفَر**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ثَلاثةُ أشياءَ في هذه الحادِثةِ تَستَحِقُّ الوَقْف. الأوّل: أنّ **المُصيبَ لم يَكُن حاسِداً كارِهاً**، بل مُعجَباً مُحِبّاً – وهذا يَنقُضُ التَّصَوُّرَ الشّائعَ بأنّ العَينَ لا تَكونُ إلّا من عَدُوّ. الثّاني: أنّ العِلاجَ كان **مِن جِهةِ المُصيبِ لا المُصاب** – يَغتَسِلُ العائنُ ويُصَبُّ الماءُ على المَعين. وهذا عَكسُ كلِّ الطُّقوسِ التي كانت تَستَعمِلُ التَّمائمَ على المُصاب. الثّالث – وهو الأهَمّ –: أنّ النَّبيَّ ﷺ **حَرَّمَ التَّمائمَ تَحريماً قاطِعاً** («مَن عَلَّقَ تَميمةً فقد أشرَك»)، وأعطى بَدَلاً عَمَليّاً بسيطاً مَجّانيّاً. فأثبَتَ الظّاهِرةَ وأبطَلَ الخُرافةَ المُرتَبِطةَ بها في آنٍ واحد – وهو النَّمَطُ نفسُه في هذا البابِ كلِّه.

١٣٢ سُلَيمانُ والجِنُّ المُسَخَّرون

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ

سورة الأنبياء – الآية ٨٢

أعمالٌ مَحدودةٌ مُعَيَّنة: الغَوصُ واستِخراجُ اللآلئ والبِناء

بكلامٍ بسيط

سَخَّرَ اللّهُ لسُلَيمانَ عليه السّلامُ طائفةً من الجِنِّ يَعمَلونَ له: **يَغوصونَ في البَحرِ ويَبنون**. وهذه مُعجِزةٌ خاصّةٌ به وَحدَه، دَعا رَبَّه ألّا تَكونَ لأحدٍ من بَعدِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الأساطيرُ المُنتَشِرةُ في المِنطَقةِ تَنسِبُ إلى سُلَيمانَ سِحراً وتَحَكُّماً بالأرواحِ بكَلِماتٍ وطَلاسِمَ يَتَوارَثُها السَّحَرة. وتَداوَلَ النّاسُ كُتُباً مَنسوبةً إليه في هذا الباب – وهي مَوضوعةٌ مَكذوبة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القرآنُ ضَبَطَ المَسألةَ بقُيودٍ صارِمة: أوّلاً أنّ التَّسخيرَ كان **بإذنِ اللّهِ وحدَه** لا بعِلمٍ سِحريّ: «ومِن الجِنِّ مَن يَعمَلُ بين يَدَيه **بإذنِ رَبِّه**». ثانياً أنّ الأعمالَ كانت **مادّيّةً مَحدودة**: غَوصٌ وبِناءٌ ونَقلٌ – لا عِلمَ غَيبٍ ولا تَصَرُّفَ في الأقدار. ثالثاً – وهو الأصرَح – أنّ القرآنَ نَصَّ على **جَهلِ الجِنِّ بالغَيب** في القِصّةِ نَفسِها: فقد ظَلُّوا يَعمَلونَ بعدَ مَوتِ سُلَيمانَ وهو مُتَّكِئٌ على عَصاه ولم يَعلَموا أنّه ماتَ، «فلمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ ما لَبِثوا في العَذابِ المُهين».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انظُر إلى المُفارَقةِ العَجيبة: القِصّةُ التي يُمكِنُ أن تَكونَ أعظَمَ دَعايةٍ لتَسخيرِ الجِنّ، جُعِلَت هي نَفسُها **البُرهانَ القاطِعَ على عَجزِهم عن عِلمِ الغَيب**. فالجِنُّ الذين يَغوصونَ ويَبنون لم يَعلَموا بمَوتِ الرَّجُلِ الواقِفِ أمامَهم! ولو كان النَّصُّ بَشَرِيّاً في بيئةٍ تُعَظِّمُ الكِهانةَ لَما هَدَمَ أُسطورتَه بيَدِه في الآيةِ نَفسِها. ثمّ إنّ سُلَيمانَ دَعا: «**وهَب لي مُلكاً لا يَنبَغي لأحدٍ من بَعدي**» – فأُغلِقَ البابُ نِهائيّاً أمامَ كلِّ من يَدَّعي بعدَه تَسخيرَ الجِنّ. فالقِصّةُ التي يَستَشهِدُ بها السَّحَرةُ هي في الحَقيقةِ أقوى ما يَنقُضُ دَعواهم.

لماذا تَوَقَّفَت الكِهانةُ بعدَ البِعثة؟

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا

سورة الجِنّ – الآيتان ٨-٩

حَدَثٌ اجتِماعيٌّ مَلحوظ: انهِيارُ الكِهانةِ مع بِدايةِ البِعثة

بكلامٍ بسيط

كان الكُهّانُ يُخبِرونَ بأشياءَ تَقَعُ أحياناً، لأنّ الشَّياطينَ كانت تَسمَعُ شَيئاً من خَبَرِ السَّماءِ فتُلقيه إليهم. فلمّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ **مُنِعَت من ذلك**، فانقَطَعَ مَصدَرُهم وبَطَلَت صِناعَتُهم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الكِهانةُ مُؤَسَّسةً اجتِماعيّةً كامِلةً في الجَزيرة: للكاهِنِ مَكانةٌ ومالٌ وسُلطان، ويُحتَكَمُ إليه في الخُصوماتِ ويُسألُ عن المَغيَّبات. ومن أشهَرِهم سَطيحٌ وشِقٌّ وسَواد. وكان صِدقُهم أحياناً هو ما يَحفَظُ لهم مَكانَتَهم.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

تَذكُرُ المَصادِرُ التّاريخيّةُ والسِّيَرُ أنّ الكُهّانَ أنفُسَهم **شَكَوا انقِطاعَ الخَبَرِ عنهم** عندَ بِعثةِ النَّبيِّ ﷺ، وأنّ كَثيراً منهم أخبَرَ قَومَه بذلك – بل كان من أسبابِ إسلامِ بعضِهم. والمُلاحَظُ تاريخيّاً أنّ **الكِهانةَ بمَعناها القَديمِ اندَثَرَت في الجَزيرةِ اندِثاراً شِبهَ تامّ** بعدَ الإسلام، بعدَ أن كانت رُكناً من أركانِ الحَياةِ الاجتِماعيّة. وثَبَتَ في الصَّحيحَينِ بَيانُ الآليّة: «فيُلقيها إلى الذي تَحتَه… فيَكذِبُ معها مئةَ كَذبة».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

النَّبيُّ ﷺ لم يَكتَفِ بالمَنعِ، بل **فَسَّرَ سِرَّ الظّاهِرةِ تَفسيراً يُبطِلُها من داخِلِها**. فقد سُئِلَ عن الكُهّانِ فقال: «ليسوا بشَيء». قالوا: إنّهم يُحَدِّثونا أحياناً بالشَّيءِ يَكونُ حَقّاً. فقال ﷺ: «**تِلكَ الكَلِمةُ من الحَقِّ يَخطَفُها الجِنّيُّ فيَقُرُّها في أُذُنِ وَلِيِّه، فيَخلِطونَ معها مئةَ كَذبة**». وهذا تَفسيرٌ بالِغُ الدِّقّةِ لِما يُسَمّى اليومَ في عِلمِ النَّفسِ **«التَّحَيُّزَ التَّأكيديّ»**: أنّ النّاسَ يَحفَظونَ الإصابةَ الواحدةَ ويَنسَونَ مئةَ إخفاقة. فأبطَلَ الكِهانةَ لا بالإنكارِ المُجَرَّد، بل بكَشفِ الآليّةِ الإحصائيّةِ التي تَقومُ عليها – وهي بعَينِها الحُجّةُ التي يَستَعمِلُها العِلمُ اليومَ ضِدَّ التَّنجيمِ وقِراءةِ الطّالِع.

١٣٤

يا سارِيةُ... الجَبَل

نَادَى عُمَرُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ! ... فَقَالَ الرَّسُولُ: سَمِعْنَا صَوْتَ عُمَرَ فَأَلْجَأْنَا ظُهُورَنَا إِلَى الْجَبَلِ فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا

رواه البَيهقيُّ وابنُ عساكرَ وغيرُهما – حَسَّنَه جَماعة

كَرامةٌ رواها التّابِعونَ وتَناقَلَها أهلُ العِلمِ في كُتُبِهم

بكلامٍ بسيط

بينما كان عُمَرُ بنُ الخَطّابِ يَخطُبُ الجُمُعةَ في المدينة، صاحَ فَجأةً: **«يا سارِيةُ... الجَبَلَ!»**. وكان سارِيةُ قائدَ جَيشٍ على بُعدِ مِئاتِ الأميال. ولمّا رَجَعَ الجَيشُ قالوا: سَمِعنا صَوتَ عُمَرَ فلَجَأنا إلى الجَبَلِ فانتَصَرنا.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لا وَسيلةَ اتِّصالٍ بين المدينةِ وأرضِ المَعركةِ إلّا الرُّسُلُ على الإبِل، تَستَغرِقُ أسابيع. والخُطبةُ تَجري أمامَ أهلِ المدينةِ كلِّهم. والنّاسُ سَمِعوا النِّداءَ واستَغرَبوه ولم يَفهَموا مَعناه في حينِه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

الخَبَرُ رواه البَيهقيُّ في «دَلائلِ النُّبُوّة»، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دِمَشق»، وأبو نُعَيمٍ وابنُ الأثيرِ وغيرُهم، من عِدّةِ طُرُق. وقد حَسَّنَه جَماعةٌ من أهلِ العِلمِ بمَجموعِ طُرُقِه، وذَكَرَه ابنُ حَجَرٍ وابنُ كَثيرٍ وابنُ تيميّة. وهو من أشهَرِ **كَراماتِ الصَّحابة** المَنقولة. ونَظائرُه ثابتة: **العَلاءُ بنُ الحَضرَميِّ** وجَيشُه عَبَروا الخَليجَ إلى دارِينَ على الماء؛ و**خالِدُ بنُ الوَليدِ** شَرِبَ السُّمَّ فلم يَضُرّه؛ و**سَعدُ بنُ أبي وَقّاصٍ** كان مُستَجابَ الدَّعوةِ بدَعوةِ النَّبيِّ ﷺ له.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الفَرقُ بين **المُعجِزةِ والكَرامة** أصلٌ مُهِمٌّ في هذا الباب. فالمُعجِزةُ تَقَعُ للنَّبيِّ تَحَدِّياً وإثباتاً للنُّبُوّة، والكَرامةُ تَقَعُ للصّالِحِ **بلا تَحَدٍّ ولا دَعوى**. ولهذا فإنّ الكَرامةَ لا تُطلَبُ ولا يُتَباهى بها، ولا يَجوزُ لصاحِبِها أن يَبنيَ عليها دَعوى. ومَن طَلَبَها وتَكَسَّبَ بها فهو أبعَدُ النّاسِ عنها. وهذا الضّابِطُ هو ما يَفصِلُ الإسلامَ عن كلِّ ما يُروَّجُ اليومَ باسمِ «الطّاقةِ الرُّوحيّة» و«الفَتحِ» و«الكَشفِ» ممّا يُباعُ ويُشترى. وقد سُئِلَ عُمَرُ عن ندائه فأعرَضَ ولم يُفَسِّر – وهذا هو مَوقِفُ أهلِ الكَراماتِ منها.

١٣٥

ليس كلُّ مَرَضٍ مَسّاً ـــ التَّفريقُ الواجِب

تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ

رواه أبو داود والتِّرمِذيُّ – صحيح

ثمّ الرُّقيةُ الشَّرعيّة

- قُرآنٌ يُقرَأُ بلا أُجرةٍ مُبالَغة
- بلا طُقوسٍ ولا بَخُور
- بلا سُؤالٍ عن الاسمِ والأُمّ
- بلا خَلوةٍ بامرأة
- والمَريضُ يَرقي نَفسَه

أوّلاً: اذهَب للطَّبيب

- الصَّرَعُ العُضويّ
- نَقصُ فيتامينات
- اضطِرابُ الغُدّة
- أمراضٌ نَفسيّةٌ مَعروفة
- قِلّةُ نَومٍ وإرهاق

مَن خالَفَ هذه الضَّوابِطَ فهو مُشعوِذٌ لا راقٍ

التَّرتيبُ الصَّحيح: الطِّبُّ أوّلاً، ثمّ الرُّقيةُ بضَوابِطِها

بكلامٍ بسيط

الإسلامُ أثبَتَ المَسَّ والسِّحر، **لكنّه لم يَجعَل كلَّ مَرَضٍ منهما**. بل أمَرَ بالتَّداوي أوّلاً، وجَعَلَ الرُّقيةَ قُرآناً يَقرَؤُه المَريضُ على نَفسِه بلا واسِطةٍ ولا أُجرةٍ ولا طُقوس.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الأُمَمُ قبلَ الإسلامِ تُرجِعُ أكثَرَ الأمراضِ إلى الأرواحِ والشَّياطين، فيُعالَجُ المَريضُ بالطُّقوسِ والذَّبحِ للجِنِّ والتَّعاويذ. وقد استَمَرَّ هذا في أوروبّا قُروناً، حتّى أُحرِقَت نِساءٌ بتُهمةِ السِّحرِ في القَرنِ السّابِعَ عشر. وكان المَرضى النَّفسيّونَ يُعامَلونَ مُعامَلةَ المَمسوسين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

النَّبيُّ ﷺ أمَرَ بالتَّداوي أمراً صَريحاً، وقال: «**لكلِّ داءٍ دَواء**»، واستَعمَلَ العَسَلَ والحِجامةَ والحَبّةَ السَّوداء، ووَصَفَ لأصحابِه أدويةً بعَينِها. وقال: «إنّما الشِّفاءُ في ثَلاث: شَربةِ عَسَل، وشَرطةِ مِحجَم، وكَيَّةِ نار». وأرسَلَ إلى سَعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ **طَبيباً** يُعالِجُه. أمّا الرُّقيةُ فشُروطُها عند العُلَماءِ ثَلاثة: أن تَكونَ بكَلامِ اللهِ أو أسمائه، وباللِّسانِ العَرَبيِّ المَفهوم، وأن يُعتَقَدَ أنّها سَبَبٌ لا مُؤَثِّرٌ بذاتِه.

لماذا هذا معجزةٌ قاطعة؟

هذا الضّابِطُ هو ما يَحمي النّاسَ من أكبَرِ ضَرَرَين. الأوّل: **تَركُ العِلاجِ الطِّبّيِّ لمَرَضٍ عُضويّ** ظَنّاً أنّه مَسّ – وقد قَتَلَ هذا كَثيرين. الثّاني: **الوُقوعُ في يَدِ المُشعوِذين** الذين يَستَغِلُّونَ الخَوفَ ويَبتَزّونَ الأموالَ والأعراض. ولهذا شَدَّدَ النَّبيُّ ﷺ في هذا البابِ تَشديداً بالِغاً: «**مَن أتى عَرّافاً فسَألَه عن شَيءٍ لم تُقبَل له صَلاةٌ أربَعينَ لَيلة**»، و«**مَن أتى كاهِناً فصَدَّقَه بما يَقولُ فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على محمّد**». فالبابُ الذي فُتِحَ لإثباتِ الحَقيقةِ **أُغلِقَ بإحكامٍ أمامَ الاستِغلال**. وأيُّ راقٍ يَسألُك عن اسمِك واسمِ أُمِّك، أو يَطلُبُ ذَبيحةً أو أثَراً أو مالاً كَثيراً – فهو المُشعوِذُ الذي حَذَّرَ منه النَّبيُّ ﷺ بعَينِه.

١٣٦ كلُّ أُمّةٍ عَرَفَت هذا العالَم

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ

سورة الأنعام – الآية ١٢٨

الاعتِقادُ بعالَمٍ غيرِ مَرئيٍّ عاقِلٍ مَوجودٌ في كلِّ حَضارةٍ عُرِفَت

بكلامٍ بسيط

كلُّ أُمّةٍ في التّاريخِ – بابِلُ ومِصرُ واليونانُ والهِندُ والصّينُ وشُعوبُ إفريقيا وأمريكا – عَرَفَت وُجودَ **مَخلوقاتٍ عاقِلةٍ غيرِ مَرئيّة**، وسَمَّتها بأسماءٍ مُختَلِفة.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت هذه الشُّعوبُ مُتَباعِدةً لا يَعرِفُ بعضُها بعضاً، ولا لُغةَ جامِعةَ بينها ولا تِجارة. ومع ذلك تَشابَهَت تَصَوُّراتُها إلى حَدٍّ لافِت: كائناتٌ عاقِلة، تَسكُنُ الخَرِبَ والفَيافي، تُؤذي وتَنفَع، وتُسترضى بالقَرابين، ومنها الصّالِحُ والطّالِح.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عُلَماءُ الأنثروبولوجيا يُسَمُّونَ هذا **«عُموميّةً ثَقافيّة»** (Cultural Universal): ظاهِرةٌ تَظهَرُ في كلِّ المُجتَمَعاتِ المَعروفةِ بلا استِثناء. والاعتِقادُ بكائناتٍ رُوحيّةٍ عاقِلةٍ واحِدٌ من أوضَحِ الأمثِلةِ عليها، وقد وَثَّقَه جورج مردوك في قائمتِه الشَّهيرةِ للعُموميّاتِ الثَّقافيّة. وأسماؤها: «شيدو» في بابِل، و«الأخو» في مِصر، و«دايمون» عند اليونان، و«بهوت» في الهِند، و«الجِنّ» عند العَرَب.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا لا يُقدَّمُ هنا بَرهاناً قاطِعاً بذاتِه – فالاتِّفاقُ لا يُثبِتُ الصِّحّةَ وَحدَه. لكنّه **يَنقُضُ التَّفسيرَ الذي يُقال**: أنّ الجِنَّ خُرافةٌ عَرَبيّةٌ نَقَلَها القرآنُ عن بيئتِه. فالظّاهِرةُ أقدَمُ من العَرَبِ بآلافِ السِّنينَ وأوسَعُ منهم بقارّاتٍ كامِلة. والأدَقُّ من ذلك أنّ القرآنَ **لم يَنقُلِ التَّصَوُّرَ السّائدَ بل صَحَّحَه**: فقد كانت الأُمَمُ كلُّها تَعبُدُها وتُقَرِّبُ لها القَرابين، فحَرَّمَ ذلك وسَمّاه شِركاً؛ وكانت تَنسِبُ إليها عِلمَ الغَيب، فنَفاه عنها نَفياً قاطِعاً؛ وكانت تَجعَلُها أنصافَ آلِهةٍ، فجَعَلَها **خَلْقاً مُكَلَّفاً يُحاسَبُ كما نُحاسَب**. فالاتِّفاقُ في أصلِ الوُجود، والاختِلافُ الكامِلُ في الحُكم – وهذا شَأنُ المُصَحِّحِ لا النّاقِل.

١٣٧ خَمسٌ لا يَعلَمُها إلّا الله

إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

سورة لُقمان – الآية ٣٤

حَدٌّ قاطِعٌ يَقطَعُ الطَّريقَ على كلِّ مُدَّعٍ

بكلامٍ بسيط

بعدَ كلِّ ما مَضى في هذا الباب، يُغلِقُ القرآنُ البابَ بإحكام: هناك **خَمسةُ أشياءَ لا يَعلَمُها إلّا اللهُ وَحدَه**. فمَن ادَّعى عِلمَ شَيءٍ منها – كائناً مَن كان – فهو كاذِب.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الكِهانةُ والعِرافةُ والتَّنجيمُ وقِراءةُ الطّالِعِ صِناعاتٍ رائجةً في كلِّ حَضارة. والكاهِنُ يُسألُ عن الغَيبِ فيُجيب، ويُصيبُ أحياناً فتَزدادُ مَكانتُه. وكانت هذه أبوابَ رِزقٍ ونُفوذٍ عَظيمة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

هذه الخَمسُ مَذكورةٌ في الآيةِ نَفسِها، وفَسَّرَها النَّبيُّ ﷺ في حَديثِ جِبريلَ بأنّها «**مَفاتيحُ الغَيبِ الخَمس**» (رواه البُخاريّ). ولاحِظ أنّها ليست أُموراً غامِضةً مُبهَمة، بل **قابِلةٌ للاختِبار**: لم يَستَطِع أحدٌ في التّاريخِ أن يُحَدِّدَ يومَ القِيامة، ولا أن يَجزِمَ بنُزولِ المَطَرِ يَقيناً (والأرصادُ تُعطي احتِمالاتٍ لا يَقيناً)، ولا أن يَعلَمَ ما في الرَّحِمِ **على التَّمامِ** من مَصيرٍ ورِزقٍ وعُمُرٍ وعَمَل – وأمّا مَعرِفةُ الجِنسِ بالسّونارِ فهي رُؤيةُ ما ظَهَرَ بعدَ تَكَوُّنِه، لا عِلمٌ بالغَيبِ قبلَه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا الحَدُّ هو **صِمامُ الأمانِ** في هذا البابِ كلِّه. فكلُّ ما مَضى – من إثباتِ الجِنِّ والسِّحرِ والعَينِ والكَرامات – كان يُمكِنُ أن يَفتَحَ باباً واسِعاً للدَّجَلِ والاستِغلال. فجاءت هذه الآيةُ لتَقطَعَ الطَّريقَ سَلَفاً على كلِّ مُدَّعٍ: **مَن أخبَرَكَ بغَدِك فهو كاذِب**، مَهما بَدا صادِقاً في غيرِه. والنَّبيُّ ﷺ نَفسُه أُمِرَ أن يُعلِنَ ذلك عن نَفسِه: «**قُل لا أملِكُ لنَفسي نَفعاً ولا ضَرّاً إلّا ما شاءَ اللّه، ولو كُنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاستَكثَرتُ من الخَير**». فالذي جاء بهذا الدِّينِ **نَفى عن نَفسِه أوّلاً** ما كان يَدَّعيه كُهّانُ زَمانِه. ولا يَفعَلُ هذا مُدَّعٍ يَبتَغي سُلطاناً.

١٣٨

حِصنُك اليَوميّ... كَلِماتٌ لا تُكلِّفُ شيئاً

مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ

رواه مُسلِم – صحيح

١	٢	٣	٤
آيةُ الكُرسيّ	المُعَوِّذات	أذكارُ الصَّباح	بسم الله
عندَ النَّوم	ثَلاثاً صَباحاً	ومَساءً	عندَ الدُّخول
حافِظٌ حتّى الصَّباح	«ما تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنّ»	«لم يَضُرَّه شَيء»	«لا مَبيتَ لكم»

بلا واسِطةٍ ولا أُجرةٍ ولا طُقوس – وفي مُتَناوَلِ كلِّ أحد

أربعةُ أذكارٍ ثابِتةٍ في الصَّحيحِ تُغني عن كلِّ ما سِواها

بكلامٍ بسيط

لم يُتْرَك الإنسانُ أمامَ هذا العالَمِ بلا سِلاح. أعطاه النَّبيُّ ﷺ **أذكاراً قَصيرةً يَحفَظُها الطِّفل**، يَقولُها بنَفسِه بلا واسِطةٍ ولا مالٍ ولا طُقوس.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الحِمايةُ من الجِنِّ والحَسَدِ تَقتَضي **وَسيطاً**: كاهِناً أو ساحِراً أو حامِلَ تَميمة. ويَدفَعُ النّاسُ لذلك المالَ والذَّبائح، ويَتَعَلَّقونَ بأشياءَ يُعَلِّقونَها على أبنائهم ودَوابِّهم. وهو نِظامٌ يُنتِجُ التَّبَعِيّةَ والخَوفَ ويُدِرُّ الرِّبحَ على أصحابِه.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

الأذكارُ الثّابِتةُ في الصَّحيحِ كَثيرة، وأشهَرُها: **آيةُ الكُرسيّ** عندَ النَّوم – «لم يَزَل عليك من اللهِ حافِظ ولا يَقرَبُك شَيطان»؛ **المُعَوِّذَتانِ والإخلاص** ثَلاثاً صَباحاً ومَساءً – «تَكفيكَ من كلِّ شَيء»؛ **«أعوذُ بكَلِماتِ اللّهِ التّامّاتِ من شَرِّ ما خَلَق»** – «لم يَضُرَّه شَيءٌ تِلكَ اللَّيلة»؛ و**التَّسمِيةُ عندَ دُخولِ البَيتِ والطَّعام** – «لا مَبيتَ لكم ولا عَشاء»؛ وقِراءةُ **سورةِ البقرة** في البَيت – «لا يَدخُلُه شَيطان».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

انظُر إلى البِنيةِ التي أقامَها هذا الدِّين، وقارِنها بما كان. لقد نَقَلَ الحِمايةَ من **احتِكارِ الوَسيطِ** إلى **مِلكِ كلِّ فَرد**. فلا يَحتاجُ المُسلِمُ إلى راقٍ ولا كاهِنٍ ولا تَميمةٍ ولا أُجرة – كَلِماتٌ يَحفَظُها ويَقولُها بنَفسِه، وهي في مُتَناوَلِ الفَقيرِ كما هي في مُتَناوَلِ الغَنيّ. وهذا يَهدِمُ اقتِصادَ الشَّعوَذةِ من أساسِه، ولا يُقيمُ مَكانَه سُلطةً بَديلة. ثمّ لاحِظ أنّ هذه الأذكارَ كلَّها **تَعويذٌ باللهِ لا بالجِنِّ ولا بالأسماء** – فهي تُعَلِّمُ التَّوحيدَ في ذاتِ الوَقتِ الذي تَحمي فيه. وهذا هو الفَرقُ الجَوهَريُّ بين الرُّقيةِ الشَّرعيّةِ وكلِّ ما سِواها.

الميزانُ في هذا الباب

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا

سورة الجنّ – الآية ٦

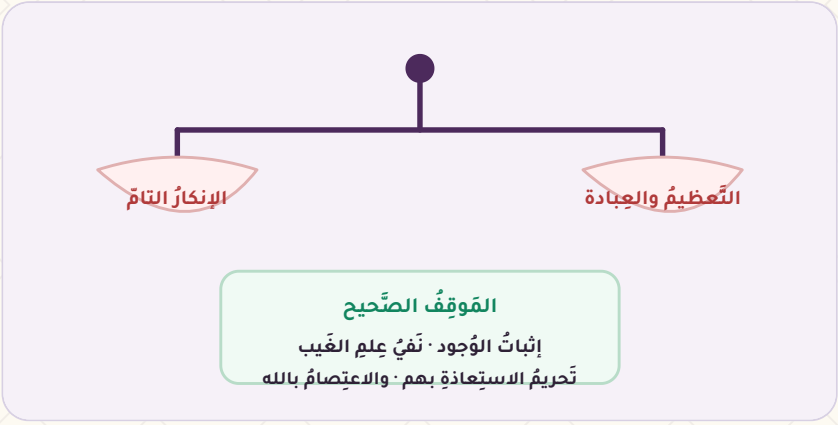

بين إنكارٍ يُكَذِّبُ الوَحي وتَعظيمٍ يُفضي إلى الشِّرك

بكلامٍ بسيط

عالَمُ الغَيبِ حَقيقةٌ، لكنّ التَّعامُلَ معه له **ميزانٌ دَقيق**: لا نُنكِرُه فنُكَذِّبَ ما أخبَرَ اللّهُ به، ولا نُعَظِّمُه فنَقَعَ في الشِّركِ والخَوفِ والدَّجَل.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

وَقَعَ النّاسُ قَديماً في طَرَفٍ واحد: التَّعظيمُ والاستِعاذةُ والقَرابينُ والكِهانة. ووَقَعَ كَثيرٌ من النّاسِ اليومَ في الطَّرَفِ الآخَر: إنكارُ كلِّ ما لا تَراه العَين. وكِلا الطَّرَفَينِ خَطأ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

المَوقِفُ الذي قَرَّرَه القرآنُ والسُّنّةُ يَجمَعُ خَمسةَ أُصولٍ لا يَنفَكُّ بعضُها عن بَعض: **إثباتُ الوُجود** – فهو من الإيمانِ بالغَيب؛ **نَفيُ عِلمِ الغَيبِ عنهم** – فلا كِهانةَ ولا تَنجيم؛ **تَحريمُ الاستِعاذةِ بهم** وجَعلُها شِركاً؛ **الأمرُ بالتَّداوي** وتَقديمُ الطِّبِّ على الظُّنون؛ **الوِقايةُ بذِكرِ اللّهَ** بلا واسِطةٍ ولا أُجرةٍ ولا طُقوس.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذه المَنظومةُ في مَجموعِها هي الدَّليل. فلو كان هذا الدِّينُ من صُنعِ بَشَرٍ في تلك البيئة، لكان أسهَلَ ما عليه – وأنفَعَ له – أن يَركَبَ مَوجةَ الكِهانةِ السّائدة: يُثبِتُ الغَيبَ لنَفسِه، ويَجعَلُ لأتباعِه واسِطةً تُدِرُّ عليهم، ويَبني سُلطةً رُوحيّةً على خَوفِ النّاسِ من المَجهول. وهذا ما فَعَلَته المُؤَسَّساتُ الدِّينيّةُ في كَثيرٍ من الأُمَم. لكنّ الذي جاء بهذا الدِّينِ فَعَلَ العَكسَ تَماماً: **نَفى عِلمَ الغَيبِ عن نَفسِه**، و**أبطَلَ الكِهانةَ والتَّمائم**، و**وَضَعَ السِّلاحَ في يَدِ كلِّ فَردٍ مَجّاناً**، و**أمَرَ بالطِّبيبِ قبلَ الرّاقي**. مَن يَفعَلُ هذا لا يَبني سُلطاناً لنَفسِه – بل يُبَلِّغُ رِسالةً كُلِّفَ بها.

الباب التّاسع

الإعجازُ في اللّغةِ والتّحدّي

أعظمُ معجزةٍ ليست في السّماءِ ولا في الأرض... بل في الكتابِ نفسِه:
تحدٍّ مفتوحٌ منذ ألفٍ وأربعِمئةِ عام، لم يَجرُؤ أحدٌ على قَبولِه.

١٢ موضوعاً

تَحَدٍّ نَزَلَ ثَلاثَ دَرَجاتٍ... ولم يُقبَل

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

سورة البقرة – الآية ٢٣

التَّحَدّي يَنزِلُ دَرَجةً بعدَ دَرَجةٍ حتّى يَبلُغَ أدنى ما يُمكِن

بكلامٍ بسيط

تَحَدّى القرآنُ العَرَبَ أن يَأتوا بمِثلِه. فلمّا عَجَزوا، خَفَّفَ: عَشرُ سُوَر. فلمّا عَجَزوا، خَفَّفَ أكثَر: **سورةٌ واحدةٌ فقط**، ولو كانت ثَلاثَ آياتٍ قِصار. ولم يَأتِ بها أحدٌ إلى اليوم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان العَرَبُ **أُمّةَ البَيانِ بلا مُنازِع**. الشِّعرُ دِيوانُهم وفَخرُهم، وتُقامُ لهم الأسواقُ في عُكاظَ وذي المَجاز، وتُعَلَّقُ القَصائدُ على الكَعبة. وفيهم امرُؤُ القَيسِ وزُهَيرٌ ولَبيدٌ وطَرَفة. وكانوا أحوَجَ ما يَكونونَ إلى إسقاطِ هذه الدَّعوةِ بأيسَرِ الطُّرُق.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

مَرَّت أربعةَ عشرَ قَرناً، وحاوَلَ أُناسٌ فلم يَصمُد لهم شَيء. ومَن قَرَأَ ما نُسِبَ إلى مُسَيلِمةَ الكَذّابِ وابنِ المُقَفَّعِ وغيرِهما وَجَدَه **مَحَلَّ سُخرِيَةٍ لا مُعارَضة**. والتَّحَدّي ما زال قائماً، والوَسائلُ اليومَ أضخَمُ: مَجامِعُ لُغَويّة، وجامِعاتٌ ومَعاجِمُ رَقميّة، وحاسوباتٌ تُحَلِّلُ الأساليب. ومع ذلك لم يُقَدَّم نَصٌّ واحدٌ يَقولُ فيه أهلُ اللُّغةِ: هذا مِثلُه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

اللّافِتُ في هذا التَّحَدّي أمرانِ يَجعَلانِه فَريداً. الأوّل: **التَّدَرُّجُ النّازِل** – وهو عَكسُ ما يَفعَلُه المُتَحَدّي عادةً. فالمُبالِغُ يَرفَعُ سَقفَ تَحَدّيه ليَبقى بعيدَ المَنال؛ أمّا هذا فأنزَلَه حتّى بَلَغَ أدنى حَدٍّ مُمكِن: **سورةٌ واحدةٌ ولو كانت أقصَرَ سُوَرِ القرآن**. الثّاني: أنّه **أذِنَ لهم بالاستِعانةِ بكلِّ أحد**: «وادعُوا شُهَداءَكم من دونِ اللّه» – أي اجتَمِعوا كلُّكم وادعُوا مَن شِئتُم. ثمّ جَزَمَ بالنَّتيجةِ مُقَدَّماً في آيةٍ أُخرى: «**فإن لم تَفعَلوا ولن تَفعَلوا**» – وهذا جَزمٌ بالمُستَقبَلِ لا يَجرُؤُ عليه مُخاطِر.

١٤١

ما كُنتَ تَتلو مِن قَبلِهِ مِن كِتاب

وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ

سورة العنكبوت – الآية ٤٨

الأُمّيّةُ هنا ليست نَقصاً... بل هي البُرهان

بكلامٍ بسيط

النَّبيُّ ﷺ **لم يَكُن يَقرَأُ ولا يَكتُب**، ولم يَدرُس على أحد. والآيةُ تَذكُرُ ذلك وتُعَلِّلُه: لو كان يَقرَأُ ويَكتُبُ **لَشَكَّ النّاسُ** وقالوا: نَقَلَ من الكُتُب.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الكِتابةُ نادِرةً في مكّة، والأُمّيّةُ هي الغالِبة. ومع ذلك كان بمكّةَ من يَقرَأُ ويَكتُب، وكان في الجَزيرةِ يَهودٌ ونَصارى لهم كُتُبٌ وعُلَماء. فلو كان النَّبيُّ ﷺ قارِئاً كاتِباً لكانت التُّهمةُ جاهِزةً ولا جَوابَ عنها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

أُمّيّةُ النَّبيِّ ﷺ من أثبَتِ الحَقائقِ التّاريخيّةِ في سيرَتِه، ولم يُنازِع فيها خُصومُه في زَمانِه – وهم أحرَصُ النّاسِ على الطَّعن. وقد **اتَّهَموه بكلِّ شَيءٍ إلّا هذا**: قالوا شاعِرٌ وساحِرٌ وكاهِنٌ ومَجنون، وقالوا «إنّما يُعَلِّمُه بَشَر» – فرَدَّ القرآنُ: «لِسانُ الذي يُلحِدونَ إليه أعجَميٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبين». أي أنّ الرَّجُلَ الذي أشاروا إليه لا يُحسِنُ العربيّةَ أصلاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القرآنُ هنا **يُقَدِّمُ الحُجّةَ التي كان يُمكِنُ أن تُقالَ عليه، ثمّ يَنقُضُها**. وهذا أُسلوبٌ لا يَسلُكُه إلّا واثِق. فالآيةُ تَقول: العَجَبُ ليس أنّ هذا الكِتابَ عَظيم، بل أنّه جاء على لِسانِ **مَن لا يَقرَأُ ولا يَكتُب**. ثمّ زادَ الأمرَ خُطورةً: أنّ النَّصَّ يَتَضَمَّنُ أخبارَ الأُمَمِ السّابِقةِ وتَفاصيلَ تاريخيّةً دَقيقة، وتَشريعاتٍ كامِلةً في المِيراثِ والقَضاءِ والحَرب، ووَصفاً لأُمورٍ كَونيّةٍ لم تُعرَف بعد. كلُّ ذلك من رَجُلٍ لا يَملِكُ أن يَقرَأَ سَطراً واحداً. وهذا هو مَعنى قَولِه: «**إذاً لارتابَ المُبطِلون**» – أي أنّ أُمّيَّتَه هي التي أغلَقَت بابَ الرَّيب.

١٤٢

ثَلاثٌ وعِشرونَ سنةً... بلا تَناقُضٍ واحد

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

سورة النِّساء – الآية ٨٢

نُزولٌ مُتَفَرِّقٌ على الأحداثِ لا تَأليفٌ في مَجلِس

المدينة — ٢٣ سنة — مكّة

في حَربٍ وسِلم · في فَقرٍ وغِنًى · في ضَعفٍ وقُوّة
وفي فَرَحٍ وحُزنٍ وهِجرةٍ وحِصار… ولا تَناقُضَ في حَرف

كِتابٌ لم يُكتَب دَفعةً واحدةً ولم يُراجَع ولم يُنَقَّح

بكلامٍ بسيط

نَزَلَ القرآنُ **مُتَفَرِّقاً على ثَلاثٍ وعِشرينَ سنة**، آيةً وآياتٍ بحَسَبِ الأحداث – في الحَربِ والسِّلم، وفي الشِّدّةِ والرَّخاء. ومع ذلك لا تَجِدُ فيه تَناقُضاً ولا تَبَدُّلاً في المَنهَجِ ولا رُجوعاً عن قَولٍ سابِق.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الكُتُبُ تُؤَلَّفُ في مَجلِسٍ ثمّ تُراجَعُ وتُنَقَّحُ قبلَ نَشرِها، فتُزالُ منها المُتَناقِضات. أمّا القرآنُ فكان يُتلى على النّاسِ **فَوراً عندَ نُزولِه**، ويَحفَظونَه ويَكتُبونَه، ثمّ لا سَبيلَ إلى تَعديلِ ما مَضى. وكلُّ ما نَزَلَ في مكّةَ كان في يَدِ خُصومِه قبلَ الهِجرةِ بسِنين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

يُمكِنُ لأيِّ أحدٍ أن يَختَبِرَ هذا بنَفسِه اليوم: أن يَكتُبَ نَصّاً مُتَفَرِّقاً على عِشرينَ سنة، يَتَناوَلُ العَقيدةَ والتَّشريعَ والتّاريخَ والأخلاقَ والكَونَ والنَّفس، ثمّ يُراجِعَ في آخِرِه فلا يُوجَدَ فيه تَناقُض. وقد فَتَّشَ الباحِثونَ – مُسلِمونَ وغيرُهم – في القرآنِ أربعةَ عشرَ قَرناً بَحثاً عن تَناقُض، وأُلِّفَت كُتُبٌ كامِلةٌ في «مُشكِلِ القرآن» و«تَأويلِ مُختَلِفِ الآيات»، وانتَهَت جَميعاً إلى أنّ ما يَبدو اختِلافاً هو **اختِلافُ تَنَوُّعٍ لا تَضادّ**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ تُقَدِّمُ هنا **مِعياراً عِلميّاً قابِلاً للتَّطبيق**، لا دَعوى. تَقول: لو كان بَشَريّاً **لَوَجَدتُم فيه اختِلافاً كَثيراً**. وهذا صَحيحٌ منطِقيّاً: النَّصُّ الذي يَمتَدُّ عِشرينَ سنةً في ظُروفٍ مُتَقَلِّبةٍ لا بُدَّ أن يَحمِلَ أثَرَ تَبَدُّلِ حالِ صاحِبِه. والأعجَبُ أنّ النَّبراتِ لم تَتَغَيَّر بتَغَيُّرِ الحال: فآياتُ العَفوِ والرَّحمةِ تَنزِلُ **بعدَ النَّصر** لا قبلَه، وآياتُ الثَّباتِ والوَعدِ تَنزِلُ **في الهَزيمةِ والحِصار**. ولو كان النَّصُّ انعِكاساً لحالِ صاحِبِه لكان العَكسُ هو المُتَوَقَّع.

١٤٣

شَهادةُ الوَلِيدِ بنِ المُغيرة

وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ

رواه الحاكِمُ والبَيهقيُّ في الدَّلائل – مَشهورٌ في كُتُبِ السِّيَرة

قالها أعقَلُ رِجالِ قُرَيشٍ وأشَدُّهم عَداوة

«إنّ له لَحَلاوة... وإنّ عليه لَطَلاوة»

«وإنّ أسفَلَه لَمُغدِق، وإنّ أعلاه لَمُثمِر»

«وما يَقولُ هذا بَشَر»

ثمّ عادَ فقال: «إن هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر»

اعتَرَفَ بالحَقيقةِ... ثمّ اختارَ قَولاً يُرضي قَومَه

بكلامٍ بسيط

الوَليدُ بنُ المُغيرةِ كان من أذكى قُرَيشٍ وأعرَفِهم بالكَلام، وكان من ألَدِّ أعداءِ الدَّعوة. وحين سَمِعَ القرآنَ وَصَفَه بأجمَلِ وَصفٍ وقال: **«وما يَقولُ هذا بَشَر»**. ثمّ ضَغَطَ عليه قَومُه فقال: «إن هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت قُرَيشٌ تَبحَثُ عن كَلِمةٍ تَقولُها للحُجّاجِ عن محمّدٍ ﷺ قبلَ المَوسِم، فاجتَمَعوا إلى الوَليدِ لأنّه أعقَلُهم وأعلَمُهم بالشِّعرِ والبَيان. فعَرَضوا عليه: كاهِن؟ مَجنون؟ شاعِر؟ ساحِر؟ – **فرَدَّ كلَّ هذه** بحُجَجٍ من صِناعةِ الكَلامِ نَفسِها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القِصّةُ مَشهورةٌ في كُتُبِ السِّيرةِ والتَّفسير، ونَزَلَ فيه ما في سورةِ المُدَّثِّر: «**إنّه فَكَّرَ وقَدَّر ◌ فقُتِلَ كيف قَدَّر ◌ ثمّ نَظَر ◌ ثمّ عَبَسَ وبَسَر ◌ ثمّ أدبَرَ واستَكبَر ◌ فقال إن هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر**». والآياتُ تَصِفُ حالَه النَّفسيَّ وَصفاً دَقيقاً: تَفكيرٌ، ثمّ تَقديرٌ، ثمّ نَظَر، ثمّ عُبوس، ثمّ إدبارٌ واستِكبار، ثمّ الحُكمُ الذي أرضى به قَومَه. وحُجَجُه في رَدِّ الكِهانةِ والشِّعرِ مَنقولةٌ عنه بتَفصيل.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

شَهادةُ الخَصمِ أقوى الشَّهادات، خاصّةً إذا كان **خَبيراً في مَجالِ الشَّهادة**. والوَليدُ كان حَكَماً في الشِّعرِ تُعرَضُ عليه القَصائد. وقد فَرَّقَ تَفريقاً فَنّيّاً دَقيقاً بين القرآنِ وكلِّ ما يُشبِهُه ظاهِراً: قال عن الشِّعر: «لقد عَرَفتُ الشِّعرَ كلَّه... وما هو بالشِّعر»، وعن الكِهانة: «ما هو بزَمزَمةِ الكاهِنِ ولا سَجعِه». ثمّ وَصَفَ بِنيَتَه: «**أسفَلُه مُغدِق وأعلاه مُثمِر**» – أي أنّ ظاهِرَه جَميلٌ وباطِنَه غَزيرُ المَعنى. وهذا وَصفٌ فَنّيٌّ من مُتَخَصِّصٍ مُعادٍ، لا ثَناءُ مُحِبّ. ثمّ إنّ رُجوعَه عن قَولِه **بعدَ ضَغطِ قَومِه** – وهو مُسَجَّلٌ في القرآنِ نَفسِه – يَكشِفُ أنّ التَّكذيبَ كان مَوقِفاً اجتِماعيّاً لا قَناعةً عَقليّة.

١٤٤

لا شِعرٌ ولا نَثرٌ ولا سَجعُ كُهّان

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

سورة الحاقّة – الآيتان ٤١-٤٢

نَصٌّ لا يَدخُلُ في أيِّ قالَبٍ من قَوالِبِ العربيّةِ المَعروفة

بكلامٍ بسيط

العربيّةُ كان فيها ثَلاثةُ أشكالٍ للكَلامِ الرَّفيع: **الشِّعرُ** بأوزانِه، و**النَّثرُ** المُرسَل، و**سَجعُ الكُهّان**. والقرآنُ ليس واحداً منها – بل جِنسٌ قائمٌ بذاتِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَرَبُ كانوا أعلَمَ أهلِ الأرضِ بأوزانِ الشِّعرِ وبُحورِه وقَوافيه، يُمَيِّزونَ الكَسرَ في البَيتِ بالسَّليقة. وكانوا يَعرِفونَ سَجعَ الكُهّانِ ويَسخَرونَ من تَكَلُّفِه. ومع ذلك **اضطَرَبَ قَولُهم في القرآنِ اضطِراباً شَديداً**: قالوا شِعر، ثمّ سِحر، ثمّ كِهانة، ثمّ أساطيرُ الأوَّلين – وكلُّ رَأيٍ يَنقُضُ ما قبلَه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القرآنُ يُخالِفُ الشِّعرَ لأنّه **لا يَجري على وَزنٍ ولا قافِيةٍ مُلتَزَمة**، ويُخالِفُ النَّثرَ لأنّ فيه **إيقاعاً داخِلِيّاً وفَواصِلَ مُنتَظِمة**، ويُخالِفُ السَّجعَ لأنّ سَجعَ الكُهّانِ **يُتكَلَّفُ فيه اللَّفظُ لأجلِ الفاصِلة** بينما القرآنُ تَجيءُ فَواصِلُه تابِعةً للمَعنى لا حاكِمةً عليه. وهذا مَبحَثٌ مُستَقِرٌّ في الدِّراساتِ اللُّغَويّةِ العربيّةِ والاستِشراقيّةِ معاً. وقد قال المُستَشرِقُ آربري إنّ إيقاعَه لا نَظيرَ له في اللُّغاتِ التي يَعرِفُها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

اضطِرابُ الخُصومِ في التَّصنيفِ هو الدَّليل. فحين يَعجِزُ خُبَراءُ فَنٍّ عن إدراجِ نَصٍّ تحت أيِّ بابٍ من أبوابِ فَنِّهم، ويَتَناقَضُ قَولُهم فيه من مَجلِسٍ إلى مَجلِس، فذلك أمارةٌ على أنّه خارِجٌ عن جِنسِ ما يَعرِفون. والقرآنُ سَجَّلَ هذا الاضطِرابَ نَفسَه عليهم: «**انظُر كيف ضَرَبوا لكَ الأمثالَ فضَلُّوا**». ثمّ تَحَدّاهم بالمَعيارِ الذي يُتقِنونَه: لا بالسَّيفِ ولا بالمالِ، بل **بِصِناعَتِهم التي بَرَعوا فيها دون أهلِ الأرض**. ومَن يَختَلِقُ كِتاباً لا يُقامِرُ بأن يَتَحَدّى خُصومَه في المَيدانِ الذي يَتَفَوَّقونَ فيه.

١٤٥

كِتابٌ يُعاتِبُ صاحِبَه

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ

سورة عَبَس – الآيات ١-٣

آياتٌ فيها عِتابٌ صَريحٌ للنَّبيِّ ﷺ

«عَبَسَ وتَوَلّى» · «عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم»

«ما كان لنَبيٍّ أن يَكونَ له أسرى» · «وتُخفي في نَفسِكَ»

ثمّ تُتلى على النّاسِ في الصَّلاةِ جَهراً

وتُحفَظُ وتُكتَبُ ولا تُحذَفُ أبداً

مَن يَختَلِقُ كِتاباً لا يَضَعُ فيه لَومَ نَفسِه

بكلامٍ بسيط

في القرآنِ آياتٌ **تُعاتِبُ النَّبيَّ ﷺ نَفسَه** وتُصَحِّحُ له مَوقِفاً. وهذه الآياتُ تُتلى على النّاسِ جَهراً في الصَّلاة، ويَحفَظُها الصِّغارُ والكِبار، ولم تُحذَف ولم تُخَفَّف.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

مَن يَدَّعي النُّبُوّةَ يَحتاجُ إلى **صورةٍ كامِلةٍ لا نَقصَ فيها**. وأعداؤه يَتَرَبَّصونَ بأيِّ زَلّة. فأن يَنزِلَ نَصٌّ يُعاتِبُه ويُخَطِّئُ اجتِهادَه، ثمّ يُتلى في المَسجِدِ أمامَ الجَميع، أمرٌ يُخالِفُ كلَّ حِسابٍ سِياسيٍّ أو نَفسيّ.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الأمثِلةُ كَثيرةٌ وصَريحة: **سورةُ عَبَس** كاملةً في عِتابِه حين انصَرَفَ عن رَجُلٍ أعمى إلى سادةِ قُرَيش؛ و«**عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم**» في إذنِه للمُتَخَلِّفينَ عن تَبوك؛ و«**ما كان لنَبيٍّ أن يَكونَ له أسرى حتّى يُثخِنَ في الأرض**» في أسرى بَدر؛ و«**وتُخفي في نَفسِكَ ما اللهُ مُبديه وتَخشى النّاسَ واللهُ أحَقُّ أن تَخشاه**»؛ و«**لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لك**». وقد قالت عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها: لو كان النَّبيُّ ﷺ كاتِماً شَيئاً من الوَحي لَكَتَمَ هذه الآية.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا من أقوى الأدِلّةِ العَقليّةِ في هذا الباب، وهو ما يُسَمّى عند المُؤَرِّخينَ **«مِعيارَ الإحراج»**: النَّصُّ الذي يَضُرُّ بمَصلَحةِ ناقِلِه أقربُ إلى الصِّدق. ولاحِظ أنّ العِتابَ لم يَقَع في مَسائلَ هامِشيّة، بل في **قَراراتٍ سِياسيّةٍ وعَسكَريّةٍ كُبرى**: التَّعامُلُ مع الأسرى، والإذنُ للمُنافِقين، وحالٌ شَخصيّةٌ في بَيتِه. وأضِف إلى ذلك تَفصيلاً آخَر: أنّ القرآنَ **أجابَ عن أسئلةٍ ولم يُجِب عن أُخرى**، بل تَأخَّرَ الوَحيُ عن النَّبيِّ ﷺ أيّاماً في حادِثةِ الإفكِ وزَوجُه مُتَّهَمة، حتّى قال النّاسُ ما قالوا. ولو كان الأمرُ بيَدِه لَما تَأخَّرَ يوماً واحداً.

١٤٦

كَلامُه ﷺ لا يُشبِهُ القُرآنَ أبداً

وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ

سورة النَّجم – الآيتان ٣-٤

التَّحليلُ الأُسلوبيُّ يُفَرِّقُ بينهما بلا عَناء

بكلامٍ بسيط

النَّبيُّ ﷺ كان أفصَحَ العَرَب، وأحاديثُه في قِمّةِ البَلاغة. ومع ذلك **لا يَشتَبِهُ حَديثُه بالقرآنِ على أحدٍ أبداً** – الأُسلوبانِ مُختَلِفانِ اختِلافاً واضِحاً، ولم يَحدُث قَطُّ أن نُسِبَ حَديثٌ إلى القرآن.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لو كان القرآنُ من تأليفِه ﷺ لكان أُسلوبُه واحداً في كَلامِه كلِّه – فالإنسانُ يَحمِلُ بَصمةً أُسلوبيّةً لا يَستَطيعُ الفِكاكَ منها، خاصّةً على مَدى عِشرينَ سنة. وأصحابُه كانوا يَسمَعونَ الاثنَينِ يَوميّاً، فلم يَختَلِط عليهم أمرُهما لَحظةً واحدة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

التَّحليلُ الأُسلوبيّ (Stylometry) عِلمٌ قائمٌ اليومَ يُنسَبُ به النَّصُّ إلى صاحِبِه بِقياسِ تَوزيعِ الكَلِماتِ وطُولِ الجُمَلِ وبُنيةِ التَّراكيب. وقد طُبِّقَ على القرآنِ والحَديثِ فظَهَرَ اختِلافُهما البَيِّن. وأوضَحُ فَرقٍ في البِنيَة: القرآنُ يَقومُ على **الفَواصِلِ المُنتَظِمة** والالتِفاتِ والتَّنَقُّلِ بين الضَّمائر، والحَديثُ لا يَجري على هذا البِناء. ثمّ إنّ القرآنَ **يُخاطِبُ النَّبيَّ ﷺ نَفسَه بصيغةِ الأمرِ والنَّهيِ والعِتاب** ويَأمُرُه أن يَقولَ «قُل» – أكثَرَ من ثَلاثِمِئةِ مَرّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أضِف إلى ذلك نَوعاً ثالِثاً: **الحَديثُ القُدُسيّ** – وهو ما يَرويه النَّبيُّ ﷺ عن رَبِّه بالمَعنى، ومع ذلك **لا يُعَدُّ قُرآناً ولا يُتلى في الصَّلاة**. فعِندَنا ثَلاثةُ مُستَوَياتٍ من الكَلامِ يَنطِقُ بها رَجُلٌ واحد، ويُفَرَّقُ بينها تَفريقاً حاسِماً في الحُكمِ والتَّعامُل: القرآنُ يُتعَبَّدُ بتِلاوَتِه ويُتَحَدّى به ويُنقَلُ بالتَّواتُرِ حَرفاً بحَرف؛ والقُدُسيُّ يُنسَبُ إلى اللهِ في مَعناه ويُروى بلَفظِ النَّبيِّ ﷺ؛ والنَّبَويُّ كَلامُه هو. هذا **التَّمييزُ الثُّلاثيُّ الدَّقيق** قائمٌ منذ اليومِ الأوّلِ ولم يَختَلِط. ولو كان الكلُّ من مَصدَرٍ واحدٍ بَشَريٍّ لما أمكَنَ الحِفاظُ على هذا الفَصلِ عِشرينَ سنة.

ولَكُم في القِصاصِ حَياة

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

سورة البقرة – الآية ١٧٩

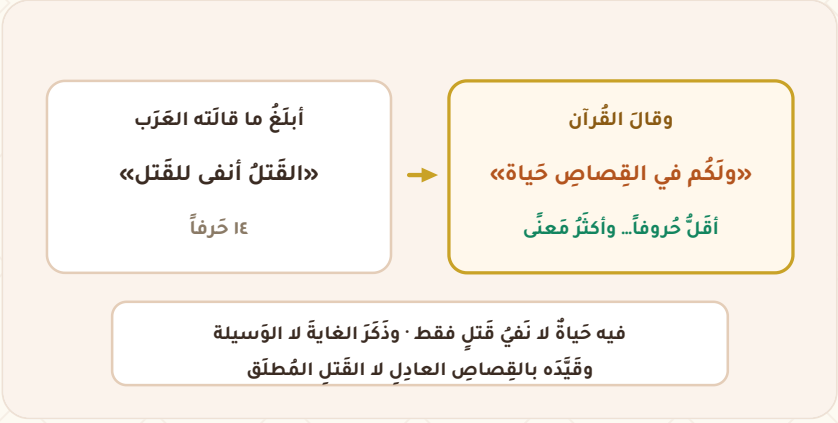

مِثالٌ واحدٌ من مِئاتٍ يَدرُسُها عُلَماءُ البَلاغة

بكلامٍ بسيط

كان أبلَغُ ما تَفتَخِرُ به العَرَبُ في هذا المَعنى قَولُهم: «**القَتلُ أنفى للقَتل**». فجاء القرآنُ بجُملةٍ **أقَلَّ حُروفاً وأغزَرَ مَعنًى**: «ولَكُم في القِصاصِ حَياة».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

«القَتلُ أنفى للقَتل» كانت تُعَدُّ قِمّةَ الإيجازِ عند العَرَبِ ويُضرَبُ بها المَثَل. وكانوا يَتَنافَسونَ في اختِصارِ المَعاني العَظيمةِ في ألفاظٍ قَليلة، ويَعُدُّون ذلك أعلى دَرَجاتِ الفَصاحة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

حَلَّلَ عُلَماءُ البَلاغةِ الفَرقَ بينهما فوَجَدوا سَبعةَ وُجوهٍ فأكثَر. من أظهَرِها: أنّ القرآنَ ذَكَرَ **الحَياةَ** وهي الغايةُ المَحبوبة، والمَثَلُ ذَكَرَ القَتلَ وهو مَكروه؛ وأنّه قَيَّدَه بـ**«القِصاص»** أي القَتلِ العادِلِ المَشروع، والمَثَلُ أطلَقَ القَتلَ فشَمِلَ الظُّلمَ؛ وأنّه أثبَتَ حَياةً **مُستَمِرّةً لِلمُجتَمَعِ كلّه** لا مُجَرَّدَ نَفيٍ لحالةٍ واحدة؛ وأنّه خَلا من تَكرارِ لَفظِ «القَتل» مَرَّتَين؛ وأنّه خَتَمَ بالغايةِ الأخلاقيّة: «لعلّكم تَتَّقون». كلُّ ذلك بحُروفٍ أقَلّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ما يُهِمُّ هنا ليس هذا المِثالَ وحدَه، بل **أنّه ليس استِثناءً**. فعُلومُ البَلاغةِ العربيّةِ كلُّها – المَعاني والبَيانُ والبَديع – نَشَأَت أصلاً في مُحاوَلةِ تَفسيرِ إعجازِ هذا النَّصّ، وأُلِّفَت فيها مِئاتُ الكُتُبِ من «إعجازِ القرآن» للباقِلّانيّ إلى «دَلائلِ الإعجاز» و«أسرارِ البَلاغة» لعبدِ القاهِرِ الجُرجانيّ. أي أنّ **عِلماً إنسانيّاً كامِلاً قامَ لأجلِ تَحليلِ كِتابٍ واحد** – ولا نَظيرَ لذلك في تاريخِ أيِّ لُغةٍ من لُغاتِ الأرض. وما زال الباحِثونَ إلى اليومِ يَستَخرِجونَ منه ما لم يَستَخرِجه مَن قبلَهم.

أُوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم

بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

«الدِّينُ النَّصيحة»

«لا ضَرَرَ ولا ضِرار»

«إنّما الأعمالُ بالنِّيّات»

«المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ من لِسانِه ويَدِه»

كَلِماتٌ مَعدودةٌ.. بُنِيَت عليها أبوابٌ كامِلةٌ في الفِقه

قَواعِدُ كُلّيّةٌ تَنتَظِمُ آلافَ المَسائل

بكلامٍ بسيط

من خَصائصِ النَّبيِّ ﷺ أنّه كان يَقولُ **الكَلِمةَ القَليلةَ تَحمِلُ المَعنى الكَثير**. وقد بُنِيَت على أحاديثَ من بِضعِ كَلِماتٍ أبوابٌ كامِلةٌ في الفِقهِ والقانون.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحِكمةُ المُوجَزةُ مَعروفةٌ في كلِّ الأُمَم: أمثالُ العَرَبِ وحِكَمُ الهِندِ ومَواعِظُ اليونان. لكنّها **مَواعِظُ أخلاقيّةٌ عامّة**، لا قَواعِدَ يُبنى عليها نِظامٌ قانونيٌّ مُتَكامِل. والفَرقُ بين الحِكمةِ والقاعِدةِ الفِقهيّةِ فَرقٌ جَوهَريّ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

خُذ مِثالاً واحداً: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرار**» – أربَعُ كَلِمات. بُنِيَ عليها بابٌ كامِلٌ في الفِقهِ الإسلاميِّ يَشمَلُ: الجِوارَ والبِناءَ والطَّلاقَ والبَيعَ والشُّفعةَ والغَصبَ والمِلكيّةَ وتَقييدَ حَقِّ المالِك. وقد صارَت من **القَواعِدِ الكُبرى الخَمسِ** التي تَدورُ عليها المَذاهِبُ الفِقهيّةُ كلُّها. ومِثلُها «إنّما الأعمالُ بالنِّيّات» التي جَعَلَها الأئمّةُ ثُلُثَ العِلم، وقال الشّافِعيُّ إنّها تَدخُلُ في سَبعينَ باباً من الفِقه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القُدرةُ على صِياغةِ **قاعِدةٍ كُلّيّةٍ جامِعةٍ مانِعة** أصعَبُ بكَثيرٍ من كِتابةِ نَصٍّ مُطَوَّل. فالقاعِدةُ يَجِبُ أن تَستَوعِبَ كلَّ ما يَدخُلُ تَحتَها وتَستَبعِدَ كلَّ ما لا يَدخُل، وأن تَصمُدَ أمامَ حالاتٍ لم تَخطُر لصاحِبِها. وهذا ما يَشتَغِلُ به المُشَرِّعونَ اليومَ فتَخرُجُ نُصوصُهم في مُجَلَّداتٍ ثمّ تُعَدَّلُ كلَّ سنة. أمّا أن يَصمُدَ نَصٌّ من أربَعِ كَلِماتٍ أربعةَ عشرَ قَرناً، ويَستَوعِبَ نَوازِلَ لم تَكُن مَوجودةً أصلاً – كالتَّلَوُّثِ الصِّناعيِّ والضَّرَرِ الرَّقميِّ – فذلك أمرٌ يَستَحِقُّ الوَقفةَ عندَه. ولاحِظ أنّ الحَديثَ نَفسَه يَنسِبُ ذلك إلى الوَهبِ لا الكَسب: «**بُعِثْتُ** بجَوامِعِ الكَلِم».

كِتابٌ في صُدورِ الملايين

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

سورة العنكبوت – الآية ٤٩

أكثَرُ كِتابٍ حُفِظَ عن ظَهرِ قَلبٍ في تاريخِ البَشَر

مَلايينُ الحُفّاظِ في كلِّ قارّةٍ وكلِّ جِيل

نَسخةٌ حَيّةٌ في كلِّ صَدر – لا تُحرَقُ ولا تُبَدَّل

بكلامٍ بسيط

القرآنُ لم يُحفَظ في الكُتُبِ وحدَها – بل في **صُدورِ النّاس**. ومنذ أربعةَ عشرَ قَرناً يَحفَظُه في كلِّ جِيلٍ مَلايينُ البَشَر، بينهم أطفالٌ لا يَتَكَلَّمونَ العربيّةَ أصلاً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الكُتُبُ القَديمةُ كانت تُحفَظُ في نُسَخٍ مَعدودةٍ عند الكَهَنةِ والعُلَماء. فإذا احتَرَقَت المَكتَبةُ أو ضاعَت النُّسخةُ ضاعَ الكِتاب – وهذا ما وَقَعَ لكُتُبٍ كَثيرةٍ لا تُعرَفُ إلّا بأسمائها. وكانت الأُمِّيّةُ عائقاً أمامَ انتِشارِ أيِّ نَصّ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عَدَدُ حَفَظةِ القرآنِ اليومَ يُقَدَّرُ بالمَلايين، في إندونيسيا ونيجيريا وتُركيا وباكستان والبِلادِ العربيّةِ وأوروبّا وأمريكا. وتُقامُ لهم مُسابَقاتٌ دَوليّةٌ يَتَبارَون فيها بالحِفظِ حَرفاً بحَرفٍ مع الضَّبطِ والتَّجويد. و**أكثَرُهم من غيرِ العَرَب** – أي أنّهم يَحفَظونَ نَصّاً بلُغةٍ ليست لُغَتَهم الأُمّ. ولا يُعرَفُ كِتابٌ آخَرُ في تاريخِ الإنسانيّةِ حُفِظَ بهذه الكَثرةِ وبهذه الدِّقّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أثَرُ هذا على **استِحالةِ التَّحريف** هو مَوضِعُ الدَّلالة. فالنَّصُّ المَحفوظُ في الكُتُبِ وحدَها يُمكِنُ تَبديلُه بالسَّيطرةِ على النُّسَخ. أمّا نَصٌّ يَحفَظُه مَلايينُ البَشَرِ في قارّاتٍ مُتَباعِدة، لا تَجمَعُهم سُلطةٌ ولا لُغةٌ ولا دَولة، ويُتلى في الصَّلاةِ خَمسَ مَرّاتٍ كلَّ يوم – فتَبديلُ حَرفٍ واحدٍ منه **يَستَحيلُ عَمَليّاً**، لأنّه سيُكشَفُ في أوّلِ صَلاةِ جَماعة. وهذا ما تُشيرُ إليه الآيةُ بدِقّة: «آياتٌ بَيِّناتٌ **في صُدور**» – لا «في صُحُف». وهو تَحقيقٌ عَمَليٌّ لقَولِه: «إنّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنّا له لَحافِظون»، بآليّةٍ بَشَريّةٍ قابِلةٍ للمُلاحَظةِ والعَدّ.

كلُّ آيةٍ تُختَمُ بما يُناسِبُها

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

خَواتيمُ مُتَفَرِّقةٌ في القُرآن

انسِجامٌ دَقيقٌ بين مَضمونِ الآيةِ واسمِ اللهِ الذي تُختَمُ به

بكلامٍ بسيط

أكثَرُ آياتِ القرآنِ تُختَمُ باسمَينِ من أسماءِ اللهِ الحُسنى. والعَجيبُ أنّ **كلَّ خاتِمةٍ تُناسِبُ مَوضوعَ آيَتِها بدِقّة** – لو بَدَّلتَ خاتِمةً بأُخرى لأحسَستَ فَوراً أنّ شيئاً اختَلّ.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

الشِّعرُ العَرَبيُّ يَلتَزِمُ قافِيةً واحدةً في القَصيدة، وكَثيراً ما **يُتَكَلَّفُ اللَّفظُ لأجلِها** حتّى يُحشى البَيتُ بكَلِمةٍ لا حاجةَ إليها. وهذا عَيبٌ يَعرِفُه النُّقّاد. وسَجعُ الكُهّانِ كان أشَدَّ تَكَلُّفاً. فالتَّوَقُّعُ أن يَقَعَ في نَصٍّ ذي فَواصِلَ مِثلُ هذا التَّكَلُّف.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في القرآنِ العَكسُ تَماماً: **الفاصِلةُ تابِعةٌ للمَعنى لا حاكِمةٌ عليه**. فآيةُ عُقوبةٍ وانتِقامٍ تُختَمُ بـ«عَزيزٌ ذو انتِقام»، وآيةُ تَوبةٍ بـ«غَفورٌ رَحيم»، وآيةُ دُعاءٍ بـ«سَميعٌ عَليم» – لأنّ الدّاعيَ يَحتاجُ أن يُسمَعَ ويُعلَمَ حالُه. وأشهَرُ مِثالٍ على الدِّقّة: آيةُ السَّرِقةِ تُختَمُ بـ«**عَزيزٌ حَكيم**» – عِزّةٌ في تَنفيذِ الحَدِّ وحِكمةٌ في تَشريعِه؛ فإذا جاءت آيةُ التَّوبةِ بعدَها خُتِمَت بـ«**غَفورٌ رَحيم**». وقد أُلِّفَت في هذا كُتُبٌ كاملةٌ باسمِ «عِلمِ الفَواصِل».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

جَرِّب هذا بنَفسِك: خُذ أيَّ نَصٍّ مُقَفًّى طَويلٍ من أيِّ لُغة، واختَبِر هل تُناسِبُ كلُّ قافِيةٍ مَضمونَ جُملَتِها مُناسَبةً دَقيقة. ستَجِدُ حَتماً مَواضِعَ حُشِيَت لأجلِ الوَزنِ أو القافِية – وهذا طَبيعيٌّ في عَمَلِ البَشَر. والقرآنُ فيه أكثَرُ من ستّةِ آلافِ آية، مُعظَمُها مَختومٌ بفاصِلة، نَزَلَت **مُتَفَرِّقةً على ثَلاثٍ وعِشرينَ سنة** بلا مُسَوَّدةٍ ولا مُراجَعة. أن يَستَقيمَ هذا الانسِجامُ في هذا العَدَدِ وبهذه الطَّريقةِ في النُّزول، أمرٌ لا يُفَسَّرُ بمَهارةٍ لُغَويّةٍ مَهما بَلَغَت.

والآن... ماذا تَصنَعُ بكلِّ هذا؟

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

سورة فُصِّلت – الآية ٥٣

لا يُطلَبُ منك التَّسليمُ لدَليلٍ واحد... بل النَّظَرُ في مَجموعِها

بكلامٍ بسيط

وَصَلتَ إلى آخِرِ الكِتاب. كلُّ دَليلٍ مَرَّ بك يُمكِنُ أن تُناقِشَه وَحدَه. لكنّ السُّؤالَ الحَقيقيّ: **ما احتِمالُ أن تَجتَمِعَ هذه كلُّها صُدفةً في رَجُلٍ واحد؟**

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كلُّ أُمّةٍ في التّاريخِ كان عندها ما تُعَظِّمُه. لكنّ السُّؤالَ الذي يُفَرِّقُ: هل عندها ما **يُمكِنُ اختِبارُه وتَكذيبُه**؟ الأساطيرُ لا تُقَدِّمُ نُبوءةً مُؤَقَّتةً بمُدّة، ولا وَصفاً كَونيّاً يُخالِفُ عِلمَ زَمانِه، ولا تَحَدّياً مَفتوحاً يَبقى قائماً أربعةَ عشرَ قَرناً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

ما قَرَأتَه هنا خَمسةُ خُيوطٍ مُستَقِلّةٍ تَماماً، لا يَعتَمِدُ أحَدُها على الآخَر: **وَصفٌ كَونيٌّ** يُخالِفُ عِلمَ عَصرِه ثمّ يُصَدِّقُه العِلمُ بعدَ قُرون؛ و**شَواهِدُ أثَريّة** خَرَجَت من تحتِ الأرضِ بعدَ أن أُنكِرَت؛ و**نُبوءاتٌ مُؤَقّتةٌ مُحَدَّدة** وَقَعَت كما قِيلَت؛ و**نُصوصٌ في كُتُبِ الخُصومِ أنفُسِهم** ما زالت بين أيديهم؛ و**تَحَدٍّ لُغَويٌّ مَفتوحٌ** لم يُقبَل. ولو سَقَطَ خَيطٌ لبَقِيَت الأربَعةُ قائمة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

المَنطِقُ هنا هو مَنطِقُ **تَراكُمِ الأدِلّةِ المُستَقِلّة**، وهو الذي يُعمَلُ به في القَضاءِ والعِلمِ معاً. فدَليلٌ واحدٌ قد يُحتَمَل، ودَليلانِ قد يُتَّفَقان، أمّا عَشَراتُ الأدِلّةِ من حُقولٍ لا صِلةَ بينها – فَلَكٌ وجيولوجيا وطِبٌّ وآثارٌ وتاريخٌ ولُغة – تُشيرُ كلُّها إلى جِهةٍ واحدة، فذلك ما لا يُفَسَّرُ بالمُصادَفة. والقرآنُ لا يَطلُبُ منك تَسليماً أعمى؛ بل يَدعوكَ إلى النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ في أكثَرَ من سَبعِمِئةِ مَوضِع: «أفلا يَنظُرون»، «أفلا يَتَدَبَّرون»، «أفلا يَعقِلون»، «قُل هاتوا بُرهانَكم». وقد وَضَعَ أمامَكَ ما وَعَدَ به: **«سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم»**. وقد رَأيتَ. والباقي مَتروكٌ لك وَحدَك.

خاتمة

وَصلتَ إلى آخِرِ الطَّريق. ولَعَلَّ أهَمَّ ما يُقالُ في الخِتامِ هو ما لا يُقال: هذا الكِتابُ لا يُريدُ أن يُلزِمَكَ بشَيء، بل أن يَضَعَ أمامَكَ ما يَستَحِقُّ أن تُفَكِّرَ فيه.

ثَلاثُ نَصائِحَ إن أردتَ أن تُكمِل

- **لا تَبنِ إيمانَكَ على دَليلٍ واحد.** أيُّ دَليلٍ مُفرَدٍ يُمكِنُ أن يُناقَشَ ويُضَعَّف. والقُوّةُ في **مَجموعِها** لا في أفرادِها – كالحَبلِ المَفتولِ من خُيوطٍ كَثيرة: كلُّ خَيطٍ يَنقَطِعُ وحدَه، ومَجموعُها يَحمِلُ الجِبال.
- **ولا تَجعَل العِلمَ حاكِماً على الوَحي.** العِلمُ يَتَغَيَّرُ وتُنقَضُ نَظَريّاتُه، وهذا من شَرَفِه لا عَيبِه. فإذا اتَّفَقَ نَصٌّ قَطعيٌّ مع حَقيقةٍ عِلميّةٍ ثابِتةٍ فذلك شاهِدٌ يُذكَر؛ وإن لم يَتَّفِق فانظُر: أهي حَقيقةٌ مُثبَتةٌ أم نَظَريّةٌ تُراجَع؟ وأهو نَصٌّ قَطعيُّ الدَّلالةِ أم فَهْمٌ مِنّا يَحتَمِل؟
- **واقرَأ القُرآنَ نَفسَه.** كلُّ ما في هذا الكِتابِ إشاراتٌ إلى الأصل. ومَن أرادَ أن يَعرِفَ أثَرَ الدَّواءِ فليَشرَبه، لا أن يَكتَفيَ بقِراءةِ النَّشرة.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

وآخِرُ دَعوانا أنِ الحَمدُ للهِ ربِّ العالَمين، وصَلّى اللّهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا محمّدٍ وعلى آلِه وصَحبِه أجمَعين.

مِن أينَ جاءَت هذه الأخبار؟

كلُّ نَصٍّ في هذا الكِتابِ مَنسوبٌ إلى مَصدَرِه في صَفحَتِه. وهذه خُلاصةُ الأُصولِ التي اعتُمِدَت، ليَتَمَكَّنَ القارِئُ من المُراجَعةِ بنَفسِه.

أوّلاً: النُّصوصُ الشَّرعيّة

- **القُرآنُ الكَريم** – بذِكرِ اسمِ السّورةِ ورَقمِ الآيةِ في كلِّ مَوضِع.
- **صَحيحُ البُخاريِّ وصَحيحُ مُسلِم** – وهما أصَحُّ كِتابَينِ بعدَ كِتابِ الله، ومُعظَمُ الأحاديثِ في هذا الكِتابِ منهما أو مُتَّفَقٌ عليه بينهما.
- **السُّنَنُ والمَسانيد** – أبو داود، والتِّرمِذيّ، والنَّسائيّ، وابنُ ماجه، ومُسنَدُ أحمد، ومُوَطَّأُ مالِك، وصَحيحُ ابنِ حِبّان – مع بَيانِ دَرَجةِ الحَديثِ عند أهلِ العِلم.

ثانياً: العُلومُ الطَّبيعيّةُ والآثار

- **الفَلَكُ والفيزياء** – نَظَريّةُ الانفجارِ العَظيم، تَوَسُّعُ الكَون، النُّجومُ النّابِضة، الشَّبَكةُ الكَونيّة، الثُّقوبُ السَّوداء، الضَّبطُ الدَّقيقُ لثَوابِتِ الكَون.
- **الجُيولوجيا وعُلومُ البِحار** – الصَّفائحُ التَّكتونيّة، جُذورُ الجِبال، حِيدُ وَسَطِ المُحيط، الفُوَّهاتُ الحَراريّة، الأمواجُ الدّاخِليّة، امتِصاصُ الضَّوءِ في الماء.
- **الطِّبُّ وعِلمُ الأجِنّة** – مَراحِلُ تَكَوُّنِ الجَنينِ كما في المَراجِعِ الجامِعيّةِ المُعتَمَدة، وَظائفُ الفَصِّ الجَبهيّ، مُستَقبِلاتُ الألَمِ في الجِلد، تَوصِياتُ مُنَظَّمةِ الصِّحّةِ العالَميّة.
- **الآثارُ والتّاريخ** – مُومياواتُ مُتحَفِ القاهِرة، نُقوشُ مِصرَ القَديمة، مَدائنُ صالِح، مَوقِعُ الشِّصر (أُوبار)، سَدُّ مَأرِب، نُقوشُ نَجرانَ الحِميَريّة، مَخطوطُ بِرمِنغهام.

ثالثاً: كُتُبُ أهلِ الكِتاب

نُصوصُ التَّوراةِ والإنجيلِ في هذا الكِتابِ مَنقولةٌ عن **التَّرجَمةِ العربيّةِ المُعتَمَدة (فان دايك)** مع الإشارةِ إلى السِّفرِ والإصحاحِ والعَدَد، وإلى النَّصِّ العِبريِّ أو اليونانيِّ حيث كان لذلك مَوضِع. وهي مُتاحةٌ لكلِّ قارِئٍ ليُراجِعَها بنَفسِه.